في ظلال القرآن

الجزء الثلاثون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

فى ظلال القرآن

الجزء الثلاثون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه


بسم الله الرحمن الرحيم
من سورة النبأ إلى آخر الجزء الثلاثين

سُورة النبأ مكية
وآياتها ٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ؟ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ . كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ .

« أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ؟ * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا .

« إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا .

« إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا .

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا * جَزَاءً مِن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا .

« رَبِّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَانِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا * ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا .

« إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » .

هـذا الجزء كله ـ ومنه هـذه السورة ـ ذو طابع غالب . . سوره مكية فيما عدا سورتى « البينة » و « النصر » وكلها من قصار السور على تفاوت فى القصر . والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذى يجعلها وحدة ـ على وجه التقريب ـ فى موضوعها واتجاهها ، وإيقاعها ، وصورها وظلالها ، وأسلوبها العام .

إنها طرقات متوالية على الحس. طرقات عنيفة قوية عالية. وصيحات . صيحات بنوّم غارقين فى النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكارى مخمورين ثقل حسهم الُخمار ! أو بلاهين فى سامر راقصين فى ضجة وتصدية ومكاء ! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من سور هـذا الجزء كله بإيقاع واحـد ونذير واحد : اصحوا . استيقظوا . انظـروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . . إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا . وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذابا شديدا . ونعيما كبيرا . . اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا ... وهكذا مرة أخرى . وثالثة ورابعة. وخامسة ... وعاشرة .. ومع الطرقات والصيحات يد قوية تهز النائمين المخمورين السادرين هزا عنيفا . . وهم كأنما يفتحون أعينهم وينظرون فى خمار مرة ، ثم يعودون لما كانوا فيه ! فتعود اليد القوية تهزهم هزا عنيفا ؛ ويعود الصوت العالى يصيح بهم من جديد ؛ وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب .. وأحيانا يتيقظ النوام ليقولوا : فى إصرار وعناد : لا .. ثم يحصبون الصائح المنذر المنبه بالأحجار والبذاء . . ثم يعودون لما كانوا فيه . فيعود إلى هزهم من جديد .

هكذا خيل إلى وأنا أقرأ هذا الجزء . وأحس تركيزه على حقائق معينة قليلة العدد ، عظيمة القدر ، ثقيلة الوزن . وعلى إيقاعات معينة يلمس بها أوتار القلوب . وعلى مشاهد معينة في الكون والنفس . وعلى أحداث معينة في يوم الفصل . وأرى تكرارها مع تنوعها . هذا التكرار الموحى بأمر وقصد !

وهكذا يحس القارىء وهو يقرأ : « فلينظر الإنسان إلى طعامه . . . » . . « فلينظر الإنسان مم خلق ؟ ... » .. «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت ؟ وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » . .

وهو يقرأ : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ؟ رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم » . . « ألم نجعل الأرض مهادا ؟ والجبال أوتادا ؟وخلقناكم أزواجا؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ؟ وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ؟ » . . . . «فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » . .

وهو يقرأ « ياأيها الإنسان . ماغرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك ؟ » . .

« سبح اسم ربك الأعلى ،الذى خلق فسوى ،والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » . . « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون . فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ »

وهو يقرأ : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ؟ وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت » . . « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ،وإذا البحار فجرت ،وإذا القبور بعثرت. علمت نفس ماقدمت وأخرت » ..

« إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت مافيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت ... » .. « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان مالها . . يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » . .

وهو يقرأ اللمحات والسبحات الكونية فى مفاتح عدد من السور وفى ثناياها : « فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » .. « فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق » . . « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر » .. « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها » . . « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى » .. « والضحى . والليل إذا سجى » . .

الخ . . الخ . .

وفى الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى فى هذه الأرض من نبات وحيوان . وعلى مشاهد هذا الكون وآياته فى كتابه المفتوح . وعلى مشاهد القيامة العنيفة الطامة الصاخة القارعة الغاشية . ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب فى صور تفرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية فى ضخامتها وهولها .. واتخاذها جميعا دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة . مع التفريع بها والتخويف والتحذير .. وأحيانا تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين . والأمثلة على هذا هى الجزء كله . ولكنا نشير إلى بعض النماذج فى هذا التقديم :

هذه السورة ــ سورة النبأ ــ كلها نموذج كامل لهذا التركيز على هذه الحقائق والمشاهد . ومثلها سورة « النازعات » . وسورة « عبس » تحتوى مقدمتها إشارة إلى حادث معين من حوادث الدعوة . . وبقيتها كلها حديث عن نشأة الحياة الإنسانية والحياة النباتية ثم عن الصاخة : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه ، وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة » . وسورة « التكوير » وهى تصور مشاهد الانقلاب الكونى الهائلة فى ذلك اليوم ، مع عرض مشاهد كونية موحية فى صدد القسم على حقيقة الوحى وصدق الرسول . . وسورة

«الانفطار» كذلك فى عرض مشاهد الانقلاب مع مشاهد النعيم والعذاب ، وهز الضمير البشرى أمام هذه وتلك : « ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . . . الخ » وسورة « الانشقاق » وهى تعرض مشاهد الانقلاب الكونى ومشاهد النعيم والعذاب . . وسورة « البروج » وهى تلق إيقاعات سريعة حول مشاهد الكون ومشاهد اليوم بصدد إشارة إلى تعذيب الكفار لجماعة من المؤمنين فى الدنيا بالنار . وعذاب الله لأولئك الكفار فى الآخرة بالنار . وهو أشد وأنكى . .

وسورة « الطارق » . . وهى تعرض مشاهد كونية مع نشأة الإنسان ونشأة النبات للقسم بالجميع : « إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل » . . وسورة « الأعلى » وتتحدث عن الخلق والتسوية والتقدير والهداية ، وإخراج المرعى وأطواره تمهيداً للحديث عن الذكر والآخرة والحساب والجزاء .. وسورة « الغاشية » . . وهى تصوير لمشاهد النعيم والعذاب . ثم توجيه إلى خلق الإبل والسماء والأرض والجبال . . وهكذا . وهكذا . . إلى نهاية الجزء باستثناء سور قليلة تتحدث عن حقائق العقيدة ومنهج الإيمان . كسورة الإخلاص . وسورة الكافرون. وسورة الماعون . وسورة العصر . وسورة القدر . وسورة النصر . أو تسرى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتواسيه وتوجهه إلى الاستعاذة بربه من كل شر ، كسور الضحى . والانشراح . والكوثر . والفلق . والناس . . وهى سور قليلة على كل حال .

* * *

وهناك ظاهرة أخرى فى الأداء التعبيرى لهذا الجزء . هناك أناقة واضحة فى التعبير ، مع اللمسات المقصودة لمواطن الجمال فى الوجود والنفوس ، وافتنان مبدع فى الصور والظلال والإيقاع الموسيقى والقوافى والفواصل ، تتناسق كلها مع طبيعته فى خطاب الغافلين النائمين السادرين ، لإيقاظهم واجتذاب حسهم وحواسهم بشتى الألوان وشتى الإيقاعات وشتى المؤثرات . . يتجلى هذا كله بصورة واضحة فى مثل تعبيره اللطيف عن النجوم التى تخنس وتتوارى كالظباء فى كناسها وتبرز ، وعن الليل وكأنه حى يعس فى الظلام ، والصبح وكأنه حى يتنفس بالنور : « فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس، والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » وفى عرضه لمشاهد الغروب والليل والقمر : « فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق » . أو لمشاهد الفجر والليل وهو يتمشى ويسرى : « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل

إذا يسر » . « والضحى . والليل إذا سجى » . وفى خطابه الوحى للقلب البشرى : « ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ؟ الذى خلقك فسواك فعدلك . . » وفى وصف الجنة: « وجوه يومئذ ناعمة، لسعيها راضية، فى جنة عالية ، لاتسمع فيها لاغية ... » ووصف النار : « وأما من خفت موازينه فأمه هاوية .وما أدراك ماهيه ؟ نار حامية ! » . . والأناقه فى التعبير واضحة وضوح القصد فى اللمسات الجمالية لمشاهد الكون وخوالج النفس .

والعدول أحيانا عن اللفظ المباشر إلى الكناية ، وعن اللفظ القريب إلى الاشتقاق البعيد ، لتحقيق التنغيم المقصود ، مما يؤكد هذه اللفتة خلال الجزء كله على وجه التقريب . .

وهذه السورة نموذج لاتجاه هذا الجزء بموضوعاته وحقائقه وإيقاعاته ومشاهده وصوره وظلاله وموسيقاه ولمساته فى الكون والنفس ، والدنيا والآخرة ؛ واختيار الألفاظ والعبارات لتوقع أشد إيقاعاتها أثرا فى الحس والضمير .

وهى تفتتح بسؤال موح مثير للاستهوال والاستعظام وتضخيم الحقيقة التى يختلفون عليها ، وهى أمر عظيم لا خفاء فيه ، ولا شبهة ؛ ويعقب على هذا بتهديدهم يوم يعلمون حقيقته : « عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون ! » . .

ومن ثم يعدل السياق عن المضى فى الحديث عن هذا النبأ ويدعه لحينه ، ويلفتهم إلى ماهو واقع بين أيديهم وحولهم ، فى ذوات أنفسهم وفى الكون حولهم من أمر عظيم ، يدل على ماوراءه ويوحى بما سيتلوه : « ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ؟ وخلقناكم أزواجا ؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ؟ » .

ومن هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والصور والإيقاعات يعود بهم إلى ذلك النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون ،والذى هددهم به يوم يعلمون ! ليقول لهم ماهو ؟ وكيف يكون : « إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا » . .

ثم مشهد العذاب بكل قوته وعنفه : « إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لايذوقون فيها بردا ولا شرابا. إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لايرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » . .

ومشهد النعيم كذلك وهو يتدفق تدفقا : « إن للمتقين مفازا :حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا ، لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا » .

وتختم السورة بإيقاع جليل فى حقيقته وفى المشهد الذى يعرض فيه . وبإنذار وتذكير قبل أن يجيء اليوم الذى يكون فيه هـذا المشهد الجليـل : « رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمان لايملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمان وقال صوابا . ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » . .

ذلك هو النبأ العظيم . الذى يتساءلون عنـه . وذلك ماسيكون يوم يعلمـون ذلك النبأ العظيم !

* * *

« عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم . الذى هم فيـه مختلفون . كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون » . . مطلع فيه استنكار لتساؤل المتسائلين ، وفيـه عجب أن يكون هـذا الأمر موضع تساؤل . وقد كانوا يتساءلون عن يوم البعث ونبأ القيامة . وكان هو الأمر الذى يجادلون فيه أشد الجدل ، ولا يـكادون يتصورون وقوعه ، وهو أولى شيء بأن يـكون !

« عم يتساءلون ؟ » .. وعن أى شيء يتحدثون ؟ ثم يجيب . فلم يكن السؤال بقصد معرفة الجواب منهم . إنمـا كان للتعجيب من حالهم وتوجيه النظر إلى غرابة تساؤلهم ، بكشف الأمر الذى يتساءلون عنه وبيان حقيقته وطبيعته :

« عن النبإ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون » . . ولم يحدد ما يتساءلون عنه بلفظه ، إنما ذكره بوصفه . . النبأ العظيم . . استطرادا فى أسلوب التعجيب والتضخيم .. وكان الخلاف على اليوم بين الذين آمنوا به والذين كفروا بوقوعه . أما التساؤل فكان من هؤلاء وحدهم .

ثم لايجيب عن التساؤل ، ولايدلى بحقيقة النبأ المسؤول عنه . فيتركه بوصفه .. العظيم .. وينتقل إلى التلويح بالتهديد الملفوف ، وهو أوقع من الجواب المباشر ، وأعمق فى التخويف :

« كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون » .. ولفظ كلا ، يقال فى الردع والزجر فهو أنسب هنا للظل الذى يراد إلقاؤه . وتكراره وتكرار الجملة كلها فيه من التهديد مافيه .

* * *

ثم يبعد فى ظاهر الأمر عن موضوع ذلك النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون . ليلتق به بعد قليل . يبعد فى جولة قريبة فى هـذا الـكون المنظور مع حشد من الـكائنات والظواهر والحقائق والمشاهد ، تهز الـكيان حين يتدبرها الجنان :

« ألم نجعل الأرض مهادا ؟ والجبال أوتادا ؟ وخلقناكم أزواجا ؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ؟ وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقـكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا ؟ » ..

وهـذه الجولة التى تتنقل فى أرجاء هذا الـكون الواسع العريض ، مع هذا الحشد الهائل من الصور والمشاهد ، تذكر فى حيز ضيق مكتنز من الألفاظ والعبارات ، مما يجعل إيقاعها فى الحس حادا ثقيلا نفاذا ، كأنه المطارق المتوالية ، بلافتور ولاانقطاع ! وصيغة الاستفهام الموجهة إلى المخاطبين ــ وهى فى اللغة تفيد التقرير ــ صيغة مقصودة هنا ، وكأنمـا هى يد قوية تهز الغافلين ، وهى توجه أنظارهم وقلوبهم إلى هذا الحشد من الخلائق والظواهر التى تشى بما وراءها من التدبير والتقدير ، والقدرة على الإنشاء والإعادة ، والحـكمة التى لاتدع أمر الخلائق سدى بلا حساب ولاجزاء . . ومن هنا تلتقى بالنبإ العظيم الذى هم فيه مختلفون !

واللمسة الأولى فى هذه الجولة عن الأرض والجبال :

« ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ؟ » . .

والمهاد : الممهد للسير.. والمهاد اللين كالمهد . . وكلاهما متقارب . وهى حقيقة محسوسة للإنسان فى أى طور من أطوار حضارته ومعرفته . فلاتحتاج إلى علم غزير لإدراكها فى صورتها الواقعية . وكون الجبال أوتادا ظاهرة تراها العين كذلك حتى من الإنسان البدائى ؛ وهـذه وتلك ذات وقع فى الحس حين توجه إليها النفس .

غير أن هذه الحقيقة أكبر وأوسع مدى مما يحسها الإنسان البدائى لأول وهلة بالحس المجرد. وكلما ارتقت معارف الإنسان وازدادت معرفته بطبيعة هذا الـكون وأطواره ، كبرت هذه الحقيقة فى نفسه ؛ وأدرك من ورائها التقدير الإلهى العظيم والتدبير الدقيق الحـكيم، والتنسيق بين أفراد هـذا الوجود وحاجاتهم ؛ وإعداد هذه الأرض لتلقى الحياة الإنسانية وحضانتها ؛ وإعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئه والتفاهم معها .

وجعل الأرض مهادا للحياة ــ وللحياة الإنسانية بوجه خاص ــ شاهد لايمارى فى شهادته

بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر . فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة فى خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها . أو اختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة فى خلق الحياة لتعيش فى الأرض . . الاختلال هنا أو هناك لايجعل الأرض مهادا ؟ ولا يبقى هذه الحقيقة التى يشير إليها القرآن هذه الإشارة المجملة ، ليدركها كل إنسان وفق درجة معرفته ومداركه . .

وجعل الجبال أوتادا . . يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد ، فهى أشبه شىء بأوتاد الخيمة التى تشد إليها . أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن ، وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها . . وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار فى البحار ونسب المرتفعات فى الجبال . . وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية، وقد يكون لأنها تثقل الأرض فى نقط معينة فلا تميد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية . . وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد . . وكم من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن الكريم . ثم عرف البشر طرفا منها بعد مئات السنين !

واللمسة الثانية فى ذوات النفوس ، فى نواحى وحقائق شتى :

« وخلقناكم أزواجا » . .

وهى ظاهرة كذلك ملحوظة يدركها كل إنسان بيسر وبساطة . . فقد خلق الله الإنسان ذكرا وأنثى، وجعل حياة هذا الجنس وامتداده قائمة على اختلاف الزوجين والتقائهما . وكل إنسان يدرك هذه الظاهرة ، ويحس ما وراءها من راحة ولذة ومتاع وتجدد بدون حاجة إلى علم غزير .ومن ثم يخاطب بها القرآن الإنسان فى أية بيئة فيدركها ويتأثر بها حين يتوجه تأمله إليها ، ويحس مافيها من قصد ومن تنسيق وتدبير .

ووراء هذا الشعور المبهم بقيمة هذه الحقيقة وعمقها ، تأملات أخرى حين يرتقى الإنسان فى المعرفة وفى الشعور أيضا . . هنالك التأمل فى القدرة المدبرة التى تجعل من نطفة ذكرا ،وتجعل من نطفة أنثى ، بدون مميز ظاهر فى هذه النطفة أو تلك ، يجعل هذه تسلك طريقها لتكون ذكرا ، وهذه تسلك طريقها لتكون أنثى . . اللهم إلا إرادة القدرة الخالقة وتدبيرها الخفى ، وتوجيهها اللطيف ، وإيداعها الخصائص التى تريدها هى لهذه النطفة وتلك ، لتخلق منهما زوجين تنمو بهما الحياة وترقى !

« وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا » ..

وكان من تدبير الله للبشر أن جعل النوم سباتا يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ؛ ويجعلهم فى حالة لاهى موت ولا هى حياة ، تتكفل بإراحة أجسادهم وأعصابهم وتعويضها عن الجهد الذى بذلته فى حالة الصحو والإجهاد والانشغال بأمور الحياة . . وكل هـذا يتم بطريقة عجيبة لايدرك الإنسان كنهها ، ولا نصيب لإرادته فيها ؛ ولا يمكن أن يعرف كيف تتم فى كيانه. فهو فى حالة الصحو لايعرف كيف يكون وهو فى حالة النوم . وهو فى حالة النوم لايدرك هذه الحالة ولا يقدر على ملاحظتها ! وهى سر من أسرار تكوين الحى لايعلمه إلا من خلق هـذا الحى وأودعه ذلك السر ؛ وجعل حياته متوقفة عليه . فما من حى يطيق أن يظل من غير نوم إلا فترة محدودة .فإذا أجبر إجبارا بوسائل خارجة عن ذاته كى يظل مستيقظا فإنه يهلك قطعا.

وفى النوم أسرار غير تلبية حاجة الجسد والأعصاب . . إنه هدنة الروح من صراع الحيـاة العنيف ، هدنة تلم بالفرد فيلقى سلاحه وجنته ــ طائعا أو غيرطائع ــ ويستسلم لفترة من السلام الآمن، السلام الذى يحتاجه الفرد حاجته إلى الطعام والشراب . ويقع مايشبه المعجزات فى بعض الحالات حيث يلم النعاس بالأجفان ، والروح مثقل ، والأعصاب مكدودة ، والنفس مزعجة ، والقلب مروع . وكأنما هذا النعاس ــ وأحيانا لايزيد على لحظات ــ انقلاب تام فى كيان هـذا الفرد . وتجديد كامل لاقواه بل له هو ذاته ، وكأنما هو كائن حين يصحو جديد .. ولقـد وقعت هـذه المعجزة بشكل واضح للمسلمين المجهودين فى غزوة بدر وفى غزوة أحد ، وامتن الله عليهم بها . وهو يقول : « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه » .. « ثم أنزل عليـكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منـكم » .. كما وقعت للكثيرين فى حالات مشابهة !

فهذا السبات : أى الانقطاع عن الإدراك والنشاط بالنوم ضرورة من ضرورات تكوين الحى ؛ وسر من أسرار القدرة الخالقة ؛ ونعمة من نعم الله لايملك إعطاءها إلا إياه . وتوجيه النظر إليها على هذا النحو القرآنى ينبه القلب إلى خصائص ذاته ، وإلى اليد التى أودعتها كيانه ، ويلمسه لمسة تثير التأمل والتدبر والتأثر .

وكان من تدبير الله كذلك أن جعل حركة الكون موافقة لحركة الأحياء . وكما أودع الإنسان سر النوم والسبات ، بعد العمل والنشاط ، فكذلك أودع الكون ظاهرة الليل ليكون لباسا ساترا يتم فيه السبات والانزواء . وظاهرة النهار ليكون معاشا تتم فيه الحركة

والنشاط .. بهذا تَوافقَ خلق الله وتناسق . وكان هذا العالم بيئة مناسبة للأحياء . تلبي ما ركب فيهم من خصائص . وكان الأحياء مزودين بالتركيب المتفق في حركته وحاجاته مع ماهو مودع في الكون من خصائص وموافقات . وخرج هذا وهذا من يد القدرة المبدعة المدبرة متسقا أدق اتساق !

واللمسة الثالثة في خلق السماء متناسقة مع الأرض والأحياء :

« وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا » . .

والسبع الشداد التي بناها الله فوق أهل الأرض هي السماوات السبع ، وهي الطرائق السبع في موضع آخر .. والمقصود بها على وجه التحديد يعلمه الله .. فقد تكون سبع مجموعات من المجرات ـ وهي مجموعات من النجوم قد تبلغ الواحدة منها مائة مليون نجم ـ وتكون السبع المجرات هذه هي التي لها علاقة بأرضنا أو بمجموعتنا الشمسية . . وقد تكون غير هذه وتلك مما يعلمه الله من تركيب هذا الكون ، الذي لا يعلم الإنسان عنه إلا القليل .

إنما تشير هذه الآية إلى أن هذه السبع الشداد متينة التكوين ، قوية البناء ، مشدودة بقوة تمنعها من التفكك والانثناء . وهو ما نراه ونعلمه من طبيعة الأفلاك والأجرام فيما نطلق عليه لفظ السماء فيدركه كل إنسان . . كما تشير إلى أن بناء هذه السبع الشداد متناسق مع عالم الأرض والإنسان . ومن ثم يذكر في معرض تدبير الله وتقديره لحياة الأرض والإنسان . يدل على هذا ما بعده : « وجعلنا سراجا وهاجا » .. وهو الشمس المضيئة الباعثة للحرارة التي تعيش عليها الأرض وما فيها من الأحياء . والتي تؤثر كذلك في تكوين السحائب بتبخير المياه من المحيط الواسع في الأرض ورفعها إلى طبقات الجو العليا وهي المعصرات: « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » .. حين تعصر فتخر وتتساقط ما فيها من الماء . ومن يعصرها ؟ قد تكون هي الرياح . وقد يكون هو التفريغ الكهربائي في طبقات الجو . ومن وراء هذه وتلك يد القدرة التي تودع الكون هذه المؤثرات ! وفي السراج توقد وحرارة وضوء .. وهو ما يتوافر في الشمس . فاختيار كلمة « سراج » دقيق كل الدقة ومختار ..

ومن السراج الوهاج وما يسكبه من أشعة فيها ضوء وحرارة ، ومن المعصرات وما يعتصر منها من ماء ثجاج ، ينصب دفعة بعد دفعة كلما وقع التفريغ الكهربائي مرة بعد مرة ، وهو

الثجاج ، من هــذا الماء مع هذا الإشماع يخرج الحب والنبات الذى يؤكل هو ذاته ، والجنات الألفاف الـكثيفة الـكثيرة الأشجار الملتفة الأغصان .

وهذا التناسق فى تصميم الـكون ، لايكون إلا ووراءه يد تنسقه ، وحكمة تقدره ، وإرادة تدبره . يدرك هــذا بقلبه وحسه كل إنسان حين توجه مشاعره هذا التوجيه ، فإذا ارتقى فى العلم والمعرفة تكشفت له من هذا التناسق آفاق ودرجات تذهل العقول وتحير الألباب . وتجعل القول بأن هذا كله مجرد مصادفة قولا تافها لا يستحق المناقشة . كما تجعل التهرب من مواجهة حقيقة القصد والتدبير فى هذا الـكون ، مجرد تعنت لا يستحق الاحترام !

إن لهذا الـكون خالقا ، وإن وراء هذا الـكون تدبيرا وتقديرا وتنسيقا . وتوالى هذه الحقائق والمشاهد فى هذا النص القرآنى على هذا النحو: من جعل الأرض مهادا والجبال أوتادا . وخلق الناس أزواجا . وجعل نومهم سباتا (بعد الحركة والوعى والنشاط) مع جعل الليل لباسا للستر والانزواء ، وجعل النهار معاشا للوعى والنشاط . ثم بناء السبع الشداد . وجعل السراج الوهاج . وإنزال المـاء الثجاج من المعصرات . لإنبات الحب والنبات والجنات. .توالى هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو يوحى بالتناسق الدقيق ، ويشى بالتدبير والتقدير ، ويشعر بالخالق الحـكيم القدير . ويلمس القلب لمسات موقظة موحية بمـا وراء هــذه الحياة من قصد وغاية . . ومن هنا يلتقى السياق بالنبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون !

* * *

ولقد كان ذلك كله للعمل والمتاع . ووراء هـذا كله حساب وجزاء . ويوم الفصل هو الموعد الموقوت للفصل :

« إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا » . .

إن الناس لم يخلقوا عبثا ، ولن يتركوا سدى . والذى قدر حياتهم ذلك التقدير الذى يشى به المقطع الماضى فى السياق ، ونسق حياتهم مع الـكون الذى يعيشون فيــه ذلك التنسيق ، لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملا !ويصلحون فى الأرض أويفسدون ثم يذهبون فى التراب ضياعا ! ويهتدون فى الحياة أو يضلون ثم يلقون مصيرا واحدا . ويعدلون فى الأرض أو يظلمون ثم يذهب العدل والظلم جميعا !

إن هنالك يوما للحكم والفرقان والفصل فى كل ما كان . وهو اليـوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود :

« إن يوم الفصل كان ميقاتا » ..

وهو يوم ينقلب فيه نظامهذا الـكون وينفرط فيه عقد هذا النظام .

« يوم ينفخ فىالصور فتأتون أفواجا . وفتحتالسماء فـكانت أبوابا، وسيرت الجبال فـكانت سرابا » ..

والصور : البوق ونحن لاندرى عنه إلا اسمه . ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه . وليس لناأن نشغل أنفسنا بـكيفية ذلك . فهى لا تزيدنا إيمانا ولا تأثرا بالحادث . وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد فى البحث وراء هذا الغيب المـكنون ، وأعطانا منه القدر الذى ينفعنا فلا نزيد ! إنما نحن نتصور النفخة الباعثة المجمعة التى يأتى بها الناس أفواجا . . نتصور هـذا المشهد والخلائق التى توارت شخوصها جيلا بعـد جيل ، وأخلت وجه الأرض لمن يأتى بعدها كى لايضيق بهم وجه الأرض المحدود . . نتصور مشهد هذه الخلائق جميعا . . أفواجا . . مبعوثين قائمين آتين من كل فج إلى حيث يحشرون . ونتصور الأجداث المبعثرة وهذه الخلائق منها قائمة . ونتصور الجموع الحاشدة لايعرف أولها آخرها . ونتصور هـذا الهول الذى تثيره تلك الحشود التى لم تتجمع قط فى وقت واحد وفى ساعة واحدة إلا فى هذا اليوم .. أين ؟ لاندرى .. فى هـذا الـكون الذى نعرفه أحداث وأهوال جسام :

« وفتحت السماء فـكانت أبوابا . وسيرت الجبال فـكانت سرابا » . .

السماء المبنية المتينة .. فتحت فـكانت أبوابا .. فهى منشقة . منفرجة . كما جاء فى مواضع وسور أخرى . على هيئة لاعهد لنا بها . والجبال الرواسى الأوتاد سيرت فـكانت سرابا . فهى مدكوكة مبسوسة مثارة فى الهواء هباء ، يحركه الهواء ــ كما جاء فى مواضع وسور أخرى . ومن ثم فلا وجود لها كالسراب الذىليس له حقيقة . أو إنها تنعكس إليها الأشعة وهى هباء فتبدو كالسراب !

إنه الهول البادى فى انقلاب الـكون المنظور ، كالهول البادى فى الحشر بعـد النفخ فى الصور . وهذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة وتدبير ..

* **

ثم يمضى السياق خطـوة وراء النفخ والحشر ، فيصور مصير الطغاة ومصير التقاة . بادئا بالأولين المـكذبين التسائلين عن النبأ العظيم :

« إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مـآبا ، لابثين فيها أحقابا . لايذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لايرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » ..

إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصادا للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون إليها فإذا هى معدة لهم ، مهيأة لاستقبالهم. وكأنما كانوا فى رحلة فى الأرض ثم آبوا إلى مأواهم الأصيل اوهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة أحقابا بعد أحقاب :

« لايذوقون فيها بردا ولاشرابا » .. ثم يستثنى .. فإذا الاستثناء أمرّ وأدهى : « إلا حميما وغساقا » .. إلا الماء الساخن يشوى الحلوق والبطون . فهذا هو البرد ! وإلا الغساق الذى يغسق من أجساد المحروقين ويسيل . فهذا هو الشراب !

« جزاء وفاقا » .. يوافق ماأسلفوا وما قدموا .. « إنهم كانوا لايرجون حسابا » .. ولا يتوقعون مآبا .. « وكذبوا بآياتنا كذابا » . . وجرس اللفظ فيـه شدة توحى بشدة التـكذيب وشدة الإصرار عليه .

بينما كان الله يحصى عليهم كل شىء إحصاء دقيقا لايفلت منه حرف : « وكل شىء أحصيناه كتابا » . .

هنا يجىء التأنيب الميئس من كل رجاء فى تغيير أو تخفيف : « فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » . .

* * *

ثم يعرض المشهد المقابل : مشهد التقاة فى النعيم . بعد مشهد الطغاة فى الجحيم :

« إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لايسمعون فيهـا لغوا ولا كذابا . . جزاء من ربك عطاء حسابا » . .

فإذا كانت جهنم هناك مرصدا ومآبا للطاغين ، لايفلتون منهـا ولا يتجاوزونها ، فإن المتقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة ، تتمثل « حدائق وأعنابا » ويخص الأعناب بالذكر والتعيين لأنها مما يعرفه المخاطبون . . « وكواعب» وهن الفتيات الناهدات اللواتى استدارت ثديهن «أترابا» متوافيات السن والجمال . «وكأسا دهاقا » مترعة بالشراب .

وهى مناعم ظاهرها حسى ، لتقريبها للتصور البشرى . أماحقيقة مذاقها والمتاع بها فلا يدركها أهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها . . وإلى جوارها حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور : « لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا » .. فهى حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذى يصاحبه الجدل ؛ فالحقيقة مكشوفة لامجال فيها لجدل ولاتكذيب ؛كما أنه لامجال للغو الذى لاخير فيه .. وهى حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود . .

« جزاء من ربك عطاء حسابا » . . ونلمح هنا ظاهرة الأناقة فى التعبير والموسيقى فى التقسيم بين « جزاء » و « عطاء » . . كما نلمحها فى الإيقاع المشدود فى الفواصل كلها على وجه التقريب .. وهى الظاهرة الواضحة فى الجزء كله إجمالا .

* * *

وتكملة لمشاهد اليوم الذى يتم فيه ذلك كله ،والذى يتساءل عنه المتسائلون ، ويختلف فيه المختلفون ، يجىء المشهد الختامى فى السورة ، حيث يقف جبريل « عليه السلام » والملائكة صفا بين يدى الرحمان خاشعين . لا يتكلمون — إلا من أذن له الرحمان — فى الموقف المهيب الجليل :

« رب السماوات والأرض ومابينهما الرحمان لايملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلامن أذن له الرحمان وقال صوابا » . .

ذلك الجزاء الذى فصله فى المقطع السابق : جزاء الطغاة وجزاء التقاة . هذا الجزاء « من ربك » .. « رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمان » .. فهى المناسبة المهيأة لهذه اللمسة ولهذه الحقيقة الكبيرة . حقيقة الربوبية الواحدة التى تشمل الإنسان كما تشمل السماوات والأرض ، وتشمل الدنيا والآخرة ، وتجازى على الطغيان والتقوى ، وتنتهى إليها الآخرة والأولى . . ثم هو « الرحمان » . . ومن رحمته ذلك الجزاء لهؤلاء وهؤلاء . حتى عذاب الطغاة ينبثق من رحمة الرحمان . ومن الرحمة أن يجد الشر جزاءه وألايتساوى مع الخير فى مصيره !

ومع الرحمة الجلال : « لايملكون منه خطابا » .. فى ذلك اليوم المهيب الرهيب : يوم يقف جبريل — عليه السلام — والملائكة الآخرون « صفا لايتكلمون » .. إلابإذن من الرحمان حيث يكون القول صوابا . فما يأذن الرحمان به إلا وقد علم أنه صواب .

* * *

و موقف هؤلاء المقربين إلى الله ، الأبرياء من الذنب والمعصية . موقفهم هكذا صامتين لايتكلمون إلا بإذن وبحساب .. يغمر الجو بالروعة والرهبة والجلال والوقار . وفى ظل هـذا المشهد تنطلق صيحة من صيحات الإنذار ، وهزة للنائمين السادرين فى الخمار :

« ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا : يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ، ويقول الـكافر : ياليتنى كنت ترابا » ..

إنها الهزة العنيفة لأولئك الذين يتساءلون فى ارتياب : « ذلك اليوم الحق » .. فلا مجال للتساؤل والاختلاف .. والفرصة ماتزال سانحة ! « فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا » .. قبل أن تـكون جهنم مرصادا ومآبا !

وهو الإنذار الذى يوقظ من الخمار : « إنا أنذرناكم عذابا قريبا » . . ليس بالبعيد ، فجهنم تنتظركم وتترصد لـكم . على النحو الذى رأيتم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب !

وهو عـذاب من الهول بحيث يدع الـكافر يؤثر العـدم على الوجود : « يوم ينظر المرء ماقدمت يداه . ويقول الـكافر : ياليتنى كنت ترابا » .. وما يقولها إلا وهو ضائق مـكروب !

وهو تعبير يلقى ظلال الرهبة والندم ، حتى ليتمنى الـكائن الإنسانى أن ينعدم . ويصير إلى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد .. وهو الموقف الذى يقابل تساءل المتسائلين وشك المتشـككين . فى ذلك النبأ العظيم ! ! !

سورة النازعات مكية
وآياتها ٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ : أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ؟ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ؟ * قَالُوا : تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ .

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ؟ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ : هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ؟ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ؟ * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ .

« أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ؟ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ .

« فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ * فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ : أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ؟ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » ...

هـذه السورة نموذج من نماذج هذا الجزء لإشعار القلب البشرى حقيقة الآخرة ، بهولها وضخامتها ، وجديتها ، وأصالتها فى التقدير الإلهى لنشأة هـذا العالم الإنسانى ، والتدبير العلوى لمراحل هـذه النشأة وخطواتها على ظهر الأرض وفى جوفها ؛ ثم فى الدار الآخرة ، التى تمثل نهاية هذه النشأة وعقباها .

وفى الطريق إلى إشمار القلب البشرى حقيقة الآخرة الهائلة الضخمة العظيمة الكبيرة يوقع السياق إيقاعات منوعة على أوتار القلب ،ويلمسه لمسات شتى حول تلك الحقيقة الكبرى. وهى إيقاعات ولمسات تمت إليها بصلة . فتلك الحقيقة تمهـد لها فى الحس وتهيئه لاستقبالها فى يقظة وفى حساسية ..

يمهد لها بمطلع غامض الكنه يثير بغموضه شيئا من الحدس والرهبة والتوجس . يسوقه فى إيقاع موسيقى راجف لاهث ، كأنما تنقطع به الأنفاس من الذعر والارتجاف والمفاجأة والانبهار : « والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا » . .

وعقب هذا المطلع الغامض الراجف الواجف يجىء المشهد الأول من مشاهد ذلك اليوم . ظله من ظل ذلك المطلع وطابعه من طابعه ؛ كأنما المطلع إطار له وغلاف يدل عليـه : « يوم ترجف الراجفـة تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفـة . أبصارها خاشعة . يقولون : أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاما نخرة ؟ قالوا : تلك إذن كرة خاسرة ! فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة » . .

ومن هنالك .. من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور . . يأخذ فى عرض مصرع من مصارع المكذبين العتاة فى حلقة من قصـة موسى مع فرعون . فيهـدأ الإيقاع الموسيقى ويسترخى شيئا ما ، ليناسب جو الحكاية والعرض : « هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه

بالواد المقدس طوى : اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل : هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى؟ فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ،ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى، فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » . . وبهذا يلتقى ويمهد لتلك الحقيقة الكبرى .

ثم ينتقل من ساحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح ، ومشاهد الكون الهائلة ، الشاهدة بالقوة والتدبير والتقدير للألوهية المنشئة للكون ، المهيمنة على مصائره ، فى الدنيا والآخرة . فيعرضها فى تعبيرات قوية الأسر ، قوية الإيقاع ، تتسق مع مطلع السورة وإيقاعها العام : « أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ؛ والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم » . .

وهنا ـ بعد هذه التمهيدات المقربة وهذه اللمسات الموحية ـ يجىء مشهد الطامة الكبرى ، وما يصاحبها من جزاء على ما كان فى الحياة الدنيا . جزاء يتحقق هو الآخر فى مشاهد تتناسق صورها وظلالها مع الطامة الكبرى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ماسعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ! فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » . .

وفى اللحظة التى يغمر الوجدان فيها ذلك الشعور المنبعث من مشاهد الطامة الكبرى ، والجحيم المبرزة لمن يرى ،وعاقبة من طغى وآثر الحياة الدنيا، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .. فى هذه اللحظة يرتد السياق إلى المكذبين بهذه الساعة ، الذين يسألون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن موعدها . يرتد إليهم بإيقاع يزيد من روعة الساعة وهولها فى الحس وضخامتها : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .. والهاء الممدودة ذات الإيقاع الضخم الطويل ، تشارك فى تشخيص الضخامة وتجسيم التهويل !

* * *

« والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا » . قيل فى تفسير هذه الكلمات : إنها الملائكة نازعات للأرواح نزعا شديدا. ناشطات

منطلقات فى حركاتها . سابحات فى العوالم العليا سابقات للإيمان أو للطاعة لأمر ربها مدبرات مايوكل من الأمور إليها ..

وقيل : إنها النجوم تنزع فى مداراتها وتتحرك وتنشط منتقلة من منزل إلى منزل. وتسبح سبحاً فى فضاء الله وهى معلقة به . وتسبق سبقاً فى جريانها ودورانها . وتدبر من النتائج والظواهر ماوكله الله إليها مما يؤثر فى حياة الأرض ومن عليها .

وقيل: النازعات والناشطات والسابحات والسابقات هى النجوم . والمدبرات هى الملائكة.

وقيل : النازعات والناشطات والسابحات هى النجوم . والسابقات والمدبرات هى الملائكة..

وأيا ماكانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة فى الجو القرآنى أن إيرادها على هذا النحو، ينشىء أولا وقبل كل شىء هزة فى الحس ، وتوجسا فى الشعور ، وتوفزاً وتوقعا لشىء يهول ويروع . ومن ثم فهى تشارك فى المطلع مشاركة قوية فى إعداد الحس لتلقى مايروع ويهول من أمر الراجفة والرادفة والطامة الكبرى فى النهاية !

وتمشيا مع هذا الإحساس نؤثر أن ندعها هكذا بدون زيادة فى تفصيل مدلولاتها ومناقشتها ؛ لنعيش فى ظلال القرآن بموحياته وإيحاءاته على طبيعتها . فهزة القلب وإيقاظه هدف فى ذاته ، يتحراه الخطاب القرآنى بوسائل شتى .. ثم إن لنا فى عمر ابن الخطاب -رضى الله عنه- أسوة . وقد قرأ سورة : « عبس وتولى » حتى جاء إلى قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » . . فقال : « قد عرفنا الفاكهة . فما الأبّ ؟ ثم استدرك قائلا : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف ! وما عليك ألا تعرف لفظا فى كتاب الله تعالى ؟ ! » ... وفى رواية أنه قال : كل هذا قد عرفنا فما الأبّ ؟ ثم رفض عصا كانت بيده - أى كسرها غضبا على نفسه - وقال : « هذا لعمر الله التكلف ! وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدرى ما الأب » . ثم قال : « اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا ، فدعوه » . . فهذه كلمات تنبعث عن الأدب أمام كلمات الله العظيمة . أدب العبد أمام كلمات الرب . التى قد يكون بقاؤها مغلقة هدفا فى ذاته ، يؤدى غرضا بذاته .

* * *

هذا المطلع جاء فى صيغة القسم ، على أمر تصوره الآيات التالية فى السورة :

« يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة. يقولون:

أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاما نخرة ؟ قالوا : تلك إذن كرة خاسرة ! . . فإنمـا هى زجرة واحدة. فإذاهم بالساهرة » . .

والراجفة ورد أنها الأرض استنادا إلى قوله تعالى فى سورة أخرى : « يوم ترجف الأرض والجبال » .. والرادفة : ورد أنها السماء . أى أنها تردف الأرض وتتبعها فى الانقلاب حيث تنشق وتتناثر كواكبها ..

كذلك ورد أن الراجفة هى الصيحة الأولى ، التى ترجف لها الأرض والجبال والأحياء جميعا، ويصعق لها من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . والرادفة هى النفخة الثانية التى يصحون عليهـا ويحشرون (كما جاء فى سورة الزمر آية ٦٨) . .

وسواء كانت هذه أم تلك . فقد أحس القلب البشرى بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب؛ واهتز هزة الخوف والوجل والرعب والارتعاش . وتهيأ لإدراك مايصيب القلوب يومئذ من الفزع الذى لاثبات معه ولاقرار . وأدرك وأحس حقيقة قوله :

« قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة » . .

فهى شديدة الاضطراب ، بادية الذل ، يجتمع عليها الخوف والانـكسار ، والرجفة ، والانهيار . وهذا هو الذى يقع يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ؛ وهذا هو الذى يتناوله القسم بالنازعات نزعا والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، والسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا . وهو مشهد يتفق فى ظله وإيقاعه مع ذلك المطلع .

ثم يمضى السياق يتحدث عن وهلتهم وانبهارهم حين يقومون من قبورهم فى ذهول :

« يقولون : أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاما نخرة ؟ » . .

فهم يتساءلون : أنحن مردودون إلى الحياة عائدون فى طريقنا الأولى . . يقال : رجع فى حافرته : أى فى طريقه التى جاء منها . فهم فى وهلتهم وذهولهم يسألون : إن كانوا راجعين فى طريقهم إلى حياتهم ؟ ويدهشون : كيف يكون هـذا بعد إذ كانوا عظاما نخرة . منخوبة يصوت فيها الهواء ؟ !

ولعلهم يفيقون ، أو يُبصرُون ، فيعلمون أنها كرة إلى الحياة ، ولـكنها الحياة الأخرى ، فيشعرون بالخسارة والوبال فى هذه الرجعة ، فتند منهم تلك الـكلمة :

« قالوا : تلك إذن كرة خاسرة » !

كرة لم يحسبوا حسابها، ولم يقدموا لها زادها، وليس لهم فيها إلا الخسران الخالص !

هنا ــ فى مواجهة هذا المشهد ــ يعقب السياق القرآنى بحقيقة ماهو كائن :

« فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة » . .

والزجرة : هى الصيحة . ولكنها تقال هنا بهذا اللفظ العنيف تنسيقا لجو المشهد مع مشاهد السورة جميعا . والساهرة هى الأرض البيضاء اللامعة . وهى أرض المحشر ، التى لاندرى نحن أين تكون . والخبر عنها لانعرفه إلا من الخبر الصادق نتلقاه ، فلا نزيد عليه شيئا غير موثوق به ولا مضمون !

وهذه الزجرة الواحدة يغلب ــ بالاستناد إلى النصوص الأخرى ــ أنها النفخة الثانية . نفخة البعث والحشر . والتعبير عنها فيه سرعة . وهى ذاتها توحى بالسرعة . وإيقاع السورة كلها فيه هذا اللون من الإسراع والإيجاف . والقلوب الواجفة تأخذ صفتها هذه من سرعة النبض، فالتناسق ملحوظ فى كل حركة وفى كل لمحة ، وفى كل ظل فى السياق !

* * *

ثم يهدأ الإيقاع شيئا ما ، فى الجولة القادمة ، ليناسب جو القصص، وهو يعرض ماكان بين موسى وفرعون ، وما انتهى إليه هذا الطاغية عندما طغى :

« هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل : هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » . .

وقصة موسى هى أكثر القصص ورودا وأكثرها تفصيلا فى القرآن .. وقد وردت من قبل فى سور كثيرة . وردت منها حلقات منوعة . ووردت فى أساليب شتى . كل منها تناسب سياق السورة التى وردت فيها ؛ وتشارك فى أداء الغرض البارز فى السياق . على طريقة القرآن فى إيراد القصص وسرده [١] .

وهنا ترد هذه القصة مختصرة سريعة المشاهد منذ أن نودى موسى بالوادى المقدس ، إلى أخذ فرعون . . أخذه فى الدنيا ثم فى الآخرة . . فتلتقى بموضوع السورة الأصيل . وهو

---

(١) يراجع فصل القصة فى القرآن . فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

حقيقة الآخرة . وهذا الذى الطويل من القصة يرد هنا فى آيات معدودات قصار سريعة ، ليناسب طبيعة السورة وإيقاعها .

وتتضمن هذه الآيات القصار السريعة عدة حلقات ومشاهد من القصة . .

وهى تبدأ بتوجيه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هل أتاك حديث موسى ؟ » . . وهو استفهام للتمهيد وإعداد النفس والأذن لتلقى القصة وتملها .

ثم تأخذ فى عرض الحديث كما تسمى القصة . وهو إيحاء بواقعيتها فهى حديث جرى . فتبدأ بمشهد المناداة والمناجاة : « إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى » . . وطوى اسم الوادى على الأرجح . وهو بجانب الطور الأيمن بالنسبة للقادم من مدين فى شمال الحجاز .

ولحظة النداء لحظة رهيبة جليلة . وهى لحظة كذلك عجيبة . ونداء الله بذاته ـ سبحانه ـ لعبد من عباده أمر هائل . أهول مما تملك الألفاظ البشرية أن تعبر . وهى سر من أسرار الألوهية المعظمة ، كما هى سر من أسرار التكوين الإنسانى التى أودعها الله هذا الكائن ، وهيأه بها لتلقى ذلك النداء . وهذا أقصى ما نملك أن نقوله فى هذا المقام ، الذى لا يملك الادراك البشرى أن يحيط منه بشىء ؛ فيقف على إطاره ، حتى يكشف الله له عنه فيتذوقه بشعوره .

وفى مواضع أخرى تفصيل للمناجاة بين موسى وربه فى هذا الموقف . فأما هنا فالمجال مجال اختصار وإيقاعات سريعة . ومن ثم يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهى لموسى ، عقب ذكر النداء بالوادى المقدس طوى : « اذهب إلى فرعون . إنه طغى . فقل : هل لك إلى أن تزكى ! وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ » . .

« اذهب إلى فرعون . إنه طغى » . . والطغيان أمر لا ينبغى أن يكون ولا أن يبقى . إنه أمر كريه ، مفسد للأرض ، مخالف لما يحبه الله ، مؤد إلى مايكره . . فمن أجل منعه ينتدب الله عبدا من عباده المختارين . ينتدبه بنفسه سبحانه . ليحاول وقف هذا الشر ، ومنع هذا الفساد ، ووقف هذا الطغيان .. إنه أمر كريه شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبدا من عباده ليذهب إلى الطاغية ، فيحاول رده عما هو فيه ، والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى !

« اذهب إلى فرعون . إنه طغى » . . ثم يعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب

وأشده جاذبية للقلوب، لعله ينتهى، ويتقى غضب الله وأخذه : «فقل : هل لك إلى أن تزكى؟» .. هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان ودنس العصيان ؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة ؟ « وأهديك إلى ربك فتخشى » . . هل لك أن أعرفك طريق ربك . فإذا عرفته وقعت فى قلبك خشيته . فما يطغى الإنسان ويعصى إلا حين يذهب عن ربه بعيدا ، وإلا حين يضل طريقه إليه فيقسو قلبه ويفسد ، فيكون منه الطغيان والتمرد !

كان هذا فى مشهد النداء والتكليف . وكان بعده فى مشهد المواجهة والتبليغ . والسياق لا يكرره فى مشهد التبليغ . اكتفاء بعرضه هناك وذكره . فيطوى ما كان بعد مشهد النداء ، ويختصر عبارة التبليغ فى مشهد التبليغ . ويسدل الستار هنا ليرفعه على ختام مشهد المواجهة :

« فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى » . .

لقد بلغ موسى ما كلف تبليغه . بالأسلوب الذى لقنه ربه وعرفه . ولم يفلح هذا الأسلوب الحبيب فى إلانة القلب الطاغى الخاوى من معرفة ربه . فأراه موسى الآية الكبرى . آية العصا واليد البيضاء كما جاء فى المواضع الأخرى : « فكذب وعصى » .. وانتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية فى اختصار وإجمال !

ثم يعرض مشهد آخر . مشهد فرعون يتولى عن موسى ، ويسعى فى جمع السحرة للمباراة بين السحر والحق . حين عز عليه أن يستسلم للحق والهدى :

« ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى » ..

ويسارع السياق هنا إلى عرض قولة الطاغية الكافرة ، مجملا مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها . فقد أدبر يسعى فى الكيد والمحاولة ، فحشر السحرة والجماهير ؛ ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة ، المليئة بالغرور والجهالة : « أنا ربكم الأعلى » . .

قالها الطاغية مخدوعا بغفلة جماهيره وإذعانها وانقيادها . فما يخدع الطغاة شىء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها . وما الطاغية إلا فرد لا يملك فى الحقيقة قوة ولا سلطانا. إنما هى الجماهير الغافلة الذلول ، تمطى له ظهرها فيركب ! وتمد له أعناقها فيجر ! وتحنى له رؤوسها فيستعلى ! وتتنازل له عن حقها فى العزة والكرامة فيطغى!

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى. وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم . فالطاغية ــ وهو فرد ــ لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين ، لو أنها شعرت

بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها .وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئا ! وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة كريمة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة رشيدة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لايملك لها ضرا ولا رشدا !

فأما فرعون فوجد فى قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان ، ماجرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة : « أنا ربكم الأعلى » . . وما كان ليقولها أبدا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة ، تعرف أنه عبد ضعيف لايقدر على شىء . وإن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذ من الذباب شيئا !

وأمام هذا التطاول الوقح ، بعد الطغيان البشع ، تحركت القوة الكبرى :

« فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » . .

ويقدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى .. لأنه أشد وأبقى . فهو النكال الحقيقى الذى يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلوده . . ولأنه الأنسب فى هذا السياق الذى يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيسى . . ولأنه يتسق لفظيا مع الإيقاع الموسيقى فى القافية بعد اتساقه معنويا مع الموضوع الرئيسى ، ومع الحقيقة الأصيلة .

ونكال الأولى كان عنيفا قاسيا . فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى ؟ وفرعون كان ذا قوة وسلطان ومجد موروث عريق ؟ فكيف بغيره من المكذبين ؟ وكيف بهؤلاء الذين يواجهون الدعوة من المشركين ؟

« إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » . .

فالذى يعرف ربه ويخشاه هو الذى يدرك مافى حادث فرعون من العبرة لسواه . أما الذى لايعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز ، وبينه وبين العظة حجاب . حتى يصطدم بالعاقبة اصطداما . وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى . وكل ميسر لنهج ، وكل ميسر لعاقبة . والعبرة لمن يخشى ..

ومن هذه الجولة فى مصارع الطغاة المتدين بقوتهم ، يعود إلى المشركين المعتزين بقوتهم كذلك . فيردهم إلى شىء من مظاهر القوة الكبرى ، فى هذا الكون الذى لاتبلغ قوتهم بالقياس إليه شيئا :

« أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم » . .

وهو استفهام لايحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذى لايقبل الجدل : « أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ » . . السماء ! بلا جدال ولا كلام ! فما الذى يغركم من قوتكم والسماء أشد خلقا منكم ، والذى خلقها أشد منها ؟ هذا جانب من إيحاء السؤال . وهناك جانب آخر . فما الذى تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ وهو خلق السماء وهى أشد من خلقكم ؛ وبعثكم هو إعادة لخلقكم ، والذى بنى السماء وهى أشد قادر على إعادتكم وهى أيسر !

هذه السماء الأشد خلقا بلا مراء .. « بناها » .. والبناء يوحى بالقوة والتماسك ، والسماء كذلك . متماسكة . لاتختل ولا تتناثر نجومها وكواكبها . ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها ، ولا تتهاوى ولا تنهار . فهى بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء .

« رفع سمكها فسواها » . . وسمك كل شىء قامته وارتفاعه . والسماء مرفوعة فى تناسق وتماسك . وهذه هى التسوية : « فسواها » . . والنظرة المجردة والملاحظة العادية تشهد بهذا التناسق المطلق . والمعرفة بحقيقة القوانين التى تمسك بهذه الخلائق الهائلة وتنسق بين حركاتها وآثارها وتأثراتها ، توسع من معنى هذا التعبير ، وتزيد فى مساحة هذه الحقيقة الهائلة ، التى لم يدرك الناس بعلومهم إلا أطرافا منها ، وقفوا تجاهها مبهورين ، تغمرهم الدهشة ، وتأخذهم الروعة ، ويعجزون عن تعليلها بغير افتراض قوة كبرى مدبرة مقدرة ، ولو لم يكونوا من المؤمنين بدين من الأديان إطلاقا !

« وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » .. وفى التعبير شدة فى الجرس والمعنى ، يناسب الحديث عن الشدة والقوة . وأغطش ليلها أى أظلمه . وأخرج ضحاها . أى : أضاءها . ولكن اختيار الألفاظ يتمشى فى تناسق مع السياق . . وتوالى حالتى الظلام والضياء ، فى الليل والضحى الذى هو أول النهار ، حقيقة يراها كل أحد ؛ ويتأثر بها كل قلب . وقد ينساها بطول الألفة والتكرار ، فيعيد القرآن جدتها بتوجيه المشاعر إليها . وهى جديدة أبدا . تتجدد كل يوم ، ويتجدد الشعور بها والانفعال بوقعها . فأما النواميس التى وراءها فهى كذلك من الدقة والعظمة بحيث تروع وتدهش من يعرفها . فتظل هذه الحقيقة تروع القلوب وتدهشها كلما اتسع علمها وكبرت معرفتها !

« والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها » . .

ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها ، بحيث تصبح صالحة للسير عليها ، وتكوين تربة تصلح للإنبات ، وإرساء الجبال وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته إلى هـذا الاعتدال الذى يسمح بالحياة . والله أخرج من الأرض ماءها سواء مايتفجر من الينابيع ، أومايتزل من السماء فهو أصلا من مائها الذى تبخر ثم نزل فى صورة مطر. وأخرج من الأرض مرعاها وهو النبات الذى يأكله الناس والأنعام وتعيش عليه الأحياء مباشرة و بالواسطة . .

وكل أولئك قد كان بعد بناء السماء ، وبعد إغطاش الليل وإخراج الضحى . والنظريات الفلكية الحديثة تقرب من مدلول هـذا النص القرآنى حين تفترض أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين ، وهى تدور دوراتهـا ويتعاقب الليل والنهـار عليهـا قبل دحوها وقبل قابليتها للزرع . وقبل استقرار قشرتها على ماهى عليه من مرتفعات ومستويات .

والقرآن يعلن أنهـذا كله كان : « متاعا لكم ولأنعامكم » .. فيذكر الناس بعظيم تدبير الله لهم من ناحية . كمايشير إلى عظمة تقدير الله فى ملكه . فإن بناء السماء على هـذا النحو ، ودحو الأرض على هـذا النحو أيضا لم يكونا فلتة ولامصادفة . إنمـا كان محسوبا فيهما حساب هذا الخلق الذى سيستخلف فى الأرض . والذى يقتضى وجوده ونموه ورقيه موافقات كثيرة جدا فى تصميم الكون . وفى تصميم المجموعة الشمسية بصفة خاصة . وفى تصميم الأرض بصفة أخص .

والقرآن — على طريقته فى الإشارة المجملة الموحية المتضمنة لأصل الحقيقة — يذكر هنا من هذهالموافقات بناء السماوات ، وإغطاش الليل ، وإخراج الضحى ، ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها ، وإرساء جبالها . متاعا للإنسان وأنعامه . وهى إشارة توحى بحقيقة التدبير والتقدير فى بعض مظاهرها المكشوفة للجميع ، الصالحة لأن يخاطب بها كل إنسان ، فى كل بيئة وفى كل زمان ، فلاتحتاج إلى درجة من العلم والمعرفة، تزيد على نصيب الإنسان حيث كان. حتى يعمالخطاب بالقرآن لجميع بنى الإنسان فى جميع أطوار الإنسان ، فى جميع الأزمان .

ووراء هـذا المستوى آماد وآفاق أخرى من هـذه الحقيقة الكبرى . حقيقة التقدير والتدبير فى تصميم هـذاالكون الكبير . واستبعاد المصادفة والجزاف استبعادا تنطق به طبيعة

هذا الـكون ، وطبيعة المصادفة التى يستحيل معها تجمع كل تلك الموافقات العجيبة .

هذه الموافقات التى تبدأ من كون المجموعة الشمسية التى تنتمى إليها أرضنا هى تنظيم نادر بين مئات الملايين من المجموعات النجمية. وأن الأرض نمط فريد غير مكرر بين الـكواكب بموقعها هذا فى المنظومة الشمسية . الذى يجعلها صالحة للحياة الإنسانية . ولا يعرف البشر ـ حتى اليوم ـ كوكبا آخر تجتمع له هـذه الموافقات الضرورية . وهى تعد بالآلاف !

« ذلك أن أسباب الحياة تتوافر فى الـكوكب على حجم ملائم ، وبعد معتدل ، وتركيب تتلاقى فيه عناصر المادة على النسبة التى تنشط فيهـا حركة الحياة .

« لابد من الحجم الملائم ، لأن بقاء الجو الهوائى حول الـكوكب يتوقف على مافيه من قوة الجاذبية .

« ولابد من البعد المعتدل لأن الجرم القريب من الشمس حار لا تتماسك فيه الأجسام ، والجرم البعيد من الشمس بارد لا تتخلخل فيه تلك الأجسام .

« ولابد من التركيب الذى تتوافق فيه العناصر على النسبة التى تنشط بها حركة الحياة ، لأن هـذه النسبة لازمة لنشأة النبات ونشأة الحياة التى تعتمد عليه فى تمثيل الغذاء .

« وموقع الأرض حيث هى أصلح المواقع لتوفير هـذه الشروط التى لاغنى عنها للحياة ، فى الصورة التى نعرفها ، ولا نعرف لها صورة غيرها حتى الآن [(١)] » .

وتقرير حقيقة التدبير والتقدير فى تصميم هـذا الـكون الـكبير ، وحساب مكان للإنسان فيه ملحوظ فى خلقه وتطويره أمر يعد القلب والعقل لتلقى حقيقة الآخرة ومافيها من حساب وجزاء باطمئنان وتسليم . فما يمـكن أن يكون هذا هو واقع النشأة الـكونية والنشأة الإنسانية ثم لاتتم تمامها ، ولاتلقى جزاءها . ولايكون معقولا أن ينتهى أمرها بنهاية الحياة القصيرة فى هذه العاجلة الفانية . وأن يمضى الشر والطغيان والباطل ناجيا بما كان منه فى هذه الأرض . وأن يمضى الخير والعدل والحق بما أصابه كذلك فى هذه الأرض . . فهذا الفرض مخالف فى طبيعته لطبيعة التقدير والتدبير الواضحة فى تصميم الـكون الـكبير . . ومن ثم تلتقى هذه الحقيقة التى لمسها

---

(١) عقائد المفـكرين فى القرن العشرين للأستاذ العقاد ص ٣٦

السياق فى هذا المقطع بحقيقة الآخرة التى هى الموضوع الرئيسى فى السورة . وتصلح تمهيداً لها فى القلوب والعقول ، يجىء بعده ذكر الطامة الكبرى فى موضعه وفى حينه !

* * *

« فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ماسعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » . .

إن الحياة الدنيا متاع . متاع مقدر بدقة وإحكام . وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والإنسان . ولكنه متاع . متاع ينتهى إلى أجله . . فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شىء ، وطمت على كل شىء . على المتاع الموقوت . وعلى الكون المتين القدر المنظم . على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع . فهى أكبر من هذا كله ، وهى تطم وتعم على هذا كله !

عندئذ يتذكر الإنسان ماسعى . يتذكر سعيه ويستحضره ، إن كانت أحداث الحياة ، وشواغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه . يتذكره ويستحضره ولكن حيث لايفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ماوراءه من العذاب والبلوى !

« وبرزت الجحيم لمن يرى » . . فهى بارزة مكشوفة لكل ذى نظر . ويشدد التعبير فى اللفظ « برزت » تشديداً للمعنى والجرس ، ودفعاً بالمشهد إلى كل عين !

عندئذ تختلف المصائر والعواقب ؛ وتتجلى غاية التدبير والتقدير فى النشأة الأولى :

« فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى » . .

والطغيان هنا أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى . ومداه أوسع من الطغاة ذوى السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا ، واختارها على الآخرة ، فعمل لها وحدها ، غير حاسب للآخرة حساباً . واعتبار الآخرة هو الذى يقيم الموازين فى يد الإنسان وضميره . فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين فى يده ، واختلت كل القيم فى تقديره ، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك فى حياته ، وعد طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للمدى .

فأما هذا . . « فإن الجحيم هى المأوى » .. الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة . . يوم الطامة الكبرى !

«وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى » . .

والذى يخاف مقام ربه لايقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشرى قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة . فظل فى دائرة الطاعة .

ونهى النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز فى دائرة الطاعة . فالهوى هو الدافع القوى لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية . وهو أساس البلوى ، وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى . فالجهل سهل علاجه. ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التى تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها .

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة . وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى .ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآنى فى آية واحدة .فالذى يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها ، الخبير بدوائها وهو وحده الذى يعلم دروبها ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد فى مكامنها ومخابئها !

ولم يكلف الله الإنسان ألايشتجر فى نفسه الهوى . فهو ـ سبحانه ـ يعلم أن هذا خارج عن طاقته . ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها . وأن يستعين فى هذا بالخوف . الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب . وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة ومأوى: « فإن الجنة هى المأوى » . . ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ؛ وقيمته كذلك فى تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى.

إن الإنسان إنسان بهذا النهى ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع . وليس إنسانا بترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب فى طبيعته . فالذى أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذى أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ، ونهى النفس عنه، ورفعها عن جاذبيته ؛ وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

وهنالك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان. تلك هى حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة ، والتصرف بها فى توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنسانى . وهنالك حرية حيوانية ، هى هزيمة الإنسان أمام هواه ، وعبوديته لشهوته ، وانفلات الزمام

من إرادته . وهى حرية لايهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداء رائفا من الحرية !

إن الأول هو الذى ارتفع وارتقى وتهيأ للحياة الرفيعة الطليقة فى جنة المأوى . أما الآخر فهو الذى ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة فى درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته ، ويرتد شيئا توقد به النار التى وقودها الناس — من هذا الصنف — والحجارة !

وهذه وتلك هى المصير الطبيعى للارتكاس والارتقاء فى ميزان هذا الدين الذى يزن حقيقة الأشياء . .

* * *

وأخيرا يجىء الإيقاع الأخير فى السورة هائلا عميقا مديدا :

« يسألونك عن الساعة : أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاعشية أوضحاها » . .

وكان المتعنتون من المشركين يسألون الرسول — صلى الله عليه وسلم — كلما سمعوا وصف أهوال الساعة وأحداثها وماتنتهى إليه من حساب وجزاء . . متى أو أيان موعدها . . أو كما يحكى عنهم هنا : « أيان مرساها ؟ » . .

والجواب : « فيم أنت من ذكراها ؟ » . . وهو جواب يوحى بعظمتها وضخامتها، بحيث يبدو هذا السؤال تافها باهتا ، وتطفلا كذلك وتجاوزا . فها هو ذا يقال للرسول العظيم : « فيم أنت من ذكراها ؟ » .. إنها لأعظم من أن تسأل أو تسأل عن موعدها . فأمرها إلى ربك وهى من خاصة شأنه وليست من شأنك :

« إلى ربك منتهاها » . . فهو الذى ينتهى إليه أمرها ، وهو الذى يعلم موعدها ، وهو الذى يتولى كل شىء فيها .

« إنما أنت منذر من يخشاها » . . هذه وظيفتك ، وهذه حدودك . . أن تنذر بها من ينفعه الإنذار ، وهو الذى يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها ويعمل لها ، ويتوقعها فى موعدها الموكول إلى صاحبها سبحانه وتعالى .

ثم يصور هولها وضخامتها فى صنيعها بالمشاعر والتصورات ؛ وقياس الحياة الدنيا إليها فى إحساس الناس وتقديرهم :

« كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » . .

فهى من ضخامة الوقع فى النفس بحيث تتضاءل إلى جوارها الحياة الدنيا ، وأعمارها ، وأحداثها ، ومتاعها ، وأشياؤها ، فتبدو فى حس أصحابها كأنها بعض يوم . . عشية أو ضحاها !

وتنطوى هذه الحياة الدنيا التى يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون . والتى يؤثرونها ويدعون فى سبيلها نصيبهم فى الآخرة . والتى يرتكبون من أجلها مايرتكبون من الجريمة والمعصية والطغيان . والتى يجرفهم الهوى فيعيشون له فيها . . تنطوى هذه الحياة فى نفوس أصحابها أنفسهم ، فإذا هى عندهم عشية أو ضحاها .

هذه هى : قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة ، زهيدة تافهة . . أفمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى !

ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التى لا يرتكبها إنسان . يسمع ويرى !

سورة عبس مكية
وآياتها ٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَنْ جَاءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ؟ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ؟ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ؟ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ؟ * كَلَّا ! إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ .

« قُتِلَ ٱلْإِنسَانُ ! مَا أَكْفَرَهُ ! * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؟ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ * كَلَّا ! لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ . فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ .

« فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ » .

هـذه السورة قوية المقاطع ، ضخمة الحقائق ، عميقـة اللمسات ، فريدة الصور والظلال والإيحاءات ، موحية الإيقاعات الشعورية والموسيقية على السواء .

يتولى المقطع الأول منها علاج حادث معين من حوادث السيرة : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشغولا بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام حينما جاءه ابن أم مكتوم الرجل الأعمى الفقير ـ وهو لايعلم أنه مشغول بأمر القوم ـ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، فكره رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ هـذا وعبس وجهه وأعرض عنه ، فنزل القرآن بصدر هـذه السورة يعاتب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عتابا شديدا ؛ ويقرر حقيقة القيم في حياة الجماعة المسلمة في أسلوب قوي حاسم ، كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟ ! كلا ! إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة » . .

ويعالج المقطع الثاني جحود الإنسان وكفره الفاحش لربه ، وهو يذكره بمصدر وجوده ، وأصل نشأته ، وتيسير حياته ، وتولى ربه له في موته ونشره ؛ ثم تقصيره بعد ذلك في أمره :

« قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقـدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا ! لما يقض ماأمره » . .

والمقطع الثالث يعالج توجيه القلب البشري إلى أمسّ الأشياء به وهو طعامه وطعام حيوانه. وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له ، كتدبيره وتقديره في نشأته :

« فلينظر الإنسان إلى طعامه ،أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم » . .

فأما المقطع الأخـير فيتولى عرض « الصاخة » يوم تجيء بهولها ، الذي يتجلى في لفظها ، كما تتجلى آثارها في القلب البشري الذي يذهل عما عداها ؛ وفي الوجوه التي تحـدث عما دهاها :

« فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيـه ، وأمه وأبيـه ، وصاحبته وبنيه ، لـكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الـكفرة الفجرة » . .

إن استعراض مقاطع السورة وآياتها ـ على هذا النحو السريع ـ يسكب فى الحس إيقاعات شديدة التأثير . فهى من القوة والعمق بحيث تفعل فعلها فى القلب بمجرد لمسها له بذاتها .

وسنحاول أن نكشف عن جوانب من الآماد البعيدة التى تشير إليها بعض مقاطعها مما قد لاتدركه النظرة الأولى . .

* * *

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ؟ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟ أما من استغنى فأنت له تصدى ؟ وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟ ! كلا ! إنها تذكرة . فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة » .

إن هذا التوجيه الذى نزل بشأن هذا الحادث هو أمر عظيم جدا . أعظم بكثير مما يبدو لأول وهلة . إنه معجزة ، هو والحقيقة التى أراد إقرارها فى الأرض ، والآثار التى ترتبت على إقرارها بالفعل فى حياة البشرية . ولعلها هى معجزة الإسلام الأولى ، ومعجزته الكبرى كذلك . ولكن هذا التوجيه يرد هكذا ـ تعقيبا على حادث فردى ـ على طريقة القرآن الإلهية فى اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة فرصة لتقرير الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

وإلا فإن الحقيقة التى استهدف هذا التوجيه تقريرها هنا والآثار الواقعية التى ترتبت بالفعل على تقريرها فى حياة الأمة المسلمة ، هى الإسلام فى صميمه . وهى الحقيقة التى أراد الإسلام ـ وكل رسالة سماوية قبله ـ غرسها فى الأرض .

هذه الحقيقة ليست هى مجرد : كيف يعامل فرد من الناس ؟ أو كيف يعامل صنف من الناس ؟ كما هو المعنى القريب للحادث وللتعقيب . إنما هى أبعد من هذا جدا ، وأعظم من هذا جدا . إنها : كيف يزن الناس كل أمور الحياة ؟ ومن أين يستمدون القيم التى يزنون بها ويقدرون ؟

والحقيقة التى استهدف هذا التوجيه إقرارها هى : أن يستمد الناس فى الأرض قيمهم وموازينهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة ، آتية لهم من السماء ، غير مقيدة بملابسات أرضهم ، ولا بمواضعات حياتهم ، ولا نابعة من تصوراتهم المقيدة بهذه المواضعات وتلك الملابسات .

وهو أمر عظيم جدا ، كما أنه أمر عسير جدا . عسير أن يعيش الناس فى الأرض بقيم

وموازين آتية من السماء . مطلقة من اعتبارات الأرض . متحررة من ضغط هـذه الاعتبارات .

ندرك عظمة هـذا الأمر وعسره حين ندرك ضخامة الواقع البشرى ، وثقله على المشاعر ، وضغطه على النفوس ، وصعوبة التخلى عن الملابسات والضغوط الناشئة من الحياة الواقعية للناس ، المنبثقة من أحوال معاشهم ، وارتباطات حياتهم ، وموروثات بيئتهم ، ورواسب تاريخهم ، وسائر الظروف الأخرى التى تشدهم إلى الأرض شدا ، وتزيد من ضغط موازينها وقيمها وتصوراتها على النفوس .

كذلك ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك أن نفس محمـد ابن عبد الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ قد احتاجت ـ كى تبلغه ـ إلى هـذا التوجيه من ربه ؛ بل إلى هـذا العتاب الشديد ، الذى يبلغ حد التعجيب من تصرفه !

وإنه ليكفى لتصوير عظمة أى أمر فى هذا الوجود أن يقال فيه : إن نفس محمد ابن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد احتاجت ـ كى تبلغه ـ إلى تنبيه وتوجيه !

نعم يـكفى هـذا . فإن عظمة هذه النفس وسموها ورفعتها ، تجعل الأمر الذى يحتاج منها ـ كى تبلغه ـ إلى تنبيه وتوجيه أمرا أكبر من العظمة ، وأرفع من الرفعة ! وهذه هى حقيقة هـذا الأمر ، الذى استهدف التوجيه الإلهى إقراره فى الأرض ،بمناسبة هذا الحادث المفرد . . أن يستمد الناس قيمهم وموازينهم من السماء ، طلقاء من قيم الأرض وموازينهـا المنبثقة من واقعهم كله . . وهذا هو الأمر العظيم . .

إن الميزان الذى أنزله الله للناس مع الرسل ، ليقوّموا به القيم كلها ، هو : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . . هـذه هى القيمة الوحيدة التى يرجح بها وزن الناس أو يشيل ! وهى قيمة سماوية بحتة ، لاعلاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقا . .

ولـكن الناس يعيشون فى الأرض ، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى ؛ كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية فى حياتهم . وهم يتعاملون بقيم أخرى . . فيها النسب ، وفيها القوة ، وفيهـا المـال . وفيها ماينشأ عن توزيع هـذه القيم من ارتباطات عملية . . اقتصادية وغير اقتصادية . . تتفاوت فيهـا أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض . فيصبح بعضهم أرجح من بعض فى موازين الأرض . .

ثم يجىء الإسلام ليقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . . فيضرب صفحا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن فى حياةالناس ، العنيفة الضغط على مشاعرهم ، الشديدة الجاذبية إلى الأرض. ويبدل من هـذا كله تلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء ، المعترف بها وحدها فى ميزان السماء !

ثم يجىء هـذا الحادث لتقرير هذه القيمة فى مناسبة واقعية محددة وليقرر معها المبدأ الأساسى : وهو أن الميزان ميزان السماء ، والقيمة قيمة السماء . وأن على الأمة المسلمة أن تدع كل ماتعارف عليـه الناس ، وكلماينبثق من علاقات الأرض من قيم وتصورات وموازين واعتبارات ، لتستمد القيم من السماء وحدها وتزنها بميزان السماء وحده !

ويجىء الرجل الأعمى الفقير . . ابن أم مكتوم . . إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش . عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبى جهل عمرو ابن هشام، وأمية ابن خلف ، والوليد ابن المغيرة ، ومعهم العباس ابن عبد المطلب .. والرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يدعوهم إلى الإسلام ؛ ويرجو بإسلامهم خيرا للإسلام فى عسرته وشدته التى كان فيهـا بمكة ؛ وهؤلاء النفر يقفون فى طريقه بمالهم وجاههم وقوتهم ؛ ويصدون الناس عنه ، ويكيدون له كيدا شديدا حتى ليجمدونه فى مكة تجميدا ظاهرا . بينما يقف الآخرون خارج مكة، لايقبلون على الدعوة التى يقفهـا أقرب الناس إلى صاحبهـا ، وأشدهم عصبية له، فى بيئة جاهلية قبلية ، تجعل لموقف القبيلة كل قيمة وكل اعتبار .

يجىء هـذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر . لالنفسه ولالمصلحته ، ولـكن للإسلام ولمصلحة الإسلام . فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة فى مكة ؛ ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها ، بعد إسلام هؤلاء الصناديد الـكبار . .

يجىء هـذا الرجل ، فيقول لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : يارسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله . . ويكرر هـذا وهو يعلم تشاغل الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمـا هو فيه من الأمر . فيكره الرسول قطعه لـكلامه واهتمامه . وتظهر الـكراهية فى وجهه ــ الذى لايراه الرجل ــ فيعبس ويعرض . يعرض عن الرجل المفرد الفقير الذى يعطله عن الأمر الخطير . الأمر الذى يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشىء الـكثير ؛ والذى تدفعه إليه رغبته فى نصرة دينه ، وإخلاصه لأمر دعوته ، وحبه لمصلحة الإسلام ، وحرصه على انتشاره !

وهنا تتدخل السماء . تتدخل لتقول كلمة الفصل فى هذا الأمر ؛ ولتضع معالم الطريق كله ، ولتقرر الميزان الذى توزن به القيم — بغض النظر عن جميع الملابسات والاعتبارات . بما فى ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر . بل كما يراها سيد البشر — صلى الله عليه وسلم — .

وهنا يجيء العتاب من الله العلى الأعلى لنبيه الكريم، صاحب الخلق العظيم، فى أسلوب عنيف شديد . والمرة الوحيدة فى القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب : « كلا ! » وهى كلمة ردع وزجر فى الخطاب ! ذلك أنه الأمر العظيم الذى يقوم عليه هذا الدين !

والأسلوب الذى تولى به القرآن هـذا العتاب الإلهى أسلوب فريد ، لاتمكن ترجمته فى لغة الكتابة البشرية . فلغة الكتابة لهاقيود وأوضاع وتقاليد ، تغض من حرارة هذه الموحيات فى صورتها الحية المباشرة . وينفرد الأسلوب القرآنى بالقدرة على عرضها فى هـذه الصورة فى لمسات سريعة . وفى عبارات متقطعة . وفى تعبيرات كأنها انفعالات ، ونبرات وسمات ولمحات حية !

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى » .. بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب! وفى هـذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لايحب — سبحانه — أن يواجه به نبيه وحبيبه . عطفا عليه ، ورحمة به ، وإكراما له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه !

ثم يستدير التعبير — بعد مواراة الفعل الذى نشأ عنه العتاب — يستدير إلى العتاب فى صيغة الخطاب . فيبدأ هادئا شيئا ما : « ومايدريك لعله يزكى ؟ أويذكر فتنفعه الذكرى ؟ » . . مايدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير . أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير — الذى جاءك راغبا فيما عندك من الخير — وأن يتيقظ قلبه فيتذكر فتنفعه الذكرى . مايدريك أن يشرق هذا القلب بقبس من نور الله ، فيستحيل منارة فى الأرض تستقبل نور السماء ؟ الأمر الذى يتحقق كلما تفتح قلب للهدى وتمت حقيقة الإيمان فيه . وهو الأمر العظيم الثقيل فى ميزان الله . .

ثم تعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته ؛ وينتقل إلى التعجب من ذلك الفعل محل العتاب: «وأما من استغنى ، فأنت له تصدى ؟ ! وماعليك ألا يزكى ؟ ! وأمامن جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟ ! » .. أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعماعندك من الهدى والخير والنور والطهارة . . أماهذا فأنت تتصدى له وتحفل أمره ، وتجهد لهدايته ، وتتعرض له وهو

عنك معرض ! « وما عليك ألا يزكى ؟ » . . ومايضيرك أن يظل فى رجسه ودنسه ؟ وأنت لا تسأل عن ذنبه . وأنت لا تُنصر به . وأنت لاتقوم بأمره . . « وأمامن جاءك يسعى » طائعا مختارا ، « وهو يخشى » ويتوقى « فأنت عنه تلهى ! » . .ويسمى الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب فى الخير التقى تلهيا .. وهو وصف شديد . .

ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر : « كلا ! » .. لايكن ذلك أبدا ..وهو خطاب يسترعى النظر فى هذا المقام .

ثم يبين حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعتها ، واستغناءها عن كل أحد . وعن كل سند . وعنايتها فقط بمن يريدها لذاتها ،كائنا ماكان وضعه ووزنه فى موازين الدنيا: «إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة. كرام بررة» .. فهى كريمة فى كل اعتبار . كريمة فى صحفها ، المرفوعة المطهرة الموكل بها السفراء من الملإ الأعلى ينقلونها إلى المختارين فى الأرض ليبلغوها . وهم كذلك كرام بررة .. فهى كريمة طاهرة فى كل مايتعلق بها ، ومايمسها من قريب أو من بعيد . وهى عزيزة لا يُتصدى بها المعرضين الذين يظهرون الاستغناء عنها ؛ فهى فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بها . .

هذا هو الميزان . ميزان الله . الميزان الذى توزن به القيم والاعتبارات ، ويقدر به الناس والأوضاع . . وهذه هى الكلمة . كلمة الله . الكلمة التى ينتهى إليها كل قول ،وكل حكم ، وكل فصل .

وأين هذا ؟ومتى ؟ فى مكة ، والدعوة مطاردة ، والمسلمون قلة . والتصدى للكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية ؛ والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصى . إنما هى الدعوة أولا وأخيرا . ولكن الدعوة إنما هى هذا الميزان ، وإنما هى هذه القيم ، وقد جاءت لتقرر هذا الميزان وهذه القيم فى حياة البشر . فهى لاتعز ولاتقوى ولاتنتصر إلا بإقرار هذا الميزان وهذه القيم . .

ثم إن الأمر — كما تقدم — أعظم وأشمل من هذا الحادث المفرد ، ومن موضوعه المباشر . إنما هو أن يتلقى الناس الموازين والقيم من السماء لامن الأرض ، ومن الاعتبارات السماوية لامن الاعتبارات الأرضية . . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. والأكرم عند الله هو الذى يستحق الرعاية والاهتمام والاحتفال ، ولوتجرد من كل المقومات والاعتبارات الأخرى ، التى

يتعارف عليها الناس تحت ضغط واقعهم الأرضي ومواضعاتهم الأرضية. النسب والقوة والمال . . وسائر القيم الأخرى ، لاوزن لها حين تتعرى عن الإيمان والتقوى . والحالة الوحيدة التي يصح لها فيها وزن واعتبار هي حالة ما إذا أنفقت لحساب الإيمان والتقوى .

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي استهدف التوجيه الإلهي إقرارها في هذه المناسبة، على طريقة القرآن في اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة ، وسيلة لإقرار الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

* * *

ولقد انفعلت نفس الرسول — صلى الله عليه وسلم — لهذا التوجيه ، ولذلك العتاب. انفعلت بقوة وحرارة ، واندفعت إلى إقرار هـذه الحقيقة في حياته كلها ، وفي حياة الجماعة المسلمة . بوصفها هي حقيقة الإسلام الأولى .

وكانت الحركة الأولى له — صلى الله عليه وسلم — هي إعلان مانزل له من التوجيه والعتاب في الحادث . وهذا الإعلان أمر عظيم رائع حقا . أمر لايقوى عليه إلا رسول، من أي جانب نظرنا إليه في حينه .

نعم لايقوى إلا رسول على أن يعلن للناس أنه عوتب هذا العتاب الشديد ، بهذه الصورة الفريدة في خطإ أتاه ! وكان يكفي لأي عظيم — غير الرسول — أن يعرف هـذا الخطأ وأن يتلافاه في المستقبل . ولكنها النبوة . أمر آخر . وآفاق أخرى !

لايقوى إلا رسول على أن يقذف بهـذا الأمر هكذا في وجوه كبراء قريش في مثل تلك الظروف التي كانت فيها الدعوة ، مع أمثال هؤلاء المستعزين بنسبهم وجاههم ومالهم وقوتهم ، في بيئة لامكان فيها لغير هـذه الاعتبارات ، إلى حد أن يقال فيها عن محمد ابن عبد الله ابن عبد المطلب ابن هاشم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » . . وهـذا نسبه فيهم ، لمجرد أنه هو شخصيا لم تكن له رياسة فيهم قبل الرسالة !

ثم إنه لايكون مثل هذا الأمر في مثل هـذه البيئة إلا من وحي السماء . فما يمكن أن ينبثق هذا من الأرض . . ومن هذه الأرض بذاتها في ذلك الزمان ! !

وهي قوة السماء التي دفعت مثل هذا الأمر في طريقه ؛ فإذا هو ينفذ من خلال نفس النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى البيئة من حوله ؛ فيتقرر فيها بعمق وقوة واندفاع ، يطرد به أزمانا طويلة في حياة الأمة المسلمة .

لقد كان ميلادا جديدا للبشرية كميلاد الإنسان فى طبيعته . وأعظم منه خطرا فى قيمته .. أن ينطلق الإنسان حقيقة ــ شعورا وواقعا ــ من كل القيم المتعارف عليها فى الأرض ، إلى قيم أخرى تتنزل له من السماء منفصلة منعزلة عن كل مافى الأرض من قيم وموازين وتصورات واعتبارات وملابسات عمليــة ، وارتباطات واقعيــة ذات ضغط وثقل ، ووشائج متلبسة باللحم والدم والأعصاب والمشاعر . ثم أن تصبح القيم الجديدة مفهومة من الجميع ، مسلما بها من الجميع . وأن يستحيل الأمر العظيم الذى احتاجت نفس محمــد ــ صلى الله عليــه وسلم ــ كى تبلغه إلى التنبيه والتوجيه ، أن يستحيل هذا الأمر العظيم بديهية الضمير المسلم ، وشريعة المجتمع المسلم ، وحقيقة الحياة الأولى فى المجتمع الإسلامى لآماد طويلة فى حياة المسلمين .

إننا لانــكاد ندرك حقيقة ذلك الميلاد الجــديد . لأننا لانتمثل فى ضمائرنا حقيقة هــذا الانطلاق من كل ماتنشئه أوضاع الأرض وارتباطاتها من قيم وموازين واعتبارات ساحقة الثقل إلى الحد الذى يخيل لبعض أصحاب المذاهب « التقدمية ! » أن جانبا واحدا منها ــ هو الأوضاع الاقتصادية ــ هو الذى يقرر مصائر الناس وعقائدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعرفهم وتصورهم للحياة ! كما يقول أصحــاب مذهب التفسير المــادى للتاريخ فى ضيق أفق ، وفى جهالة طاغية بحقائق النفس وحقائق الحياة !

إنها المعجزة . معجزة الميلاد الجديد للإنسان على يد الإسلام فى ذلك الزمان . .

* * *

ومنذ ذلك الميلاد سادت القيم التى صاحبت ذلك الحادث الـكونى العظيم . . ولــكن المسألة لم تــكن هينة ولا يسيرة فى البيئة العربية ، ولا فى نفوس المسلمين أنفسهم .. غير أن الرسول ــ صلى الله عليــه وسلم ــ قد استطاع ــ بإرادة الله ، وبتصرفاته هو وتوجيهاته المنبعثة من حرارة انفعاله بالتوجيه القرآنى الثابت ــ أن يزرع هذه الحقيقة فى الضمائر وفى الحيــاة ؛ وأن يحرسها ويرعاها ، حتى تتأصل جذورها ، وتمتد فروعها ، وتظلل حياة الجماعة المسلمة قرونا طويلة . . على الرغم من جميع عوامل الانتــكاس الأخرى . .

كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد هــذا الحادث يهش لابن أم مــكتوم ويرعاه ؛ ويقول له كلما لقيه : « أهلا بمن عاتبنى فيــه ربى » وقد استخلفه مرتين بعــد الهجرة على المدينة . .

ولكى يحطم موازين البيئة وقيمها المنبثقة من اعتبار الأرض ومواضعاتها ، زوج بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية ، لمولاه زيد ابن حارثة . ومسألة الزواج والمصاهرة مسألة حساسة شديدة الحساسية . وفى البيئة العربية بصفة خاصة .

وقبل ذلك حينما آخى بين المسلمين فى أول الهجرة ، جعل عمه حمزة ومولاه زيدا أخوين . وجعل خالد ابن رويحة الخثعمى وبلال بن رباح أخوين !

وبعث زيدا أميرا فى غزوة مؤتة ، وجعله الأمير الأول ، يليه جعفر ابن أبى طالب ، ثم عبد الله ابن رواحة الأنصارى، على ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، فيهم خالد ابن الوليد .

وخرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بنفسه يشيعهم . . وهى الغزوة التى استشهد فيها الثلاثة رضى الله عنهم .

وكان آخر عمل من أعماله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن أمر أسامة ابن زيد على جيش لغزو الروم ، يضم كثرة من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر وزيراه ، وصاحباه ، والخليفتان بعده بإجماع المسلمين . وفيهم سعد ابن أبى وقاص قريبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن أسبق قريش إلى الإسلام .

وقد تململ بعض الناس من إمارة أسامة وهو حدث . وفى ذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما ــ: بعث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعثا أمر عليهم أسامة ابن زيد ــ رضى الله عنهما ــ فطعن بعض الناس فى إمارته ، فقال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل . وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلىّ. وإن هذا لمن أحب الناس إلى [١] . .

ولما لغطت ألسنة بشأن سلمان الفارسى ، وتحدثوا عن الفارسية والعربية ، بحكم إيحاءات القومية الضيقة ، ضرب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ضربته الحاسمة فى هذا الأمر فقال : «سلمان منا أهل البيت[٢] » فتجاوز به ــ بقيم السماء وميزانها ــ كل آفاق النسب الذى يستعزون به ، وكل حدود القومية الضيقة التى يتحمسون لها . . وجعله من أهل البيت رأسا !

ولما وقع بين أبى ذر الغفارى وبلال ابن رباح ــ رضى الله عنهما ــ ما أفلت معه لسان

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى .
(٢) أخرجه الطبرانى والحاكم .

أبى ذر بكلمة « ياابن السوداء » .. غضب لها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ غضبا شديدا ؛ وألقاها فى وجه أبى ذر عنيفة مخيفة : « ياأبا ذر طفّ الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل[١] » . ففرق فى الأمر إلى جذوره البعيدة . . إما إسلام فهى قيم السماء وموازين السماء . وإما جاهلية فهى قيم الأرض وموازين الأرض !

ووصلت الكلمة النبوية بحرارتها إلى قلب أبى ذر الحساس ؛ فانفعل لها أشد الانفعال ، ووضع جبهته على الأرض يقسم ألا يرفعها حتى يطأها بلال . تكفيرا عن قولته الكبيرة !

وكان الميزان الذى ارتفع به بلال هو ميزان السماء . . عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يابلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام منفعة عندك . فإنى سمعت الليلة خشف نعليك بين يدى فى الجنة » . فقال : ماعملت فى الإسلام عملا أرجى عندى منفعة من أنى لا أتطهر طهورا تاما فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى[٢].

وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول عن عمار ابن ياسر وقد استأذن عليه : « ائذنوا له مرحبا بالطيب المطيب » [٣] . . وقال عنه : « ملئ عمار ــ رضى الله عنه ــ إيمانا إلى مشاشه [٤] » .. وعن حذيفة ــ رضى الله عنه قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « إنى لا أدرى مابقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى ــ وأشار إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ــ واهتدوا بهدى عمار . وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه »[٥].

وكان ابن مسعود يحسبه الغريب عن المدينة من أهل بيت رسول الله . . عن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ قال : قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من كثرة دخولهم على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولزومهم له » [٦] .

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى البر والصلة مع اختلاف
(٢) أخرجه الشيخان
(٣) أخرجه الترمذى
(٤) أخرجه النسائى
(٥) أخرجه الترمذى
(٦) أخرجه الشيخان والترمذى

وجليبيب — وهو رجل من الموالى — كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخطب له بنفسه لىزوجه امرأة من الأنصار . فلما تأبى أبواها قالت هى : أتريدون أن تردوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه. فرضيا وزوجاها [١] .

وقد افتقده رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الوقعة التى استشهد فيها بعد فترة قصيرة من زواجه . . عن أبى برزة الأسلمى — رضى الله عنه — قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى مغزى له ، فأفاء الله عليه . فقال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نعم فلانا وفلانا وفلانا . ثم قال : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نعم . فلانا وفلانا وفلانا . ثم قال : « هل تفقدون من أحد ؟ » فقالوا : لا . قال : « لكنى أفقد جليبيبا » فطلبوه ، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتى النبى — صلى الله عليه وسلم — فوقف عليه ، ثم قال : قتل سبعة ثم قتلوه . هذا منى وأنا منه . هذا منى وأنامنه. ثم وضعه على ساعديه ،ليس له سرير إلا ساعدا النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : فحفر له ، ووضع فى قبره ولم يذكر غسلا [٢] .

* * *

بذلك التوجيه الإلهى وبهذا الهدى النبوى كان الميلاد للبشرية على هذا النحو الفريد . ونشأ المجتمع الربانى الذى يتلقى قيمه وموازينه من السماء ، طليقا من قيود الأرض ، بينما هو يعيش على الأرض . . وكانت هذه هى المعجزة الكبرى للإسلام . المعجزة التى لاتتحقق إلا بإرادة إله ، وبعمل رسول . والتى تدل بذاتها على أن هذا الدين من عند الله ، وأن الذى جاء به للناس رسول !

وكان من تدبير الله لهذا الأمر أن يليه بعد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صاحبه الأول أبوبكر ، وصاحبه الثانى عمر . . أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الأمر ، وأشد اثنين انطباعا بهدى رسول الله ، وأعمق اثنين حبا لرسول الله ، وحرصا على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه .

حفظ أبو بكر — رضى الله عنه — عن صاحبه — صلى الله عليه وسلم — ماأراده فى أمر أسامة.

---

(١) من حديث فى مسند الإمام أحمد عن أنس.

(٢) أخرجه مسلم .

فكان أول عمل له بعد توليه الخلافة هو إنفاذه بعث أسامة ، على رأس الجيش الذى أعده رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسار يودعه بنفسه إلى ظاهر المدينة . أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل . فيستحيي أسامة الفتى الحدث أن يركب والخليفة الشيخ يمشى . فيقول: «ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن » . . فيقسم الخليفة : « والله لاتنزل . ووالله لاأركب . وماعلى أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ؟ » . .

ثم يرى أبوبكر أنه فى حاجة إلى عمر . وقد حمل عبء الخلافة الثقيل . ولكن عمر إنما هو جندى فى جيش أسامة . وأسامة هو الأمير . فلابد من استئذانه فيه . فإذا الخليفة يقول : « إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل » . . يالله ! إن رأيت أن تعيننى فافعل . . إنها آفاق عوال، لايرقى إليها الناس إلا بإرادة الله ، على يدى رسول من عند الله !

ثم تمضى عجلة الزمن فنرى عمر ابن الخطاب خليفة يولى عمار ابن ياسر على الكوفة .

ويقف بباب عمر سهيل ابن عمرو ابن الحارث ابن هشام ، وأبو سفيان ابن حرب ، وجماعة من كبراء قريش من الطلقاء ! فيأذن قبلهم لصهيب وبلال . لأنهما كانا من السابقين إلى الإسلام ومن أهل بدر . فتورم أنف أبى سفيان ، ويقول بانفعال الجاهلية : « لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ! » . . فيقول له صاحبه — وقد استقرت فى حسه حقيقة الإسلام — : « أيها القوم . إنى والله أرى الذى فى وجوهكم . إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم إلى الإسلام ودعيتم . فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ (١) .

ويفرض عمر لأسامة ابن زيد أكبر مما يفرض لعبد الله ابن عمر . حتى إذا سأله عبد الله عن سر ذلك قال له : « يابنى . كان زيد — رضى الله عنه — أحب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من أبيك ! وكان أسامة — رضى الله عنه — أحب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — منك ! فآثرت حب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على حبى » (٢) . . يقولها عمر وهو يعلم أن حب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إنما كان مقوما بميزان السماء !

(١) عن كتاب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام .
(٢) أخرجه الترمذى

ويرسل عمر عمارا ليحاسب خالد ابن الوليد ـ القائد المظفر صاحب النسب العريق ـ فيلببه بردائه . . ويروى أنه أوثقه بشال عمامته حتى ينتهى من حسابه فتظهر براءته فيفك وثاقه ويعممه بيده . . وخالد لايرى فى هذا كله بأسا . فإنما هو عمار صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السابق إلى الإسلام الذى قال عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماقال !

وعمر هو الذى يقول عن أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ هو سيدنا وأعتق سيدنا . يعنى بلالا . الذى كان مملوكا لأمية ابن خلف . وكان يعذبه عذابا شديدا . حتى اشتراه منه أبو بكر وأعتقه . . وعنه يقول عمر ابن الخطاب . . عن بلال . . سيدنا !

وعمر هو الذى قال : « ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لاستخلفته » يقول هذا ، وهو لم يستخلف عثمان ولا عليا ، ولا طلحة ولا الزبير . . إنما جعل الشورى فى الستة بعده ولم يستخلف أحدا بذاته !

وعلى ابن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ يرسل عمارا والحسن ابن على ـ رضى الله عنهما ـ إلى أهل الكوفة يستنفرهم فى الأمر الذى كان بينه وبين عائشة ـ رضى الله عنها ـ فيقول : « إنى لأعلم أنها زوجة نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو تتبعوها » [1] . . فيسمع له الناس فى شأن عائشة أم المؤمنين ، وبنت الصديق أبى بكر ـ رضى الله عنهم جميعا .

وبلال ابن رباح يرجوه أخوه فى الإسلام أبو رويحة الخثعمى أن يتوسط له فى الزواج من قوم من أهل اليمن . فيقول لهم : « أنا بلال ابن رباح ، وهذا أخى أبو رويحة ، وهو امرؤ سوء فى الخلق والدين . فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا » . . فلا يدلس عليهم ، ولا يخفى من أمر أخيه شيئا ، ولا يذكر أنه وسيط وينسى أنه مسؤول أمام الله فيما يقول . . فيطمئن القوم إلى هذا الصدق . . ويزوجون أخاه ، وحسبهم ـ وهو العربى ذو النسب ـ أن يكون بلال المولى الحبشى وسيطه !

* * *

واستقرت تلك الحقيقة الكبيرة فى المجتمع الإسلامى ، وظلت مستقرة بعد ذلك آمادا طويلة

(١) أخرجه البخارى .

على الرغم من عوامل الانتكاس الكثيرة . « وقد كان عبد الله ابن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة . وكان عبد الله ابن عمر يذكر ويذكر معه مولاه نافع . وأنس ابن مالك ومعه مولاه ابن سيرين .وأبو هريرة ومعه مولاه عبد الرحمان ابن هرمز . وفى البصرة كان الحسن البصرى . وفى مكة كان مجاهد ابن جبر ، وعطاء ابن رباح ، وطاووس ابن كيسان هم الفقاء . وفى مصر تولى الفتيا يزيد ابن أبى حبيب فى أيام عمر ابن عبد العزيز وهو مولى أسود من دنقلة » [1] . .

وظل ميزان السماء يرجح بأهل التقوى ولو تجردوا من قيم الأرض كلها .. فى اعتبار أنفسهم وفى اعتبار الناس من حولهم . ولم يرفع هذا الميزان من الأرض إلا قريبا جدا بعد أن طغت الجاهلية طغيانا شاملا فى أنحاء الأرض جميعا . وأصبح الرجل يقوم برصيده من الدولارات فى أمريكا زعيمة الدول الغربية . وأصبح الإنسان كله لايساوى الآلة فى المذهب المادى المسيطر فى روسيا زعيمة الدول الشرقية . أما أرض المسلمين فقد سادت فيها الجاهلية الأولى ، التى جاء الإسلام ليرفعها من وهدتها ؛ وانطلقت فيها نعرات كان الإسلام قد قضى عليها . وحطمت ذلك الميزان الإلهى وارتدت إلى قيم جاهلية زهيدة لاتمت بصلة إلى الإيمان والتقوى ..

ولم يعد هنالك إلا أمل يناط بالدعوة الإسلامية أن تنقذ البشرية كلها مرة أخرى من الجاهلية ؛ وأن يتحقق على يديها ميلاد جديد للإنسان كالميلاد الذى شهدته أول مرة ، والذى جاء ذلك الحادث الذى حكاه مطلع هذه السورة ليعلنه فى تلك الآيات القليلة الحاسمة العظيمة . .

* * *

وبعد تقرير تلك الحقيقة الكبيرة فى ثنايا التعقيب على ذلك الحادث ، فى المقطع الأول من السورة ، يعجب السياق فى المقطع الثانى من أمر هذا الإنسان ، الذى يعرض عن الهدى ، ويستغنى عن الإيمان ، ويستعلى على الدعوة إلى ربه .. يعجب من أمره وكفره ، وهو لايذكر مصدر وجوده ، وأصل نشأته ، ولايرى عناية الله به وهيمنته كذلك على كل مرحلة من مراحل نشأته فى الأولى والآخرة ؛ ولايؤدى ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه :

« قتل الإنسان ما أكفره ! من أى شىء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره. ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا ! لما يقض ما أمره » . .

---

(١) مستقى من كتاب أبو حنيفة للأستاذ عبد الحليم الجندي .

« قتل الإنسان ! » . . فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه .. فهي صيغة تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره . وإفادة أنه يرتكب مايستوجب القتل لشناعته وبشاعته . .

« ما أكفره ! » .. ماأشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته . ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه ، ولتواضع في دنياه ، ولذكر آخرته . .

وإلا فعلام يتكبر ويستغنى ويعرض ؟ وماهو أصله وماهو مبدؤه ؟

« من أى شيء خلقه ؟ » ..

إنه أصل متواضع زهيد ، يستمد كل قيمته من فضل الله ونعمته ، ومن تقديره وتدبيره :

« من نطفة خلقه فقدره » ..

من هذا الشيء الذى لاقيمة له ؛ ومن هـذا الأصل الذى لاقوام له .. ولكن خالقه هو الذى قدره . قدره . من تقدير الصنع وإحكامه . وقدره : من منحه قدرا وقيمة فجعله خلقا سويا ، وجعله خلقا كريما . وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع ، إلى المقام الرفيع الذى تسخر له فيه الأرض وما عليها .

« ثم السبيل يسره » . .

فمهد له سبيل الحياة . أو مهد له سبيل الهداية . ويسره لسلوكه بما أودعه من خصائص واستعدادات . سواء لرحلة الحياة ، أوللاهتداء فيها .

حتى إذا انتهت الرحلة ، صار إلى النهاية التي يصير إليها كل حى . بلا اختيار ولافرار :

« ثم أماته فأقبره » . .

فأمره في نهايته كأمره في بدايته ، في يد الذى أخرجه إلى الحياة حين شاء ، وأنهى حياته حين شاء ، وجعل مثواه جوف الأرض ، كرامة له ورعاية ، ولم يجعل السنة أن يترك على ظهرها للجوارح والكواسر . وأودع فطرته الحرص على مواراة ميته وقبره . فكان هذا طرفا من تدبيره له وتقديره .

حتى إذا حان الموعد الذى اقتضته مشيئته ، أعاده إلى الحياة لما يراد به من الأمر :

« ثم إذا شاء أنشره » . .

فليس متروكا سدى ؛ ولا ذاهبا بلاحساب ولا جزاء . . فهل تراه تهيأ لهذا الأمر واستعد ؟

« كلا ! لما يقض ماأمره » . .

الإنسان عامة ، بأفراده جملة ، وبأجياله كافة . . لمـا يقض ماأمره . . إلى آخر لحظة فى حياته . وهو الإيحاء الذى يلقيه التعبير بلما . كلا إنه لقصر ، لم يؤد واجبه . لم يذكر أصله ونشأته حق الذكرى . ولم يشكر خالقه وهاديه وكافله حق الشكر . ولم يقض هـذه الرحلة على الأرض فى الاستعداد ليوم الحساب والجزاء . . هو هكذا فى مجموعه . فوق أن الـكثرة تعرض وتتولى ، وتستغنى وتتـكبر على الهدى !

***

وينتقل السياق إلى لمسة أخرى فى مقطع جديد . . فتلك هى نشأة هذا الإنسان . . فهلا نظر إلى طعامه وطعام أنعامه فى هذه الرحلة ؟ وهى شىء واحد من أشياء يسرها له خالقه ؟

« فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا المـاء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا، وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لـكم ولأنعامكم » . .

هذه هى قصة طعامه . مفصلة مرحلة مرحلة . هذه هى فلينظر إليها ؛ فهل له من يد فيها ؟ هل له من تدبير لأمرها ؟ إن اليد التى أخرجته إلى الحياة وأبدعت قصته ، هى ذاتها اليد التى أخرجت طعامه وأبدعت قصته . .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه » . . ألصق شىء به ، وأقرب شىء إليه ، وألزم شىء له . . لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضرورى الحاضر المـكرر . لينظر إلى قصته العجيبة اليسيرة ، فإن يسرها ينسيه مافيها من العجب . وهى معجزة كمعجزة خلقه ونشأته . وكل خطوة من خطواتها بيد القدرة التى أبدعته :

« أنا صببنا المـاء صبا » . . وصب الماء فى صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان فى كل بيئة ، فى أية درجة كان من درجات المعرفة والتجربة . فهى حقيقة يخاطب بها كل إنسان . فأما حين تقدم الإنسان فى المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ماهو أبعد مدى وأقدم عهدا من هذا المطر الذى يتـكرر اليوم ويراه كل أحد . وأقرب الفروض الآن لتفسير وجود المحيطات الـكبيرة التى يتبخر ماؤها ثم ينزل فى صورة مطر ، أقرب الفروض أن هذه المحيطات تـكونت أولا فى السماء فوقنا ثم صبت على الأرض صبا !

وفى هـذا يقول أحد علماء العصر الحاضر : « إذا كان صحيحا أن درجة حرارة الـكرة

الأرضية وقت انفصالها عن الشمس كانت حوالى ١٢,٠٠٠ درجة. أو كانت تلك درجة حرارة سطح الأرض. فعندئذ كانت كل العناصر حرة. ولذا لم يكن فى الإمكان وجود أى تركيب كيميائى ذى شأن. ولما أخذت الكرة الأرضية، أو الأجزاء المكونة لها فى أن تبرد تدريجيا، حدثت تركيبات، وتكونت خلية العالم كما نعرفه. وما كان للأكسيجين والهيدروجين أن يتحدا إلا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى ٤٠٠٠ درجة فارنهايت. وعند هذه النقطة اندفعت معا تلك العناصر، وكونت الماء الذى نعرفه الآن أنه هواء الكرة الأرضية. ولا بد أنه كان هائلا فى ذلك الحين. وجميع المحيطات كانت فى السماء. وجميع تلك العناصر التى لم تكن قد اتحدت كانت غازات فى الهواء. وبعد أن تكون الماء فى الجو الخارجى سقط نحو الأرض. ولكنه لم يستطع الوصول إليها. إذ كانت درجة الحرارة على مقربة من الأرض أعلى مما كانت على مسافة آلاف الأميال. وبالطبع جاء الوقت الذى صار الطوفان يصل فيه إلى الأرض ليطير منها ثانيا فى شكل بخار. ولما كانت المحيطات فى الهواء فإن الفيضانات التى كانت تحدث مع تقدم التبريد كانت فوق الحسبان. وتمشى الجيشان مع التفتت.... الخ »(1)

وهذا الفرض – ولو أننا لا نعلق به النص القرآنى – يوسع من حدود تصورنا نحن للنص والتاريخ الذى يشير إليه. تاريخ صب الماء صبا. وقد يصح هذا الفرض، وقد تجد فروض أخرى عن أصل الماء فى الأرض. ويبقى النص القرآنى صالحا لأن يخاطب به كل الناس فى كل بيئة وفى كل جيل.

ذلك كان أول قصة الطعام: « أنا صببنا الماء صبا » .. ولا يزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء فى أى صورة من صوره، وفى أى تاريخ لحدوثه؛ ولا أنه صبه على الأرض صبا، لتسير قصة الطعام فى هذا الطريق!

« ثم شققنا الأرض شقا » .. وهذه هى المرحلة التالية لصب الماء. وهى صالحة لأن يخاطب بها الإنسان البدائى الذى يرى الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته، وتدبير غير تدبيره. ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها. أو يرى النبت يشق تربة الأرض شقا بقدرة الخالق وينمو على وجهها، ويمتد فى الهواء فوقها.. وهو نحيل نحيل، والأرض فوقه ثقيلة ثقيلة.

---

(١) عن كتاب: الإنسان لا يقوم وحده تأليف « ا. كريسى موريسون » وترجمة محمود صالح الفلكى بعنوان: العلم يدعو إلى الإيمان.

ولـكن اليد المدبرة تشق له الأرض شقا ، وتعينه على النفاذ فيها وهو ناحل لين لطيف . وهى معجزة يراها كل من يتأمل انبثاق النبتة من التربة ؛ ويحس من ورائه انطلاق القوة الخفية الـكامنة فى النبتة الرخية .

فأما حين تتقدم معارف الإنسان فقد يعن له مدى آخر من التصور فى هذا النص . وقد يـكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور . إنه قد يكون ذلك التفتت فى صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات الهائلة التى يشير إليها الفرض العلمى السابق . وبسبب العوامل الجوية الـكثيرة التى يفترض علماء اليوم أنها تعاونت لتفتيت الصخور الصلبة التى كانت تـكسو وجه الأرض وتـكون قشرتها ؛حتى وجدت طبقة الطمى الصالحة للزرع . وكان هذا أثرا من آثار المـاء تاليا فى تاريخه لصب المـاء صبا . مما يتسق أكثر مع هـذا التتابع الذى تشير إليه النصوص . .

وسواء كان هذا أم ذاك أم سواهما هو الذى حدث ، وهو الذى تشير إليه الآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة فى القصة هى النبات بكل صنوفه وأنواعه . التى يذكر منها هنا أقربها للمخاطبين ، وأعمها فى طعام الناس والحيوان :

« فأنبتنا فيها حبا » . .وهو يشمل جميع الحبوب . ماأكله الناس فى أية صورة من صوره، وما يتغذى به الحيوان فى كل حالة من حالاته .

« وعنبا وقضبا » . . والعنب معروف. والقضب هو كل ما يؤكل رطبا غضا من الخضر التى تقطع مرة بعد أخرى . .

« وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا » . . والزيتون والنخل معروفان لـكل عربى ، والحدائق جمع حديقة ، وهى البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها . و « غلبا » جمع غلباء . أى ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار. والفاكهة من ثمار الحدائق و «الأب» أغلب الظن أنه الذى ترعاه الأنعام . وهو الذى سأل عنه عمر ابن الخطاب ثم راجع نفسه فيه متلوما ! كما سبق فى الحديث عن سورة النازعات ! فلا نزيد نحن شيئا !

هذه هى قصة الطعام . كلها من إبداع اليد التى أبدعت الإنسان . وليس فيها للإنسان يد يدعيها ، فى أية مرحلة من مراحلها . . حتى الحبوب والبذور التى قد يلقيها هو فى الأرض . . إنه لم يبدعها ، ولم يبتدعها . والمعجزة فى إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان وإدراكه .

والتربة واحدة بين يديه ، ولكن البذور والحبوب منوعة ، وكل منها يؤتى أكله فى القطع المتجاورات من الأرض .وكلها تسقى بماء واحد ،ولكن اليد المبدعة تنوع النبات وتنوع الثمار ؛ وتحفظ فى البذرة الصغيرة خصائص أمها التى ولدتها فتنقلها إلى بنتها التى تلدها . . كل أولئك فى خفيــة عن الإنسان ! لا يعلم سرها ولا يقضى أمرها ، ولا يستشار فى شأن من شؤونها . .

هذه هى القصة التى أخرجتها يد القدرة :

« متاعا لكم ولأنعامكم » . . إلى حين . ينتهى فيه هذا المتاع ؛ الذى قدره الله حين قدر الحياة . ثم يكون بعد ذلك أمر آخر يعقب المتاع . أمر يجدر بالإنسان أن يتدبره قبل أن يجىء :

* * *

« فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيــه ، وأمه وأبيــه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . . وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » . .

فهذه هى خاتمة المتاع . وهذه هى التى تتفق مع التقدير الطويل ، والتدبير الشامل ،لكل خطوة وكل مرحلة فى نشأة الإنسان . وفى هــذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع . مع الذى جاء يسعى وهو يخشى . والذى استغنى وأعرض عن الهــدى . ثم هــذان هما فى ميزان الله .

« والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ ، يكاد يخرق صماخ الأذن ، وهو يشق الهواء شقا ، حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا !

« وهو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذى يليه : مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به : «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه » . . أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لاتنفصم ؛ ولكن هــذه الصاخة تمزق هــذه الروابط تمزيقا ، وتقطع تلك الوشائج تقطيعا .

« والهول فى هذا المشهد هول نفسى بحت ، يفزع النفس ويفصلها عن محيطها ، ويستبد بها استبدادا . فلكل نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من الهم الخاص به ، الذى لايدع له فضلة من وعى أو جهد : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . .

« والظلال الكامنة وراء هذه العبارة وفى طياتها ظلال عميقة سحيقة . فما يوجد أخصر ولا أشمل من هـذا التعبير ، لتصوير الهم الذى يشغل الحس والضمير : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »[1] !

ذلك حال الخلق جميعا فى هول ذلك اليوم .. إذا جاءت الصاخة . . ثم يأخـذ فى تصوير حال المؤمنين وحال الكافرين ، بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك :

« وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة » . .

فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة ، راجية فى ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . فهى تنجو من هول الصاخة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر . أو هى قد عرفت مصيرها ، وتبين لها مكانها ، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل . .

« ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة » . .

فأما هـذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة ، ويغشاها سواد الذل والانقباض . وقد عرفت ماقدمت ، فاستيقنت ماينتظرها من جزاء .. «أولئك هم الكفرة الفجرة » .. الذين لايؤمنون بالله وبرسالاته ، والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته . .

وفى هذه الوجوه وتلك قد ارتسم مصير هؤلاء وهؤلاء . ارتسم ملامح وسمات من خلال الألفاظ والعبارات . وكأنما الوجوه شاخصة ، لقوة التعبير القرآنى ودقة لمساته .

بذلك يتناسق المطلع والختام . . المطلع يقرر حقيقة الميزان . والختام يقرر نتيجة الميزان . وتستقل هذه السورة القصيرة بهذا الحشد من الحقائق الضخام ،والمشاهد والمناظر، والإيقاعات والموحيات . وتفى بها كلها هذا الوفاء الجميل الدقيق . .

١

---

(١) عن كتاب مشاهد القيامة فى القرآن .

سورة التكوير مكية
وآياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ: * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ؟* وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ .

« فَلَا أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ* وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ » .

هـذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج فى كل مقطع منهما تقرير حقيقـة ضخمة من حقائق العقيدة :

الأولى حقيقة القيامة ،وما يصاحبها من انقلاب كونى هائل كامل ، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل بنى الإنسان .

والثانية حقيقة الوحى ، وما يتعلق بها من صفة الملك الذى يحمله، وصفة النبى الذى يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهـذا الوحى معه ، ومع المشيئة الـكبرى التى فطرتهم ونزلت لهم الوحى .

والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة . تنطلق من عقالها ، فتقلب كل شىء ، وتنثر كل شىء ؛ وتهيج الساكن وتروع الآمن ؛ وتذهب بـكل مألوف وتبدل كل معهود ؛ وتهز النفس البشرية هزا عنيفا طويلا ، يخلعها من كل مااعتادت أن تسكن إليه ، وتتشبث به ، فإذا هى فى عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لاوزن لها ولا قرار . ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا فى حمى الواحد القهار ، الذى له وحده البقاء والدوام ، وعنده وحده القرار والاطمئنان . .

ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ماتطمئن إليه وتركن ، لتلوذ بـكنف الله ، وتأوى إلى حماه ، وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار . .

وفى السورة ــ مع هذا ــ ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة ، سواء فى هذا الـكون الرائع الذى نراه ، أو فى ذلك اليوم الآخر الذى ينقلب فيه الـكون بـكل مانعهده فيـه من أوضاع . وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة ! المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات . وتلتقى هذه وتلك فى حيز السورة الضيق ، فتضغط على الحس وتنفذ إليه فى قوة وإيحاء .

ولولا أن فى التعبير ألفاظا وعبارات لم تعد مألوفة ولا واضحة للقارىء فى هـذا الزمان ، لآثرت ترك السورة تؤدى بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها ومشاهدها ، مالا تؤديه أية ترجمة لها فى لغة البشر ؛ وتصل بذاتها إلى أوتار القلوب فتهزها من الأعماق .

ولـكن لابد مما ليس منه بد . وقد بعدنا فى زماننا هذا عن مألوف لغة القرآن !

* * *

« إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انـكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت ؟ وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت . . علمت نفس ما أحضرت » . .

هـذا هو مشهد الانقلاب التام لـكل معهود ، والثورة الشاملة لـكل موجود . الانقلاب الذى يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، ونفوس البشر،

وأوضاع الأمور .حيث ينكشف كل مستور، ويعلم كل مجهول ؛وتقف النفس أمام ماأحضرت من الرصيد والزاد فى موقف الفصل والحساب . وكل شىء من حولها عاصف ؛ وكل شىء من حولها مقلوب !

وهـذه الأحداث الـكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هـذا الـكون الذى نعهـده . الـكون المنسق الجميل ، الموزون الحركة ، المضبوط النسبة ، المتين الصنعة ، المبنى بأيد وإحكام. أن هذا الـكون سينفرط عقد نظامه ، وتتناثرأجزاؤه ، وتذهبعنه صفاته هذه التى يقوم بها ؛ وينتهى إلى أجله المقدر ، حيث تنتهى الخلائق إلى صورة أخرى من الـكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ماعهدت نهائيا فى هذا الـكون المعهود .

وهذا ما تستهدف السورة إقراره فى المشاعر والقلوب كى تنفصل من هذه المظاهر الزائلة- مهما بدت لها ثابتة ـ وتتصل بالحقيقة الباقية . . حقيقة الله الذى لايحول ولايزول ، حين يحول كل شىء من الحوادث ويزول . ولـكى تنطلق من إسار المعهود المألوف فى هذا الـكون المشهود . إلى الحقيقة المطلقة التى لاتتقيد بزمان ولامكان ولارؤية ولا حس ، ولامظهر من المظاهر التى تقيدها فى ظرف أو إطار محدود !

وهذا هو الشعورالعام الذى ينسرب إلىالنفس وهى تطالعمشاهد هذا الانقلاب المرهوب.

فأما حقيقة مايجرى لـكل هذه الـكائنات . فعلمها عند الله ؛ وهى حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرناوتصوراتنا المقيدة بمألوفحسنا وتفـكيرنا..وأكبرمانعهده منالانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض فى زلزال مدمر ، أو يتفجر من باطنها بركان جائح ، أو أن ينقض على الأرض شهاب صغير ، أوصاعقة .. وأشدماعرفتهالبشرية من طغيان الماءكانهو الطوفان .. كما أن أشد مارصدته من الأحداث الـكونية كان هو انفجارات جزئية فى الشمس على بعدمئات الملايين من الأميال . .

وهـذه كلها بالقياسإلى ذلك الانقلابالشامل الهائل فى يوم القيامة . . تسليات أطفال!!!

فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئا عن حقيقة مايجرى للـكائنات ، فليس أمامنا إلا تقريبها فى عبارات مما نألف فى هذه الحياة !

* * *

إن تـكوير الشمس قد يعنى برودتها ،وانطفاءشعلتها ، وانـكماش ألسنتهاالملتهبةالتى تمتدمن

جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها فى الفضاء . كما يتبدى هـذا من المراصد فى وقت الـكسوف . واستحالتهـا من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التى تبلغ ١٢٠٠٠ درجة ، والتى تحول جميع المواد التى تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتهبة . . . استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض ، وتكور لاألسنة له ولاامتداد !

قد يكون هذا ، وقد يكون غيره . . أما كيف يقع والعوامل التى تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

* **

وانـكدار النجوم قد يكون معناه انتثارها من هذا النظام الذى يربطها ، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها . . والله أعلم ماهى النجوم التى يصيبها هذا الحادث. وهل هى طائفة من النجوم القريبة منا . . مجموعتنا الشمسية مثلا . أومجرتنا هذه التى تبلغ مئات الملايين من النجوم . . أم هى النجوم جميعها والتى لايعلم عددها ومواضعها إلا الله. فوراء مانرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءاتلها لانعرفلهاعددا ولانهاية. فهناك نجومسيصيبها الانـكدار كمايقرر هذا الخبر الصادق الذى لا يعلم حقيقته إلا الله . .

* * *

وتسيير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتهـا فى الهواء ، كما جاء فى سورة أخرى: «ويسألونكعنالجبالفقل ينسفها ربى نسفا » .. «وبست الجبال بسا فـكانت هباء منبثا » .. « وسيرت الجبالفـكانت سرابا » .. فـكلها تشير إلىحدث كهذا يصيب الجبال ، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذى يصيب الأرض ، والذى يقول عنه القرآن : « إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجتالأرض أثقالها . . » وكلها أحداث تقع فى ذلك اليوم الطويل . .

* * *

أما قوله : « وإذا العشار عطلت » .. فالعشار هىالنوق الحبالى فى شهرها العاشر . وهى أجود وأثمن مايملـكه العربى . وهى فى حالتها هذه تكون أغلى ماتـكون عنده، لأنها مرجوة الولد واللبن ، قريبة النفع . فنى هذا اليوم الذى تقع فيه هــذه الأهوال تهمل هــذه العشار

وتعطل فلا تصبح لها قيمة ، ولايهتم بشأنها أحد .. والعربى المخاطب ابتداء بهذه الآية لايهمل هـذه العشار ولاينفض يده منها إلا فى حالة يراها أشد مايلم به !

* * *

« وإذا الوحوش حشرت » . . فهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهى الشاردة فى الشعاب ؛ ونسيت مخاوفها بعضها من بعض ، كما نسيت فرائسها ، ومضت هائمة على وجوهها ، لاتأوى إلى جحورها أوبيوتها كما هىعادتهـا ، ولاتنطلق وراء فرائسها كما هو شأنها . فالهول والرعب لايدعان لهذهالوحوش بقية من طباعها وخصائصها ! فـكيف بالناس فى ذلك الهول العصيب ؟ !

* * *

وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه . وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتى يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها (التى تحدثنا عنها فى سورة النازعات) وإما بالزلازل والبراكين التى تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها فى بعض . . وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال فى موضع آخر : « وإذا البحار فجرت » .. فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها . أو تفجير ذراتها على نحو مايقع فى تفجيرالذرة ، وهو أشد هولا . أوعلى أى نحو آخر . وحين يقع هذا فإن نيرانا هائلة لايتصور مداها تنطلق من البحار . فإن تفجير قدر محدود من الذرات فى القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذى عرفته الدنيا ؛ فإذا انفجرت ذرات البحار على هـذا النحو أونحو آخر ، فإن الإدراك البشرى يعجز عن تصور هـذا الهول ؛ وتصور جهنم الهائلة التى تنطلق من هـذه البحار الواسعة !

* * *

وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها .ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة فى مجموعة ، كما قال فى موضع آخر : « وكنتم أزواجا ثلاثة » أى صنوفا ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . أوفى غير ذلك من التشكيلات المتجانسة !

* * *

« وإذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت ؟ » وقد كان من هوان النفس الإنسانية فى الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أوخوف الفقر . وحكى القرآن عن هـذه العادة مايسجل هذه الشناعة على الجاهلية ، التى جاء الإسلام ليرفع العرب من وهدتها ، ويرفع البشرية كلها . فقال فى موضع : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء مابشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء مايحكمون ! » .. وقال فى موضع : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا (أى البنات) ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ؟ » . . وقال فى موضع ثالث : « ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » . .

وكان الوأد يتم فى صورة قاسية . إذ كانت البنت تدفن حية ! وكانوا يفتنون فى هـذا بشتى الطرق . فمنهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تـكون فى السادسة من عمرها ، ثم يقول لأمها : طيبها وزينها حتى أذهب بها إلى أحمائها ! وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فيبلغ بها البئر ، فيقول لها : انظرى فيهـا . ثم يدفعها دفعا ويهيل التراب عليها ! وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة محفورة . فإذا كان المولود بنتا رمت بها فيها وردمتها . وإن كان ابنا قامت به معها ! وبعضهم كان إذا نوى ألا يئد الوليدة أمسكها مهينة إلى أن تقدر على الرعى ، فيلبسها جبة من صوف أوشعر ويرسلها فى البادية ترعى له إبله !

فأما الذين لايئدون البنات ولايرسلونهن للرعى ، فـكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الخسف والبخس . . كانت إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه . ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد فإن أعجبته تزوجها ، لاعبرة برغبتها هى ولا إرادتها ! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها . أوأن تفتدى نفسها منه بمال فى هـذه الحالة أوتلك . . وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح إلامن أراد . إلا أن تفتدى نفسها منه بمـا كان أعطاها . . وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبى فيهم حتى يكبر فيأخذها . . وكان الرجل تـكون اليتيمة فى حجره يلى أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها ! أويزوجها من ابنه الصغير طمعا فى مالها أوجمالها ..

فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حال . حتى جاء الإسلام . يشنع بهذه العادات ويقبحها . وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته . ويجعلها موضوعا من موضوعات الحساب يوم القيامة .

يذكره فى سياق هذا الهول الهائج المائج ، كأنه حدث كونى من هذه الأحداث المظام. ويقول : إن الموءودة ستسأل عن وأدها .. فكيف بوائدها ؟ !

وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبدا ؛ لولا أن تتنزل بها شريعة الله ونهجه فى كرامة البشرية كلها ، وفى تكريم الإنسان : الذكر والأنثى ؛ وفى رفعه إلى المكان اللائق بكائن يحمل نفخة من روح الله العلى الأعلى . فمن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التى جاء بها الإسلام ، لامن أى عامل من عوامل البيئة .

وحين تحقق ميلاد الإنسان الجديد باستمداد القيم التى يتعامل بها من السماء لامن الأرض ، تحققت للمرأة الكرامة ، فلم يعد لضعفها وتكاليف حياتها المادية على أهلها وزن فى تقويمها وتقديرها . لأن هذه ليست من قيم السماء ولاوزن لها فى ميزانها . إنما الوزن للروح الإنسانى الكريم المتصل بالله . وفى هذا يتساوى الذكر والأنثى .

وحين تعد الدلائل على أن هذا الدين من عند الله ، وأن الذى جاء به رسول أوحى إليه . . تعد هذه النقلة فى مكانة المرأة إحدى هذه الدلائل التى لاتخطىء . حيث لم تكن توجد فى البيئة أمارة واحدة ينتظر أن تنتهى بالمرأة إلى هذه الكرامة ؛ ولادافع واحد من دوافع البيئة وأحوالها الاقتصادية بصفة خاصة لولا أن نزل النهج الإلهى ليصنع هذا ابتداء بدافع غير دوافع الأرض كلها ، وغير دوافع البيئة الجاهلية بصفة خاصة . فأنشأ وضع المرأة الجديد إنشاء ، يتعلق بقيمة سماوية محضة وبميزان سماوى محض كذلك !

* * *

« وإذا الصحف نشرت » صحف الأعمال . ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها ، فلاتعود خافية ولاغامضة . وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى . فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها ، ويرجف ويذوب من كشفها ! ثم إذا هى جميعها فى ذلك اليوم منشورة مشهودة !

إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول فى ذلك اليوم ؛ كما أنه سمة من سمات الانقلاب حيث يكشف المخبوء ، ويظهر المستور ، ويفتضح المكنون فى الصدور .

* * *

وهذا التكشف فى خفايا الصدور يقابله فى الكون مشهد مثله : « وإذا السماء كشطت » ..

وأول مايتبادر إلى الذهن من كلة السماء هو هـذا الغطاء المرفوع فوق الرؤوس . وكشطها إزالتها . . فأما كيف يقع هذا وكيف يكون فلا سبيل إلى الجزم بشيء . ولكنا نتصور أن ينظر الإنسان فلا يرى هـذه القبة فوقه نتيجة لأى سبب يغير هـذه الأوضاع الكونية ، التى توجد بها هذه الظاهرة . وهذا يكفى . .

* * *

ثم تجيء الخطوة الأخيرة فى مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب :

« وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت » . .

حيث تتوقد الجحيم وتتسعر ، ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها . . أما أين هى ؟ وكيف تتسعر وتتوقد ؟ وبأى شيء تتوقد ؟ فليس لدينا من ذلك إلا قوله تعالى : « وقودها الناس والحجارة » . وذلك بعد إلقاء أهلها فيها . أما قبل ذلك فالله أعلم بها وبوقودها !

وحيث تقرب الجنة وتظهر لروادها الموعودين بها ، وتبـدو لهم سهولة مدخلها ، ويسر ولوجها . فهى مزلفة مقربة مهيأة . واللفظ كأنما يزحلقها أو يزحلق الأقدام بيسر إليها ! !

* * *

عندما تقع هذه الأحداث الهائلة كلها ، فى كيان الكون ، وفى أحوال الأحياء والأشياء . عندئذ لايبقى لدى النفوس شك فى حقيقة ماعملت ، وما تزودت به لهذا اليوم ، وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب :

« علمت نفس ماأحضرت » . .

كل نفس تعلم ، فى هذا اليوم الهائل مامعها وما لها وما عليها . . تعلم وهـذا الهول يحيط بها ويغمرها . . تعلم وهى لاتملك أن تغير شيئا مما أحضرت ، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه . . تعلم وقد انفصلت عن كل ماهو مألوف لها ، معهود فى حياتها أو تصورها . وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها . وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء ، ولم يبق إلا وجه الله الكريم ، الذى لايتحول ولا يتبدل . . فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم ، فتجده ــ سبحانه ــ عندما يتحول الكون كله ويتبدل !

وبهـذا الإيقاع ينتهى المقطع الأول وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذى يتم فيـه هذا الانقلاب .

* * *

ثم يجىء المقطع الثانى فى السورة يبـدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة ، تختار لها تعبيرات أنيقة . . القسم على طبيعة الوحى ، وصفة الرسول الذى يحمله ، والرسول الذى يتلقاه، وموقف الناس حياله وفق مشيئة الله :

« فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » . .

والخنس الجوارى الكنس . . هى الكواكب التى تخنس أى ترجع فى دورتها الفلكية وتجرى وتختفى . والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء . وهى تجرى وتختبىء فى كناسها وترجع من ناحية أخـرى . فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هـذه الكواكب ، وهناك إيحاء شعورى بالجمـال فى حركتها . فى اختفائها وفى ظهورها . فى توارِيها وفى سفورها . فى جريها وفى عودتها . يقابله إيحاء بالجمال فى شكل اللفظ وجرسه .

« والليل إذا عسعس » . . أى إذا أظلم . ولـكن اللفظ فيـه تلك الإيحاءات كذلك . فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين : عس . عس . وهو يوحى بجرسه بحياة فى هـذا الليل ، وهو يعس فى الظلام بيده أو برجله لايرى ! وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع .

ومثله : « والصبح إذا تنفس » . . بل هو أظهر حيوية ، وأشـد إيحاء . والصبح حى يتنفس . أنفاسه النور والحياة والحركة التى تدب فى كل حى . وأكاد أجزم أن اللغة العربية بـكل مأثوراتها التعبيرية لاتحتوى نظيرا لهـذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تـكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجىء هـذا التعبير فيصور هـذه الحقيقة التى يشعر بها القلب المتفتح .

وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس» . . ثروة شعورية وتعبيرية . فوق مايشير إليه من حقائق كونية . ثروة جميلة بديعة رشيقة ؛تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر، وهى تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر .

***

يلوح بهذه المشاهد الكونية التى يخلع عليها الحياة ؛ ويصل روح الإنسان بأرواحها من خلال التعبير الحى الجميل عنها ؛ لتسكب فى روح الإنسان أسرارها ، وتشى لها بالقدرة التى وراءها ، وتحدثها بصدق الحقيقة الإيمانية التى تدعى إليها . . ثم يذكر هذه الحقيقة فى أنسب الحالات لذكرها واستقبالها :

« إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين » . .

إن هذا القرآن ، وهذا الوصف لليوم الآخر .. لقول رسول كريم .. وهو جبريل الذى حمل هذا القول وأبلغه . . فصار قوله باعتبار تبليغه .

ويذكر صفة هذا الرسول ، الذى اختير لحمل هذا القول وإبلاغه . . « كريم » عند ربه. فربه هو الذى يقول . . « ذى قوة » . . مما يوحى بأن هذا القول يحتاج فى حمله إلى قوة . « عند ذى العرش مكين » . . فى مقامه ومكانته . . وعند من ؟ عند ذى العرش العلى الأعلى . « مطاع ثم » هناك فى الملأ الأعلى . « أمين » . . على مايحمل وما يبلغ . .

وهذه الصفات فى مجموعها توحى بكرامة هذا القول وضخامته وسموه كذلك وارتفاعه . كما توحى بعناية الله سبحانه بالإنسان ، حتى ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة ليحمل الرسالة إليه ، ويبلغ الوحى إلى النبى المختار منه . . وهى عناية تخجل هذا الكائن ، الذى لايساوى فى ملك الله شيئا ، لولا أن الله ـ سبحانه ـ يتفضل عليه فيكرمه هذه الكرامة !

***

فهذه صفة الرسول الذى حمل القول وأداه ، فأما الرسول الذى حمله إليكم فهو «صاحبكم » .. عرفتموه حق المعرفة عمرا طويلا. فمالكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ماتقولون . وتذهبون فى أمره المذاهب ، وهو« صاحبكم » الذى لاتجهلون . وهو الأمين على الغيب الذى يحدثكم عنه عن يقين :

« وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين » . .

ولقد قالوا عن النبي الكريم الذى يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون رجاحة عقله ، وصدقه وأمانته وتثبته ، قالوا عنه : إنه مجنون . وإن شيطانا يتنزل عليه بما يقول . قال بعضهم هذا كيدا له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار . وقاله بعضهم عجبا ودهشة من هذا القول الذى لايقوله البشر فيما يألفون ويعهدون . وتمشيا مع ظنهم أن لكل شاعر شيطانا يأتيه بالقول الفريد . وأن لكل كاهن شيطانا يأتيه بالغيب البعيد . وأن الشيطان يمس بعض الناس فينطق على لسانهم بالقول الغريب ! وتركوا التعليل الوحيد الصادق ، وهو أنه وحى وتنزيل من رب العالمين .

فجاء القرآن يحدثهم فى هذا المقطع من السورة عن جمال الكون البديع ، وحيوية مشاهده الجميلة . ليوحى إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة ، التى أنشأت ذلك الجمال . على غير مثال . وليحدثهم بصفة الرسول الذى حمله ، والرسول الذى بلغه . وهو صاحبهم الذى عرفوه . غير مجنون . والذى رأى الرسول الكريم ـ جبريل ـ حق الرؤية ، بالأفق المبين الواضح الذى تتم فيه الرؤية عن يقين . وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمؤتمن على الغيب ، لاتظن به الظنون فى خبره الذى يرويه عنه ، فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين . « وما هو بقول شيطان رجيم » فالشياطين لاتوحى بهذا النهج القويم . ويسألهم مستنكرا : « فأين تذهبون ؟ » . . أين تذهبون فى حكمكم وقولكم ؟ أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم !

« إن هو إلا ذكر للعالمين » ذكر يذكرهم بحقيقة وجودهم ، وحقيقة نشأتهم ، وحقيقة الكون من حولهم . . « للعالمين » . . فهو دعوة عالمية من أول مرحلة . والدعوة فى مكة محاصرة مطاردة . كما تشهد مثل هذه النصوص المكية . .

* * *

وأمام هذا البيان الموحى الدقيق يذكرهم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد . وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم ، وقد منحهم الله هذا التيسير :

« لمن شاء منكم أن يستقيم » . .

أن يستقيم على هدى الله ، فى الطريق إليه ، بعد هذا البيان ، الذى يكشف كل شبهة ، وينفى كل ريبة ، ويسقط كل عذر . ويوحى إلى القلب السليم بالطريق المستقيم . فمن لم يستقم فهو مسؤول عن انحرافه . فقد كان أمامه أن يستقيم .

والواقع أن دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى الأنفس والآفاق من القوة والعمق والثقل بحيث يصعب على القلب التفلت من ضغطها إلا بجهد متعمد . وبخاصة حين يسمع التوجيه إليها بأسلوب القرآن الموحى الموقظ . وما ينحرف عن طريق الله — بعد ذلك — إلا من يريد أن ينحرف . فى غير عذر ولا مبرر !

* * *

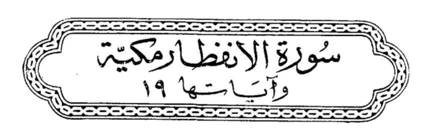
فإذا سجل عليهم إمكان الهدى ،ويسر الاستقامة ،عاد لتقرير الحقيقة الكبرى وراء مشيئتهم - حقيقة أن المشيئة الفاعلة من وراء كل شىء هى مشيئة الله سبحانه :

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » . .

وذلك كى لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى ، التى يرجع إليها كل أمر . فإعطاؤهم حرية الاختيار ، ويسر الاهتداء ، إنما يرجع إلى تلك المشيئة . المحيطة بكل شىء كان أو يكون !

وهذه النصوص التى يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلاق ، يراد بها تصحيح التصور الإيمانى وشموله للحقيقة الكبيرة: حقيقة أن كل شىء فى هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله . وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير . شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون ،والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون . فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان . .

ولا بد من إقرار هذه الحقيقة فى تصور المؤمنين ، ليدركوا ما هو الحق لذاته . وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق ، ويرتبطون بها فى كل ما يأخذون وما يدعون فى الطريق !



بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ .

« يَاأَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ .

« كَلَّا ! بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ .

« إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ .

« وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ، وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ »..

تتحدث هذه السورة القصيرة عن الانقلاب الكونى الذى تتحدث عنه سورة التكوير . ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى ،وسمتا خاصا بها ،وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوّف بالقلب البشرى فيها ؛ وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد. هادىء عميق . لمسات كأنها عتاب . وإن كان فى طياته وعيد !

ومن ثم فإنها تختصر فى مشاهد الانقلاب ، فلا تكون هى طابع السورة الغالب — كما هو الشأن فى سورة التكوير — لأن جو العتاب أهدأ ، وإيقاع العتاب أبطأ . . وكذلك إيقاع السورة الموسيقى . فهو يحمل هذا الطابع . فيتم التناسق فى شخصية السورة والتوافق !

إنها تتحدث فى المقطع الأول منها عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار وبعثرة القبور كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت ، فى ذلك اليوم الخطير . .

وفى المقطع الثانى تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد ، لهذا الإنسان الذى يتلقى من ربه فيوض النعمة فى ذاته وخلقته ، ولكنه لايعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة : « ياأيها الإنسان . ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ؟ فى أى صورة ماشاء ركبك » . .

وفى المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار . فهى التكذيب بالدين — أى بالحساب — وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود . ومن ثم يؤكد هذا الحساب توكيدا ،ويؤكد عاقبته وجزاءه المحتوم : « كلا . بل تكذبون بالدين .وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين . يعلمون ماتفعلون . إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين » . .

فأما المقطع الأخير ، فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ، وتفرد الله سبحانه بأمره الجليل :« وما أدراك مايوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » . .

فالسورة فى مجموعها حلقة فى سلسلة الإيقاعات والطرقات التى يتولاها هذا الجزء كله بشتى الطرق والأساليب .

* * *

« إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ماقدمت وأخرت » . .

وقد تحدثنا فى السورة الماضية عن الإيحاء الذى يتسرب فى الحس من رؤية هذا الكون تتناوله يد القدرة بالتغيير ، وتهزه هزة الانقلاب المثير ، فلا يبقى شىء على حاله فى هذا الكون الكبير . وقلنا : إن هذا الإيحاء يتجه إلى خلع النفس من كل ماتركن إليه فى هذا الوجود ،

إلا الله سبحانه خالق هـذا الوجود ، البـاقى بعد أن يفنى كل موجود . والاتجاه بالقلب إلى الحقيقة الوحيـدة الثابتة الدائمة التى لاتحول ولا تزول ، ليجد عنـدها الأمان والاستقرار ، فى مواجهة الانقلاب والاضطراب والزلزلة والانهيار ، فى كل ما كان يعهده ثابتا مستقرا منتظما انتظاما يوحى بالخلود ! ولا خلود إلا للخالق المعبود !

ويذكر هنا من مظاهر الانقلاب انفطار السماء .. أى انشقاقها . وقد ذكر انشقاق السماء فى مواضع أخرى : قال فى سورة الرحمان : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .. وقال فى سورة الحاقة : « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . . وقال فى سورة الانشقاق : « إذا السماء انشقت . . . » . . فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب . أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به ، كما يصعب القـول عن هيئة الانشقاق التى تـكون . . وكل ما يستقر فى الحس هو مشهد التغير العنيف فى هيئة الـكون المنظور ، وانتهاء نظامه هـذا المعهود ، وانفراط عقـده ، الذى يمسك به فى هـذا النظام الدقيق . .

ويشارك فى تـكوين هذا المشهد مايذكر عن انتثار الـكواكب . بعد تماسكها هذا الذى تجرى معه فى أفلاكها بسرعات هائلة مرعبـة ، وهى ممسكة فى داخل مداراتها لاتتعداها ، ولا تهيم على وجهها فى هذا الفضاء الذى لايعلم أحد له نهاية . ولو انتثرت — كما سيقع لها يوم ينتهى أجلها — وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق — غير المنظور — الذى يشدها ويحفظها ، لذهبت فى الفضاء بددا ، كما تذهب الذرة التى تنفلت من عقالها !

وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار . كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه : الأكسوجين والهيدروجين ؛ فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتـكوين البحار منهما . كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين — كما يقع فى تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم . . فيـكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبر هذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة ! . . أو أن يكون بهيئة أخرى غير مايعرف البشر على كل حال . . إنمـا هو الهول الذى لم تعهده أعصاب البشر فى حال من الأحوال !

وبعثرة القبور . . إما أن تـكون بسبب من هـذه الأحداث السابقة . وإما أن تـكون

حادثا بذاته يقع فى ذلك اليوم الطويل ، الكثير المشاهد والأحداث . فتخرج منها الأجساد التى أعاد الله إنشاءها ـ كما أنشأها أول مرة ـ لتلاقى حسابها وجزاءها . .

يؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث : « علمت نفس ماقدمت وأخرت » .. أى مافعلته أولا وما فعلته أخيرا . أومافعلته فى الدنيا ، وماتركته وراءها من آثار فعلها . أومااستمتعت به فى الدنيا وحدها ، وماادخرته للآخرة بعدها .

على أية حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحبا لتلك الأهوال العظام . وواحدا منها مروّعاً لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها !

والتعبير القرآنى الفريد يقول : « علمت نفس » .. وهو يفيد من جهة المعنى : كل نفس . ولكنه أرشق وأوقع . . كما أن الأمر لايقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت . فلهذا العلم وقعه العنيف الذى يشبه عنف تلك المشاهد الكونية المنقلبة . والتعبير يلقى هذا الظل دون أن يذكره نصا . فإذا هو أرشق كذلك وأوقع !

* * *

وبعد هذا المطلع الموقظ المنبه للحواس والمشاعر والعقول والضمائر ، يلتفت إلى واقع الإنسان الحاضر ، فإذا هو غافل لاه سادر . . هنا يلمس قلبه لمسة فيها عتاب رضىّ ، وفيها وعيد خفى ، وفيها تذكير بنعمة الله الأولى عليه : نعمة خلقه فى هذه الصورة السوية على حين يملك ربه أن يركبه فى أى صورة تتجه إليها مشيئته . ولكنه اختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . . وهو لايشكر ولايقدر :

« ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك » . .

إن هذا الخطاب : « ياأيها الإنسان » ينادى فى الإنسان أكرم مافى كيانه ، وهو « إنسانيته » التى بها تميز عن سائر الأحياء ؛ وارتفع إلى أكرم مكان ؛ وتجلى فيها إكرام الله له ، وكرمه الفائض عليه .

ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل : « ماغرك بربك الكريم ؟ » ياأيها الإنسان الذى تكرم عليك ربك ، راعيك ومربيك ، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة . .ياأيها الإنسان ماالذى غرك بربك ، فجعلك تقصر فى حقه ، وتتهاون فى أمره ، ويسوء أدبك فى جانبه ؟وهو

ربك الكريم ، الذى أغدق عليك من كرمه وفضله وبره ؛ ومن هذا الإغداق إنسانيتك التى تميزك عن سائر خلقه ، والتى تميز بها وتعقل وتدرك ماينبغى ومالاينبغى فى جانبه ؟

ثم يفصل شيئا من هـذا الكرم الإلهى ، الذى أجمله فى النداء الموحى العميق الدلالة ، المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة فى التعبير . يفصل شيئا من هذا الكرم الإلهى المغدق على الإنسان المتمثل فى إنسانيته التى ناداه بها فى صدر الآية . فيشير فى هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله ؛ وهو القادر على أن يركبه فى أى صورة وفق مشيئته . فاختياره هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده ، ومن فضله وحده ، ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذى لايشكر ولايقدر . بل يغتر ويسدر !

« يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ؟ » . .

إنه خطاب يهز كل ذرة فى كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته ، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه، وربه الكريم يعاتبه هـذا العتاب الجليل ، ويذكره هذا الجميل ، بينما هو سادر فى التقصير ، سيء الأدب فى حق مولاه الذى خلقه فسواه فعدله . .

إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم ، الذى أكرمه بهذه الخلقة ، تفضلا منه ورعاية ومنة . فقدكان قادرا أن يركبه فى أية صورة أخرى يشاؤها . فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . .

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين ،سوى الخلقة ، معتدل التصميم، وإن عجائب الإبداع فى خلقه لأضخم من إدراكه هو ، وأعجب من كل مايراه حوله .

وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه العقلى ، وفى تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء !

وهناك مؤلفات كاملة فى وصف كمال التكوين الإنسانى العضوى ودقته وإحكامه وليس هنا مجال التوسع الكامل فى عرض عجائب هـذا التكوين . ولكننا نكتفى بالإشارة إلى بعضها . .

هـذه الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدى . . الجهاز العظمى . والجهاز العضلى . والجهاز الجلدى . والجهاز الهضمى . والجهاز الدموى . والجهاز التنفسى والجهاز التناسلى .

والجهاز اللمفاوى . والجهاز العصبى . والجهاز البولى . وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر . . كل منها عجيبة لاتقاس إليها كل العجائب الصناعيـة التى يقف الإنسان مدهوشا أمامها . وينسى عجائب ذاته وهى أضخم وأعمق وأدق بما لايقاس !

« تقول مجلة العلوم الإنجليزية : إن يد الإنسان فى مقدمة العجائب الطبيعية الفـذة ؛ وإنه من الصعب جدا ــ بل من المستحيل ــ أن تبتـكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التـكيف . فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تثبته فى الوضع الملائم للقراءة . وهذه اليد هى التى تصحح وضعه تلقائيا . وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة ،وتضغط عليها بالدرجة التى تقلبها بها ،ثم يزول الضغط بقلب الورقة .واليد تمسك القلم وتـكتب به . وتستعمل كافة الآلات التى تلزم الإنسان من ملعقة ، إلى سكين ، إلى آلة الـكتابة . وتفتح النوافذ وتغلقها ، وتحمل كل ما يريده الإنسان . . واليـدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة وتسع عشرة مجموعة من العضلات لـكل منهما (١) »

و « إن جزءاً من أذن الإنسان (الأذن الوسطى) هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ ، فى الحجم والشكل ، ويمـكن القول بأن هـذه الحنيات تشبه آلة موسيقية . ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ ، بشكل ما ، كل وقع صوت أو ضجة ، من قصف الرعدإلى حفيف الشجر .فضلا عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية فى الأركسترا ووحدتها المنسجمة (٢) ».

« ومركز حاسة الإبصار فىالعين التى تحتوى على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء وهى أطراف الأعصاب ، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهـداب الذى يقيها ليلا ونهارا ، والذى تعتبر حركته لاإرادية ، الذى يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة، كما يـكسر من حدة الشمس بما تلقى الأهـداب على العين من ظلال . وحركة الجفن علاوة على هـذه الوقاية تمنع جفاف العين ، أما السائل المحيط بالعين والذى يعرف باسم الدموع ، فهـو أقوى مطهر . . . (٣) »

---

(١) عن كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل.

(٢) عن كتاب : العلم يدعو إلى الإيمان .

(٣) عن كتاب : الله والعلم الحديث .

« وجهاز الذوق فى الإنسان هو اللسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة فى حلمات غشائه المخاطى . ولتلك الحلمات أشكال مختلفة، فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ويغذى الحلمات فروع من العصب اللسانى البلعومى ، والعصب الذوقى . وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية ، فينتقل الأثر إلى المخ .وهذا الجهاز موجود فى أول الفم،حتى يمكن للإنسان أن يلفظ مايحس أنه ضار به ، وبه يحس المرء المرارة والحلاوة،والبرودة والسخونة ،والحامض والملح ، واللاذع ونحوه . ويحتوى اللسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة ، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب . فكم عدد الأعصاب؟وماحجمها ؟ وكيف تعمل منفردة، وتتجمع بالإحساس عند المخ » ؟ (١) .

« ويتكون الجهاز العصبى الذى يسيطر على الجسم سيطرة تامة من شعيرات دقيقة تمر فى كافة أنحاء الجسم . وتتصل بغيرها أكبر منها . وهذه بالجهاز المركزى العصبى . فإذا ماتأثر جزء من أجزاء الجسم ، ولوكان ذلك لتغير بسيط فى درجة الحرارة بالجو المحيط ، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة فى الجسم . وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف . وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات فى الأعصاب مئة متر فى الثانية » (٢) .

« ونحن إذا انظرنا إلى الهضم على أنه عملية فى معمل كيماوى ، وإلى الطعام الذى نأكله على أنه مواد غفل ، فإننا ندرك توا أنه عملية عجيبة . إذ تهضم تقريبا كل شىء يؤكل ماعدا المعدة نفسها !

« فأولا نضع فى هذا المعمل أنواعا من الطعام كمادة غفل دون أى مراعاة للمعمل نفسه ، أو تفكير فى كيفية معالجة كيمياء الهضم له ! فنحن نأكل شرائح اللحم والكرنب والحنطة والسمك المقلى ، وندفعها بأى قدر من الماء ..

« ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التى هى ذات فائدة ، وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات ، وتعيد تكوين الباقى إلى بروتينات جديدة ، تصبح غذاء لمختلف الخلايا . وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية ، وتعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية ، وبإمكان إنتاج

---

(١) و (٢) عن كتاب : الله والعلم الحديث .

الهرمونات ، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة فى مقادير منتظمة ، ومستمدة لمواجهة كل ضرورة . وهى تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى ، للقاء كل حالة طارئة ، مثل الجوع ، وتفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الإنسان أوتمليله . إننا نصب هـذه الأنواع التى لاتحصى من المواد فى هذا المعمل الكماوى ، بصرف النظر كلية تقريباعما نتناوله ،معتمدين على مانحسبه عملية ذاتية (أوتوماتيكية) لإبقائنا على الحياة . وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد ، تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا ، التى تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشرى كله على وجه الأرض . ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمرا ، وألا يورد سوى تلك المواد التى تحتاج إليها تلك الخلية المعينة لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان ، كما تتلقاها الخلية المختصة !

« فها هنا إذن معمل كماوى ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أى معمل ابتكره ذكاء الإنسان ! وهاهنا نظام للتوريد أعظم من أى نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ! ويتم كل شىء فيه بمنتهى النظام ! » [1] .

وكل جهاز من أجهزة الإنسان الأخرى يقال فيه الشىء الكثير . ولكن هـذه الأجهزة ـ على إعجازها الواضح ـ قد يشاركه فيها الحيوان فى صورة من الصور . إنما تبقى له هو خصائصه العقلية والروحية الفريدة التى هى موضع الامتنان فى هـذه السورة . بصفة خاصة : « الذى خلقك فسواك فعدلك » . بعد ندائه : « ياأيها الإنسان » ..

هذا الإدراك العقلى الخاص ، الذى لاندرى كنهه . إذ أن العقل هو أداتنا لإدراك ماندرك. والعقل لايدرك ذاته ولا يدرك كيف يدرك ! !

هـذه المدركات . . نفرض أنها كلها تصل إلى المخ عن طريق الجهاز العصبى الدقيق . ولكن أين يخزنها ! إنه لو كان هذا المخ شريطا مسجلا لاحتاج الإنسان فى خلال الستين عاما التى هى متوسط عمـره إلى آلاف الملايين من الأمتار ليسجل عليها هـذا الحشد من الصور والكلمات والمعانى والمشاعر والتأثرات ، لكى يذكرها بعـد ذلك ، كما يذكرها فعلا بعـد عشرات السنين !

ثم كيف يؤلف بين الكلمات المفـردة والمعانى المفردة ، والحوادث المفـردة ، والصور

(١) عن كتاب : العلم يدعو إلى الإيمان .

المفردة، ليجعل منها ثقافة مجمعة. ثم ليرتقى من المعلومات إلى العلم ؟ ومن المدركات إلى الإدراك؟ ومن التجارب إلى المعرفة ؟

هـذه هى إحدى خصائص الإنسان المميزة . . وهى مع هـذا ليست أكبر خصائصه ، وليست أعلى مميزاته . فهنالك ذلك القبس العجيب من روح الله . . هنالك الروح الإنسانى الخاص ، الذى يصل هـذا الكائن بجمال الوجود ، وجمال خالق الوجـود ؛ ويمنحه تلك اللحظات المجنحة الوضيئة من الاتصال بالمطلق الذى ليس له حدود . بعـد الاتصال بومضات الجمال فى هذا الوجود .

هـذا الروح الذى لايعرف الإنسان كنهه ـ وهل هو يعلم ماهو أدنى وهو إدراكه للمدركات الحسية ؟ ! ـ والذى يمتعه بومضات من الفرح والسعادة العلوية حتى وهو على هـذه الأرض . ويصله بالملأ الأعلى ، ويهيئه للحياة المرسومة بحياة الجنان والخلود . وللنظر إلى الجمال الإلهى فى ذلك العالم السعيد !

هـذا الروح هو هبة الله الكبرى لهذا الإنسان . وهو الذى به صار إنسانا . وهو الذى يخاطبه باسمه : « يأيها الإنسان » .. ويعاتبه ذلك العتاب المخجل ! «ماغرك بربك الكريم ؟ » هذا العتاب المباشر من الله للإنسان . حيث يناديه ـ سبحانه ـ فيقف أمامه مقصرا مذنبا مغترا غير مقدر لجلال الله ،ولا متأدب فى جنابه .. ثم يواجهه بالتذكير بالنعمة الكبرى .ثم بالتقصير وسوء الأدب والغرور !

إنه عتاب مذيب . . حين يتصور « الإنسان » حقيقة مصدره ، وحقيقة مخبره ، وحقيقة الموقف الذى يقفه بين يدى ربه ، وهو يناديه ذلك النداء ، ثم يعاتبه هذا العتاب :

« يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك » . .

* * *

ثم يكشف عن علة الغرور والتقصير ـ وهى التكذيب بيوم الحساب ـ ويقرر حقيقة الحساب ، واختلاف الجزاء ، فى توكيد وتشديد :

« كلا ! بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ماتفعلون . إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين » . .

وكلا كلمة ردع وزجر عما هم فيه . وبل كلمة إضراب عما مضى من الحـديث . ودخول فى لون من القول جـديد . لون البيان والتقرير والتوكيد . وهو غير العتاب والتـذكير والتصوير . .

« كلا . بل تـكذبون بالدين » . . تـكذبون بالحساب والمؤاخذة والجزاء . وهـذه هى علة الغرور ، وعلة التقصير . فما يـكذب القلب بالحساب والجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة . وقد ترتفع القلوب وتشف ، فتطيع ربها وتعبده حبا فيه ، لاخوفا من عقابه ، ولا طمعا فى ثوابه . ولـكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه ، وتتطلع إليه ، لتلقى ربها الذى تحبه وتشتاق لقاءه وتتطلع إليه . فأما حين يـكذب الإنسان تـكذيبا بهذا اليوم ، فلن يشتمل على أدب ولا طاعة ولا نور . ولن يحيا فيه قلب ، ولن يستيقظ فيه ضمير .

تـكذبون بيوم الدين . . وأنتم صائرون إليه ، وكل ماعملتم محسوب عليـكم فيه . لايضيع منـه شىء ، ولا ينسى منـه شىء : « وإن عليـكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » . .

وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالإنسان ـ من الملائـكة ـ التى ترافقه ، وتراقبه ، وتحصى عليه كل ما يصدر عنه . . ونحن لاندرى كيف يقع هـذا كله ، ولسنا بمـكلفين أن نعرف كيفيته . فالله يعلم أننا لم نوهب الاستعداد لإدراكها . وأنه لاخير لنا فى إدراكها . لأنها غير داخلة فى وظيفتنا وفى غاية وجودنا . فلا ضرورة للخوض فما وراء المدى الذى كشفه الله لنا من هذا الغيب . ويـكفى أن يشعر القلب البشرى أنه غير متروك سدى . وأن عليه حفظة كراما كاتبين يعلمون ما يفعله ، ليرتعش ويستيقظ ، ويتأدب ! وهذا هو المقصود !

ولما كان جو السورة جو كرم وكرامة ، فإنه يذكر من صفة الحافظين كونهم . . « كراما » . . ليستجيش فى القلوب إحساس الخجل والتجمل بحضرة هؤلاء الـكرام . فإن الإنسان ليحتشم ويستحي وهو بمحضر الـكرام من الناس أن يسف أو يتبذل فى لفظ أو حركة أو تصرف . . فـكيف به حين يشعر ويتصور أنه فى كل لحظاته وفى كل حالاته فى حضرة حفظة من الملائـكة « كرام » لايليق أن يطلعوا منه إلا على كل كريم من الخصال والفعال ؟!

إن القرآن ليستجيش فى القلب البشرى أرفع المشاعر بإقرار هـذه الحقيقة فيه بهذا التصور الواقعى الحى القريب إلى الإدراك المألوف . .

ثم يقرر مصير الأبرار ومصير الفجار بعد الحساب ، القائم على مايكتبه الكرام الكاتبون :

« إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين . وماهم عنها بغائبين » . .

فهو مصير مؤكد ، وعاقبة مقررة . أن ينتهى الأبرار إلى النعيم . وأن ينتهى الفجار إلى الجحيم . والبرّ هو الذى يأتى أعمال البرّ حتى تصبح له عادة وصفة ملازمة . وأعمال البر هى كل خير على الإطلاق . والصفة تتناسق فى ظلها مع الكرم والإنسانية . كما أن الصفة التى تقابلها : « الفجار » فيها سوء الأدب والتوقح فى مقارفة الإثم والمعصية . والجحيم هى كفء للفجور ! ثم يزيد حالهم فيها ظهورا . . « يصلونها يوم الدين » .. ويزيدها توكيدا وتقريرا : « وماهم عنها بغائبين » لافرارا ابتداء . ولاخلاصا بعد الوقوع فيها ولو إلى حين! فيتم التقابل بين الأبرار والفجار . وبين النعيم والجحيم . مع زيادة الإيضاح والتقرير لحالة رواد الجحيم !

* * *

ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب ، فإنه يعود إليه بعد تقرير مايقع فيه . يعود إليه ليقرر حقيقته الذاتية فى تضخيم وتهويل بالتجهيل وبما يصيب النفوس فيه من عجز كامل وتجرد من كل شبهة فى عون أو تعاون . وليقرر تفرد الله بالأمر فى ذلك اليوم العصيب :

« وماأدراك مايوم الدين ؟ ثم ماأدراك مايوم الدين ؟ يوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » . .

والسؤال للتجهيل مألوف فى التعبير القرآنى . وهو يوقع فى الحس أن الأمر أعظم جدا وأهول جدا من أن يحيط به إدراك البشر المحدود . فهو فوق كل تصور وفوق كل توقع وفوق كل مألوف .

وتكرار السؤال يزيد فى الاستهوال . .

ثم يجىء البيان بما يتناسق مع هذا التصوير : « يوم لاتملك نفس لنفس شيئا » . . فهو العجز الشامل . وهو الشلل الكامل . وهو الانحسار والانكماش والانفصال بين النفوس المشغولة بهمها وحملها عن كل من تعرف من النفوس ! « والأمر يومئذ لله ».. يتفرد به سبحانه . وهو المتفرد بالأمر فى الدنيا والآخرة . ولكن فى هذا اليوم ـ يوم الدين ـ تتجلى هذه

الحقيقة التى قد يغفل عنها فى الدنيا الغافلون المغرورون . فلا يعود بها خفاء ، ولا تغيب عن مخدوع ولامفتون !

* * *

ويتلاقى هذا الهول الصامت الواجم الجليل فى نهاية السورة ، مع ذلك الهول المتحرك الهائج المائج فى مطلعها . وينحصر الحس بين الهولين .. وكلاهما مذهل مهيب رعيب ! وبينهما ذلك العتاب الجليل المخجل المذيب !

سورة المطففين مكية
وآياتها ٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ! * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ؟ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟

« كَلَّا ! إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ؟ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ! * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا ! بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا ! إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ: هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

« كَلَّا ! إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ .

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا : إِنَّ هَؤُلَاءِ

لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ؟ » . .

هذه السورة تصور قطاعا من الواقع العملى الذى كانت الدعوة تواجهه فى مكة ـ إلى جانب ما كانت تستهدفه من إيقاظ القلوب ، وهز المشاعر ، وتوجيهها إلى هذا الحدث الجديد فى حياة العرب وفى حياة الإنسانية ، وهو الرسالة السماوية للأرض ، وما تتضمنه من تصور جديد شامل محيط .

هـذا القطاع من الواقع العملى تصوره السورة فى أولها ، وهى تتهدد المطففين بالويل فى اليوم العظيم ، « يوم يقوم الناس لرب العالمين » . . كما تصوره فى ختامها وهى تصف سوء أدب الذين أجرموا مع الذين آمنوا ، وتغامزهم عليهم ، وضحكهم منهم ، وقولهم عنهم : « إن هؤلاء لضالون ! »

وهذا إلى جانب ما تعرضه من حال الفجار وحال الأبرار ؛ ومصير هؤلاء وهؤلاء فى ذلك اليوم العظيم .

وهى تتألف من أربعـة مقاطع . . يبـدأ المقطع الأول منها بإعلان الحـرب على المطففين : « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ؛ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » . .

ويتحدث المقطع الثانى عن الفجار فى شدة وردع وزجر ، وتهديد بالويل والهلاك ، ودمغ بالإثم والاعتداء ، وبيان لسبب هذا العمى وعلة هذا الانطماس ، وتصوير لجزائهم يوم القيامة ، وعـذابهم بالحجاب عن ربهـم ، كما حجبت الآثام فى الأرض قلوبهم ، ثم بالجحيم مع الترذيل والتأنيب : « كلا . إن كتاب الفجار لفى سجين . وما أدراك ماسجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين ! الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهـم لصالو الجحيم . ثم يقال : هـذا الذى كنتم به تكذبون » . .

والمقطع الثالث يعرض الصفحة المقابلة . صفحة الأبرار . ورفعة مقامهم .والنعيم المقرر لهم. ونضرته التي تفيض على وجوههم . والرحيق الذى يشربون وهم على الأرائك ينظرون .. وهى صفحة ناعمة وضيئة : « كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين . وما أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم ، يشهده المقربون . إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك ــ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون » . .

والمقطع الأخير يصف ماكان الأبرار يلاقونه فى عالم الغرور الباطل من الفجار من إيذاء وسخرية وسوء أدب . ليضع فى مقابله ما آل إليه أمر الأبرار وأمر الفجار فى عالم الحقيقة الدائم الطويل :

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون . هل ثوّب الكفار ماكانوا يفعلون ؟ » .

والسورة فى عمومها تمثل جانبا من بيئة الدعوة ، كما تمثل جانبا من أسلوب الدعوة فى مواجهة واقع البيئة ، وواقع النفس البشرية . . وهذا ماسنحاول الكشف عنه فى عرضنا للسورة بالتفصيل . .

* * *

« ويل للمطففين : الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أووزنوهم يخسرون. ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم : يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » . .

تبدأ السورة بالحرب يعلنها الله على المطففين : « ويل للمطففين » . . والويل : الهلاك . وسواء كان المراد هو تقرير أن هذا أمر مقضى ، أوأن هذا دعاء . فهو فى الحالين واحد فالدعاء من الله قرار . .

وتفسر الآيتان التاليتان معنى المطففين . فهم : « الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » . . فهم الذين يتقاضون بضاعتهم وافية إذاكانوا شراة . ويعطونها للناس ناقصة إذاكانوا بائعين . .

ثم تعجب الآيات الثلاثة التالية من أمر المطففين ، الذين يتصرفون كأنه ليس هناك حساب

على مايكسبون فى الحياة الدنيا ؟ وكأن ليس هناك موقف جامع بين يدى الله فى يوم عظيم يتم فيه الحساب والجزاء أمام العالمين : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » . .

والتصدى لشأن المطففين بهذا الأسلوب فى سورة مكية أمر يلفت النظر . فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقيدة الكلية : كتقرير وحدانية الله ، وانطلاق مشيئته ، وهيمنته على الكون والناس .. وكحقيقةالوحىوالنبوة .. وكحقيقةالآخرةوالحساب والجزاء . مع العناية بتكوين الحاسة الأخلاقية فى عمومها ، وربطها بأصول العقيدة . أما التصدى لمسألة بذاتها من مسائل الأخلاق ـ كمسألة التطفيف فى الكيل والميزان ـ والمعاملات بصفة عامة ، فأمر جاء متأخرا فى السورة المدنية عند التصدى لتنظيم حياة المجتمع فى ظل الدولة الإسلامية ، وفق المنهج الإسلامى ، الشامل للحياة . .

ومن ثم فإن التصدى لهذا الأمر بذاته فى هذه السورة المكية أمر يستحق الانتباه . وهو يشى بعدة دلالات متنوعة ، تكمن وراء هذه الآيات القصار . .

إنه يدل أولا على أن الإسلام كان يواجه فى البيئة المكية حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء ، الذين كانوا فى الوقت ذاته هم أصحاب التجارات الواسعة ، التى تكاد تكون احتكارا . فقد كانت هنالك أموال ضخمة فى أيدى هؤلاء الكبراء يتجرون بها عن طريق القوافل فى رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام . كما افتتحوا أسواقا موسمية كسوق عكاظ فى موسم الحج ، يقومون فيها بالصفقات ويتناشدون فيها الأشعار !

والنصوص القرآنية هنا تشى بأن المطففين الذين يتهددهم الله بالويل ، ويعلن عليهم هذه الحرب ، كانوا من طبقة الكبراء ذوى النفوذ ، الذى يملكون إكراه الناس على مايريدون . فهم يكتالون « على الناس » . . لامن الناس . فكأن لهم سلطانا على الناس بسبب من الأسباب ، يجعلهم يستوفون المكيال والميزان منهم استيفاء وقسرا . وليس المقصود هو أنهم يستوفون حقا . وإلا فليس فى هذا مايستحق إعلان الحرب عليهم . إنما المفهوم أنهم يحصلون بالقسر على أكثر من حقهم ، ويستوفون مايريدون إجبارا . فإذا كالوا للناس أو وزنوا كان لهم من السلطان مايجعلهم ينقصون حق الناس، دون أن يستطيع هؤلاء منهم نصفةولا استيفاء حق . . ويستوى أن يكون هذا بسلطان الرياسة والجاه القبلى . أو بسلطان المال وحاجة

الناس لما فى أيديهم منه ؛ واحتكارهم للتجارة حتى يضطر الناس إلى قبول هـذا الجور منهم ؛ كما يقع حتى الآن فى الأسواق . . فقد كانت هناك حالة من التطفيف صارخة استحقت هـذه اللفتة المبكرة .

كما أن هذه اللفتة المبكرة فى البيئة المكية تشى بطبيعة هـذا الدين ؛ وشمول منهجه للحياة الواقعية وشؤونها العملية ؛ وإقامتها على الأساس الأخلاقى العميق الأصيل فى طبيعة هـذا المنهج الإلهى القويم . فقد كره هذه الحالة الصارخة من الظلم والانحراف الأخلاقى فى التعامل . وهو لم يتسلم بعد زمام الحياة الاجتماعية، لينظمها وفق شريعته بقوة القانون وسلطان الدولة. وأرسل هـذه الصيحة المدوية بالحرب والويل على المطففين . وهم يومئذ سادة مكة ، أصحـاب السلطان المهين — لا على أرواح الناس ومشاعرهم عن طريق العقيدة الوثنية فحسب ، بل كذلك على اقتصادياتهم وشؤون معاشهم . ورفع صوته عاليا فى وجه الغبن والبخس الواقع على الناس وهم جمهرة الشعب المستغلين لكبرائه المتجرين بأرزاقه ، المرابين المحتكرين ، المسيطرين فى الوقت ذاته على الجماهير بأوهام الدين! فكان الإسلام بهذه الصيحة المنبعثة من ذاته ومن منهجه السماوى موقظا للجماهير المستغلة. ولم يكن قط مخدرا لها حتى وهو محاصر فى مكة ، بسطوة المتجبرين ، المسيطرين على المجتمع بالمال والجاه والدين !

ومن ثم ندرك طرفا من الأسباب الحقيقية التى جعلت كبراء قريش يقفون فى وجه الدعوة الإسلامية هذه الوقفة العنيدة . فهم كانوا يدركون — ولا ريب — أن هـذا الأمر الجديد الذى جاءهم به محمد — صلى الله عليه وسلم — ليس مجرد عقيدة تكمن فى الضمير ؛ولا تتطلب منهم إلا شهادة منطوقة ، بأن لا إله إلا الله وأن محمـدا رسول الله . وصلاة يقيمونها لله بلا أصنام ولا أوثان . . كلا . لقد كانوا يدركون أن هذه العقيدة تعنى منهجا يحطم كل أساس الجاهليـة التى تقوم عليها أوضاعهم ومصالحهم ومراكزهم . وأن طبيعة هـذا المنهج لا تقبل مثنوية ولا تلتئم مع عنصر أرضى غير منبثق من عنصرها السماوى ؛ وأنها تهدد كل المقومات الأرضية الهابطة التى تقوم عليها الجاهلية . . ومن ثم شنوا عليها تلك الحرب التى لم تضع أوزارها لا قبل الهجرة ولا بعدها .الحرب التى تمثل الدفاع عن أوضاعهم كلها فى وجه الأوضاع الإسلامية .لا عن مجرد الاعتقاد والتصور المجردين . .

والذين يحاربون سيطرة المنهج الإسلامى على حياة البشر فى كل جيـل وفى كل أرض

يدركون هـذه الحقيقة . يدركونها جيـدا . ويعلمون أن أوضاعهم الباطلة ، ومصالحهم المغتصبة ، وكيانهم الزائف . . وسلوكهم المنحرف . . هـذه كلها هى التى يهـددها المنهج الإسلامى القويم الـكريم !

والطغاة البغاة الظلمة المطففون — فى أية صورة من صور التطفيف فى المـال أو فى سائر الحقوق والواجبات — هم الذين يشفقون أكثر من غيرهم من سيطرة ذلك المنهج العادل النظيف ! الذى لايقبل المساومة ، ولا المداهنة ، ولا أنصاف الحلول !

ولقد أدرك ذلك الذين بايعوا رسول الله —صلى الله عليه وسلم — من نقباء الأوس والخزرج بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة : قال ابن اسحاق : وحدثنى عاصم ابن عمر ابن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله — صلى الله عليـه وسلم — قال العباس ابن عبادة ابن نضلة الأنصارى أخو بنى سالم ابن عوف : يامعشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنـكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنـكم إذا نهكت أموالـكم مصيبة وأشرافـكم قتل أسلمتموه فمن الآن ! فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنـكم وافون له بما دعوتموه إليه ، على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : « الجنة » . . قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

فقد أدرك هؤلاء — كما أدرك كبراء قريش من قبل — طبيعة هذا الدين . وأنه قائم كحد السيف للعدل والنصفة وإقامة حياة الناس على ذلك ، لايقبل من طاغية طغيانا ، ولامن باغ بغيا، ولامن متكبر كبرا . ولايقبل للناس الغبن والخسف والاستغلال . ومن ثم يحاربه كل طاغ باغ متكبر مستغل ؛ ويقف لدعوته ولدعاته بالمرصاد . .

« ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » . .

وإن أمرهم لعجيب . فإن مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم . يوم يقوم الناس متجردين لرب العالمين ، ليس لهم مولى يومئذ سواه ، وليس بهم إلا التطلع لما يجريه عليهم من قضاء ، وقد علموا أن ليس لهم من دونه ولى ولانصير . . إن مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفى ليصدهم عن التطفيف ، وأكل أموال الناس بالباطل ، واستخدام السلطان فى ظلم

الناس وبخسهم حقهم فى التعامل . . ولـكنهم ماضون فى التطفيف كأنهم لايظنون أنهم مبعوثون ! وهو أمر عجيب ، وشأن غريب !

* * *

وقد سماهم المطففين فى المقطع الأول . فأما فى المقطع الثانى فيسميهم الفجار . إذ يدخلهم فى زمرة الفجار ، ويتحدث عن هؤلاء . يتحدث عن اعتبارهم عند الله ، وعن حالهم فى الحياة . وعما ينتظرهم يوم يبعثون ليوم عظيم :

« كلا ! إن كتاب الفجار لفى سجين . وماأدراك ماسجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين : الذين يكذبون بيوم الدين ؛ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال : هذا الذى كنتم به تكذبون » . .

إنهم لايظنون أنهم مبعوثون ليوم عظيم . . فالقرآن يردعهم عن هذا ويزجرهم ، ويؤكد أن لهم كتابا تحصى فيه أعمالهم .. ويحدد موضعه زيادة فى التوكيد . ويوعدهم بالويل فى ذلك اليوم الذى يعرض فيه كتابهم المرقوم :

« كلا . إن كتاب الفجار لفى سجين . وماأدراك ماسجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين » ! .

والفجار هم المتجاوزون الحد فى المعصية والإثم . واللفظ يوحى بذاته بهذا المعنى . وكتابهم هو سجل أعمالهم . ولاندرى نحن ماهيته ولم نكلف هذا . وهو غيب لانعرف عنه إلا بمقدار مايخبرنا عنه صاحبه ولازيادة — فهناك سجل لأعمال الفجار يقول القرآن : إنه فى سجين . ثم يسأل سؤال الاستهوال المعهود فى التعبير القرآنى : «وماأدراك ماسجين؟ » فيلقى ظلال التفخيم ويشعر المخاطب أن الأمر أكبر من إدراكه ، وأضخم من أن يحيط به علمه . ولكنه بقوله : « إن كتاب الفجار لفى سجين » يكون قد حدد له موضعا معينا ، وإن يكن مجهولا للإنسان . وهذا التحديد يزيد من يقين المخاطب عن طريق الإيحاء بوجود هذا الكتاب . وهذا هو الإيحاء المقصود من وراء ذكر هذه الحقيقة بهذا القدر ، دون زيادة .

ثم يعود إلى وصف كتاب الفجار ذاك فيقول : إنه « كتاب مرقوم » . . أى مفروغ منه ، لايزاد فيه ولا ينقص منه ، حتى يعرض فى ذلك اليوم العظيم .

فإذا كان ذلك : كان « ويل يومئذ للمكذبين » !

ويحدد موضوع التكذيب ، وحقيقة المكذبين :

« الذين يكذبون بيوم الدين . ومايكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين » . . فالاعتداء والإثم يقودان صاحبهما إلى التكذيب بذلك اليوم ؛ وإلى سوء الأدب مع هذا القرآن فيقول عن آياته حين تتلى عليه : « أساطير الأولين » . . لمايحويه من قصص الأولين المسوقة فيه للعبرة والعظة ، وبيان سنة الله التي لاتتخلف ، والتي تأخذ الناس في ناموس مطرد لايحيد

ويعقب على هذا التطاول والتكذيب بالزجر والردع : « كلا ! » ليس كما يقولون . .

ثم يكشف عن علة هذا التطاول وهذا التكذيب ؛ وهذه الغفلة عن الحق الواضح وهذا الانطماس في قلوب المكذبين :

« بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . .

أي غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية . والقلب الذي يمرد على المعصية ينطمس ويظلم ؛ ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور ، ويفقده الحساسية شيئا فشيئا حتى يتبلد ويموت . .

روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق ، عن محمد ابن عجلان ، عن القعقاع ابن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن العبدإذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت » . . وقال الترمذي حسن صحيح . ولفظ النسائي : « إن العبد إذااخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء : فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى : « كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . .

وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت .

ذلك حال الفجار المكذبين . وهذه هي علة الفجور والتكذيب . . ثم يذكر شيئا عن مصيرهم في ذلك اليوم العظيم . يناسب علة الفجور والتكذيب :

« كلا ! إنهم عن ربهم يومئذلمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذبون » . .

لقد حجبت قلوبهم المعاصى والآثام . حجبتها عن الإحساس بربها فى الدنيا . وطمستها حتى أظلمت وعميت فى الحياة . . فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق فى الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الـكريم ، وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الـكبرى ، التى لا تتاح إلا لمن شفت روحه ورقت وصفت واستحقت أن تـكشف الحجب بينها وبين ربها . ممن قال فيهم فى سورة القيامة: « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » . .

وهـذا الحجاب عن ربهم ، عذاب فوق كل عذاب ، وحرمان فوق كل حرمان . ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الـكريم . فإذا حجب عن هـذا المصدر فقد خصائصه كإنسان كريم ؛ وارتـكس إلى درجة يستحق معها الجحيم : « ثم إنهم لصالو الجحيم » . . ومع الجحيم التأنيب وهو أمرّ من الجحيم : « ثم يقال : هـذا الذى كنتم به تـكذبون » !!

☆ ☆ ☆

ثم يعرض الصفحة الأخرى. صفحة الأبرار . على العهد بطريقة القرآن فى عرض الصفحتين متقابلتين فى الغالب ، لتتم المقابلة بين حقيقتين وحالين ونهايتين :

« كلا ! إن كتاب الأبرار لفى عليين. وما أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم، يشهده المقربون . إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم، ختامه مسك . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون » . .

وكلمة « كلا » تجىء فى صدر هـذا المقطع زجرا عما ذكر قبله من التـكذيب فى قوله : « ثم يقال : هـذا الذى كنتم به تـكذبون » .. ويعقب عليه بقوله : « كلا » ثم يبدأ الحديث عن الأبرار فى حزم وفى توكيد .

فإذا كان كتاب الفجار فى « سجين » فإن كتاب الأبرار فى « عليين » . . . والأبرار هم الطائعون الفاعلون كل خير . وهم يقابلون الفجار العصاة المتجاوزين لـكل حد . .

ولفظ « عليين » يوحى بالعلو والارتفاع . مما قد يؤخذ منه أن « سجين » يفيد الانحطاط والسفول . ثم يعقب عليه بسؤال التجهيل والتهويل المعهود : « وما أدراك ما عليون ؟ » . . فهو أمر فوق العلم والإدراك !

ويعود من هـذا الظل الموحى إلى تقرير حقيقة كتاب الأبرار . . فهو « كتاب مرقوم يشهده المقربون » وقد سبق ذكر معنى مرقوم . ويضاف إليـه هنا أن الملائكة المقربين يشهدون هـذا الكتاب ويرونه . وتقرير هـذه الحقيقة هنا يلقى ظلا كريما طاهرا رفيعا على كتاب الأبرار . فهو موضع مشاهدة المقربين من الملائكة ، ومتعتهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات . وهذا ظل كريم شفيف ، يذكر بقصد التكريم .

ثم يذكر حال الأبرار أنفسهم ، أصحاب هذا الكتاب الكريم . ويصف ماهم فيـه من نعيم فى ذلك اليوم العظيم :

« إن الأبرار لفى نعيم » . . يقابل الجحيم الذى ينتهى إليـه الفجار . . « على الأرائك ينظرون » أى إنهم فى موضع التكريم ، ينظرون حيث يشاءون ، لا يغضون من مهانة ، ولا يشغلون عن النظر من مشقة .. وهم على الأرائك وهى الأسرة فى الحجال . وأقرب مايمثلها عندنا مانسميه « الناموسية » أو الكلة ! وصورتها الدنيوية كانت أرقى وأرق مظاهر النعيم عند العربى ذى العيشة الخشنة ! أما صورتها الأخروية فعلمها عند الله . وهى على أية حال أعلى من كل مايعهده الإنسان مما يستمده من تجاربه فى الأرض وتصوراته !

وهم فى هـذا النعيم ناعمو النفوس والأجسام ، تفيض النضرة على وجوههم وملامحهم حتى ليراها كل راء : « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » . .

« يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك » . .

والرحيق الشراب الخالص المصفى ، الذى لا غش فيه ولا كدرة . ووصفه بأنه مختوم ختامه مسك ، قد يفيد أنه معد فى أوانيه ، وأن هـذه الأوانى مقفلة مختومة ، تفض عند الشراب ، وهذا يلقى ظل الصيانة والعناية . كما أن جعل الختم من المسك فيه أناقة ورفاهية! وهذه الصورة لا يدركها البشر إلا فى حـدود مايعهدون فى الأرض . فإذا كانوا هنالك كانت لهم أذواق ومفاهيم تناسب تصورهم الطليق من جو الأرض المحدود !

وقبل أن يتم وصف الشراب الذى يجىء فى الآيتين التاليتين : « ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » . . أى أن هـذا الرحيق المختوم يفض ختامه ثم يمزج بشىء من هـذه العين المسماة : « تسنيم» التى «يشرب بها المقربون » .. قبل أن يتم الوصف يلقى بهذا الإيقاع ، وبهذا التوجيه : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . . وهو إيقاع عميق يدل على كثير . . .

إن أولئك المطففين ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ولا يحسبون حساب اليوم الآخر ، ويكذبون بيوم الحساب والجزاء ، ويرين على قلوبهم الإثم والمعصية . . إن هؤلاء إنما يتنافسون فى مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد . يريد كل منهم أن يسبق إليه ، وأن يحصل على أكبر نصيب منه . ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب مايرتكب فى سبيل متاع من متاع الأرض زائل . .

ومافى هذا العرض القريب الزهيد ينبغى التنافس . إنما يكون التنافس فى ذلك النعيم وفى ذلك التكريم : « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . . فهو مطلب يستحق المنافسة ، وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب .

والذين يتنافسون على شىء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم، إنما يتنافسون فى حقير قليل فانٍ قريب .والدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة. ولكن الآخرة ثقيلة فى ميزانه. فهى إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة . .

ومن عجب أن التنافس فى أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعا . بينما التنافس فى أمر الدنيا ينحط بها جميعا . والسعى لنعيم الآخرة يصلح الأرض ويعمرها ويطهرها للجميع . والسعى لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعا وبيئا تأكل فيه الديدان بعضها البعض . أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين !

والتنافس فى نعيم الآخرة لايدع الأرض خرابا بلقعا كما قد يتصور بعض المنحرفين . إنما يجعل الإسلام الدنيا مزرعة الآخرة ، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق . على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله ، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده كما قررها الله — سبحانه — وهو يقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [1]»

وإن قولة « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . لهو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة ، بينما هم يعمرون الأرض ويقومون بالخلافة فيها . ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه !

إن عمر المرء فى هذه العاجلة محدود ، وعمره فى الآجلة لايعلم نهايته إلا الله . وإن متاع هذه الأرض فى ذاته محدود . ومتاع الجنة لاتحده تصورات البشر . وإن مستوى النعيم فى هذه الدنيا

(١) يراجع تفسير هذا القول فى سورة الذاريات الجزء السابع والعشرون . صفحة ٢٧ — ٢٩

معروف ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود ! فأين مجال من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب ؟ !

ألا إن السباق إلى هناك .. « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » . .

☆☆☆

وكأنما أطال السياق فى عرض صور النعيم الذى ينتظر الأبرار ، تمهيدا للحديث عما كانوا يلقون فى الأرض من الفجار . من أذى واستهزاء وتطاول وادعاء . . وقد أطال فى عرضه كذلك . ليختمه بالسخرية من الكفار ، وهم يشهدون نعيم الأبرار :

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون . . وماأرسلوا عليهم حافظين . .

« فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون .

« هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » . .

والمشاهد التى يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا ، وسوء أدبهم معهم، وتطاولهم عليهم ، ووصفهم بأنهم ضالون . . مشاهد منتزعة من واقع البيئة فى مكة . ولكنها متكررة فى أجيال وفى مواطن شتى . وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت فى وصفها وتصويرها . مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة فى موقفها من الأبرار فى جميع البيئات والعصور ! !

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .. كانوا .. فقد طوى السياق الدنيا العاجلة الزائلة . فإذا المخاطبون به فى الآخرة . يرون نعيم الأبرار الذين آمنوا . وهو يذكر لهم ما كان من أمر الدنيا !

إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم ، وسخرية منهم . إما لفقرهم ورثاثة حالهم . وإما لضعفهم عن رد الأذى . وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء . . فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا . وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المرذولة . وهم يسلطون عليهم الأذى ، ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع ، مما يصيب الذين آمنوا ، وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين !

« وإذا مروا بهم يتغامزون » . . يغمز بعضهم لبعض بعينه ، أويشير بيده ، أويأتى بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين . وهى حركة وضيعة واطية تكشف عن سوء الأدب ، والتجرد من التهذيب . بقصد إيقاع الانكسار فى قلوب المؤمنين ، وإصابتهم بالخجل والربكة ، وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساخرين !

« وإذا انقلبوا إلى أهلهم » بعد ماأشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم . . « انقلبوا فكهين » . . راضين عن أنفسهم ، مبتهجين بما فعلوا ، مستمتعين بهذا الشرالصغير الحقير . فلم يتلوموا ولم يندموا ، ولم يشعروابحقارة ماصنعوا وقذارة مافعلوا. وهذا منتهى ماتصل إليه النفس من إسفافوموت للضمير !

« وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون » !

وهذهأعجب . . فليس أعجبمن أن يتحدث هؤلاء الفجار المجرمونعنالهدى والضلال. وأن يزعموا حين يرون المؤمنين ، أن المؤمنين ضالون . ويشيروا إليهم مؤكدين لهذا الوصف فى تشهير وتحقير : « إن هؤلاء لضالون ! » . .

والفجور لايقف عند حد، ولايستحي من قول ، ولايتلوم من فعل .واتهام المؤمنين بأنهم ضالون حين يوجهه الفجار المجرمون ، إنما يمثل الفجور فى طبيعته التى هىتجاوز لجميعالحدود!

والقرآن لايقف ليجادل عن الذين آمنوا ، ولاليناقش طبيعة الفرية . فهى كلة فاجرة لاتستحق المناقشة . ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فما ليس من شأنهم ، ويتطفلون بلا دعوةمن أحدفى هذا الأمر : « وماأرسلوا عليهمحافظين » .. وماوكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين ، وماأقيموا عليهم رقباء ، ولا كلفوا وزنهم وتقدير حالهم ! فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير !

وينهى بهذه السخرية العالية حكاية ما كان من الذين أجرموا فى الدنيا . . ما كان . . ويطوى هذا المشهد الذى انتهى . ليعرض المشهد الحاضر والذين آمنوا فى ذلك النعيم :

« فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون » . .

اليوم والكفار محجوبون عن ربهم ، يقاسون ألم هذا الحجاب الذى تهدر معه إنسانيتهم ، فيصلون الجحيم ، مع الترذيل والتأنيب حيث يقال : « هذا الذى كنتم به تكذبون » . .

اليوم والذين آمنوا على الأرائك ينظرون . فى ذلك النعيم المقيم ، وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم . .

فاليوم . . الذين آمنوا من الكفار يضحكون . .

والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل :

« هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » .

أجل ! هل ثوبوا ؟ هل وجدوا ثواب مافعلوا ؟ وهم لم يجدوا « الثواب » المعروف من الكلمة . فنحن نشهدهم اللحظة فى الجحيم ! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء مافعلوا . فهو ثوابهم إذن . وياللسخرية الكامنة فى كلمة الثواب فى هذا المقام !

* * *

ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذى يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته ـ مشهد سخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا فى الدنيا ـ كما أطال من قبل فى عرض مشهد نعيم الأبرار وعرض مناظره ومناعمه .فنجد أنهذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال فى الأداء التعبيرى، كما أنه فن عال فى العلاج الشعورى . فقد كانت القلة المسلمة فى مكة تلاقى من عنت المشركين وأذاهم مايفعل فى النفس البشرية بعنف وعمق . وكان ربهم لايتركهم بلا عون ، من تثبيته وتسريته وتأسيته . .

وهذا التصوير المفصل لمواجعهم من أذى المشركين ، فيه بلسم لقلوبهم . فربهم هو الذى يصف هذه المواجع . فهو يراها ، وهو لايهملها ـ وإن أمهل الكافرين حينا ـ وهذا وحده يكفى قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه . إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون . وكيف يؤذيهم المجرمون . وكيف يتفكه بآلامهم ومواجعهم المتفكهون . وكيف لايتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون ! إن ربهم يرى هذا كله ويصفه فى تنزيله . فهو إذن شيء فى ميزانه . . وهذا يكفى ! نعم هذا يكفى حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موجوعة .

ثم إن ربهم يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجع . قد لاتحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب . ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرهفة ، تحسه وتقدره، وتستريح إليه وتستنيم !

ثم إن هـذه القلوب المؤمنة تشهد حالها عند ربها ، ونعيمها فى جناته ، وكرامتها فى الملأ الأعلى . على حين تشهد حال أعدائها ومهانتهم فى الملأ الأعلى وعـذابهم فى الجحيم ، مع الإهانة والترذيل . . تشهد هـذا وذلك فى تفصيل وفى تطويل . وهى تستشعر حالها وتتذوقه تذوق الواقع اليقين . وما من شك أن هـذا التذوق يمسح على مرارة ماهى فيـه من أذى وسخرية وقلة وضعف .وقد يبلغ فى بعض القلوب أن تتبدل هذه المرارة فيها بالفعل حلاوة، وهى تشهد هذه المشاهد فى ذلك القول الـكريم .

ومما يلاحظ أن هذا كان هو وحده التسلية الإلهية للمؤمنين المعذبين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة ، وأذاهم البالغ ، وسخريتهم اللئيمة . . الجنة للمؤمنين . والجحيم للـكافرين . وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل . . وهـذا كان وحده الذى وعد به النبى — صلى الله عليه وسلم — المبايعين له . وهم يبذلون الأموال والنفوس !

فأما النصر فى الدنيا ، والغلب فى الأرض ، فلم يكن أبدا فى مكة يذكر فى القرآن المـكى فى معرض التسرية والتثبيت . .

لقد كان القرآن ينشىء قلوبا يعدها لحمل الأمانة . وهذه القلوب كان يجب أن تـكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لاتتطلع — وهى تبذل كل شىء وتحتمل كل شىء — إلى شىء فى هذه الأرض . ولاتنتظر إلا الآخرة . ولاترجو إلا رضوان الله . قلوبامستعدةلقطع رحلةالأرض كلها فى نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال ، بلا جزاء فى هـذه الأرض قريب . ولوكان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين !

حتى إذا وجدت هذه القلوب التى تعلم أن ليس أمامها فى رحلة الأرض شىء إلا أن تعطى بلا مقابل . وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء . وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل . . حتى إذا وجدت هـذه القلوب ، وعلم الله منها صدق نيتها على مابايعت وعاهدت ، آتاها النصر فى الأرض ، وائتمنها عليه . لالنفسها . ولـكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهى وهى أهل لأداء الأمانة ، مذ كانت لم توعد بشىء من المغنم فى الدنيا تتقاضاه ؛ ولم تتطلع إلى شىء من المغنم فى الأرض تعطاه . وقد تجردت لله حقا يوم كانت لاتعلم لها جزاء إلا رضاه !

وكل الآيات التى ورد فيها ذكر للنصر فىالدنيا جاءت فى المدينة . بعد ذلك.وبعد أنأصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه . وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت

أن تكون لهذا المنهج واقعية فى الحياة الإنسانية تقرره فى صورة عملية محددة ، تراها الأجيال.
فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام . إنما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه
حكمة نحاول رؤيتها الآن !

سورة الانشقاق مكية
وآياتها ٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ...

« يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا . .

« فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ .

« فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ؟ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » . .

تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التى عرضت بتوسع فى سورة التكوير ، ثم فى سورة الانفطار . ومن قبل فى سورة النبأ . ولكنها هنا ذات طابع خاص . طابع

الاستسلام لله . استسلام السماء واستسلام الأرض ، فى طواعية وخشوع ويسر : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت مافيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » . .

ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب « الإنسان » ، وإلقاء الخشوع فى قلبه لربه . وتذكيره بأمره ؛ وبمصيره الذى هو صائر إليه عنده. حين ينطبع فى حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذى تلقيه فى حسه السماء والأرض فى المشهد الهائل الجليل : « ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه . فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا ،وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا، ويصلى سعيرا . إنه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا » . .

والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة ، مما يقع تحت حس « الإنسان » لها إيحاؤها ولها دلالتها على التدبير والتقدير ،مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون فى أحوال مقدرة مدبرة ، لا مفر لهم من ركوبها ومعاناتها : « فلا أقسم بالشفق ، والليل وماوسق ، والقمر إذا اتسق : لتركبن طبقا عن طبق » . .

ثم يجىء المقطع الأخير فى السورة تعجيبا من حال الناس الذين لايؤمنون ؛ وهذه هى حقيقة أمرهم ، كما عرضت فى المقطعين السابقين . وتلك هى نهايتهم ونهاية عالمهم كما جاء فى مطلع السورة : « فمالهم لايؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ؟ » . . ثم بيان لعلم الله بما يضمون عليه جوانحهم وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم : « بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون » . .

* * *

إنها سورة هادئة الإيقاع ، جليلة الإيحاء ، يغلب عليها هذا الطابع حتى فى مشاهد الانقلاب الكونية التى عرضتها سورة التكوير فى جو عاصف . سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم، خطوة خطوة . فى راحة ويسر ، وفى إيحاء هادىء عميق . والخطاب فيها : « ياأيها الإنسان » فيه تذكير واستجاشة للضمير .

وهى بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشرى فى مجالات كونية وإنسانية

شتى ، متعاقبة تعاقبا مقصودا .. فمن مشهد الاستسلام الـكونى . إلى لمسة لقلب « الإنسان » . إلى مشهد الحساب والجزاء . إلى مشهد الـكون الحاضر وظواهره الموحية . إلى لمسة للقلب البشرى أخرى . إلى التعجيب من حال الذين لايؤمنون بعد ذلك كله . إلى التهديد بالعذاب الأليم واستثناء المؤمنين بأجر غير ممنون . .

كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات فى سورة قصيرة لاتتجاوز عدةأسطر . . وهو مالايعهد إلا فى هذا الـكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها فى الحيز الـكبير ولا تؤدى بهذه القوة وبهذا التأثير . . ولـكنه القرآن ميسر للذكر ؛ يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة . صبغة العليم الخبير !

* * *

« إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت مافيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » . .

وانشقاق السماء سبق الحديث عنه فى سور سابقة . أما الجديد هنافهواستسلام السماء لربها؛ ووقوع الحق عليها ، وخضوعها لوقع هذا الحق وطاعتها :

« وأذنت لربها وحقت » . .

فإذن السماء لربها : استسلامها وطاعتها لأمره فى الانشقاق ، « وحقت » . . أى وقع عليها الحق . واعترفت بأنها محقوقة لربها . وهو مظهر من مظاهر الخضوع ، لأن هـذا حق عليها مسلم به منها .

والجديد هنا كذلك هو مد الأرض : « وإذا الأرض مدت » . . وقد يعنى هـذا مط رقعتها وشكلها ، مما ينشأ عن انقلاب النواميس التى كانت تحكمها ،وتحفظها فى هذا الشكل الذى انتهت إليه ــ والمقول إنه كرى أو بيضاوى ــ والتعبير يجعل وقوع هذا الأمر لها آتيا من فعل خارج عنها ، مما يفيده بناء الفعل للمجهول : « مدت » .

« وألقت مافيها وتخلت » . . وهو تعبير يصور الأرض كائنة حية تلقى مافيها وتتخلى عنه . وما فيها كثير . منه تلك الخلائق التى لا تحصى ، والتى طوتها الأرض فى أجيالها التى لايعلم إلا الله مداها . ومنه سائر مايختبىء فى جوف الأرض من معادن ومياه وأسرار لايعلمها إلا بارئها .

وقد حملت حملها هـذا أجيالا بعد أجيال ، وقرونا بعد قرون . حتى إذا كان ذلك اليوم: ألقت ما فيها وتخلت . .

« وأذنت لربها وحقت » .. هى الأخرى كما أذنت السماء لربها وحقت . واستجابت لأمره مستسلمة مذعنة ، معترفة أن هذا حق عليها ، وأنها طائعة لربها بحقه هذا عليها ..

وتبدو السماء والأرض ـ بهذه الآيات المصورة ـ ذواتى روح . وخليقتين من الأحياء . تستمعان للأمر ، وتلبيان للفور ، وتطيعان طاعة المعترف بالحق ، المستسلم لمقتضاه ، استسلاما لا التواء فيه ولا إكراه .

ومع أن المشهد من مشاهد الانقلاب الكونى فى ذلك اليوم. فإن صورته هنا يظللها الخشوع، والجلال والوقار والهدوء العميق الظلال . والذى يتبقى فى الحس منه هو ظل الاستسلام الطائع الخاشع فى غير ماجلبة ولامعارضة ولا كلام !

* * *

وفى هذا الجو الخاشع الطائع يجىء النداء العلوى للإنسان ، وأمامه الكون بسمائه وأرضه مستسلما لربه هذا الاستسلام :

« ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » . .

« ياأيها الإنسان » .. الذى خلقه ربه بإحسان ؛ والذى ميزه بهذه « الإنسانية » التى تفرده فى هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه ، وأطوع لأمره من الأرض والسماء . وقد نفخ فيه من روحه ، وأودعه القدرة على الاتصال به ، وتلقى قبس من نوره ، والفرح باستقبال فيوضاته ، والتطهر بها أو الارتفاع إلى غير حد ، حتى يبلغ الكمال المقدر لجنسه ، وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة !

« ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » . . ياأيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحا ، تحمل عبئك ، وتجهد جهدك ، وتشق طريقك . . لتصل فى النهاية إلى ربك . فإليه المرجع وإليه المآب . بعد الكد والكدح والجهاد . .

ياأيها الإنسان .. إنك كادح حتى فى متاعك .. فأنت لاتبلغه فى هذه الأرض إلا بجهد وكد . إن لم يكن جهد بدن وكد عمل ، فهو جهد تفكير وكد مشاعر . الواجد والمحروم سواء . إنما

يختلف نوع الكدح ولون العناء، وحقيقة الكدح هى المستقرة فى حياة الإنسان..ثم النهاية فى آخر المطاف إلى الله سواء .

ياأيها الإنسان . . إنك لاتجد الراحة فى الأرض أبدا . إنما الراحة هناك . لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام .. التعب واحد فى الأرض والكدح واحد ــ وإن اختلف لونه وطعمه ــ أما العاقبة فمختلفة عندما تصل إلى ربك . . فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض . وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكن كدح ولا كد . .

ياأيها الإنسان . . الذى امتاز بخصائص « الإنسان » . . ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذى خصك به الله ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عند ما تلقاه . .

ولأن هذه اللمسة الكامنة فى هذا النداء ، فإنه يصل بها مصائر الكادحين عند ما يصلون إلى نهاية الطريق ، ويلقون ربهم بعد الكدح والعناء :

« وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا . إنه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا » . .

والذى يؤتى كتابه بيمينه هو المرضى السعيد ، الذى آمن وأحسن ، فرضى الله عنه وكتب له النجاة . وهو يحاسب حسابا يسيرا ، فلا يناقش ولا يدقق معه فى الحساب . والذى يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفيها غناء . .

عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من نوقش الحساب عذب » قالت : قلت : أفليس قال الله تعالى : «فسوف يحاسب حسابا يسيرا » . قال : « ليس ذلك بالحساب ، ولكن ذلك العرض . من نوقش الحساب يوم القيامة عذب [١] » . .

وعنها كذلك قالت : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » . . فلما انصرف قلت : يارسول الله ، ماالحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه . من نوقش الحساب ياعائشة يومئذ هلك [٢] » . .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى

(٢) رواه الإمام أحمد ــ بإسناده ــ عن عبد الله ابن الزبير عن عائشة . وهو صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه .

فهـذا هو الحساب اليسير الذى يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه . . ثم ينجو « وينقلب إلى أهله مسرورا » . . من الناجين الذين سبقوه إلى الجنة . . وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنـة . كل ومن أحب من أهله وصحبه . ويصور رجعة الناجى من الحساب إلى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب . رجعته متهللا فرحا مسرورا بالنجاة واللقاء فى الجنان !

وهو وضع يقابل وضع المعـذب الهالك المأخوذ بعمله السيء ، الذى يؤتى كتابه وهو كاره :

« وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا » . .

والذى ألفناه فى تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال . فهـذه صورة جديدة : صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر . وليس يمتنع أن يكون الذى يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره . فهى هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة !

ونحن لاندرى حقيقة الكتاب ولا كيفية إيتائه باليمين أوبالشمال أو من وراء الظهر . إنما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول ؛ وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثانى . وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما . وما وراء ذلك من الأشكال إنما يحيي المشهد ويعمق أثره فى الحس ، والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف تكون !

فهذا التعيس الذى قضى حياته فى الأرض كدحا ، وقطع طريقه إلى ربه كدحا ـ ولكن فى المعصية والإثم والضلال ـ يعرف نهايته ، ويواجه مصيره ، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف فى هذه المرة ولا انتهاء . فيدعو ثبورا ، وينادى الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليـه من الشقاء . وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به ، يكون فى الموقف الذى ليس بعده مايتقيه. حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه . وهذا هو المعنى الذى أراده المتنبى وهو يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

فإنما هى التعاسة التى ليس بعدها تعاسة . والشقاء الذى ليس بعده شقاء ! . . « ويصلى سعيرا » . . وهذا هو الذى يدعو الهلاك لينقذه منه . . وهيهات هيهات !

وأمام هـذا المشهد التعيس يكر السياق راجعا إلى ماضى هـذا الشقى الذى انتهى به إلى هذا الشقاء . .

« نه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور » . .

وذلك كان فى الدنيا . . نعم كان . . فنحن الآن — مع هذا القرآن — فى يوم الحساب والجزاء وقد خلفنا الأرض وراءنا بعيدا فى الزمان والمكان !

« إنه كان فى أهله مسرورا » . . غافلا عما وراء اللحظة الحاضرة ؛ لاهيا عما ينتظره فى الدار الآخرة ، لايحسب لها حسابا ولا يقدم لها زادا . . « إنه ظن أن لن يحور » إلى ربه ، ولن يرجع إلى بارئه ، ولو ظن الرجعة فى نهاية المطاف لاحتقب بعض الزاد ولادخر شيئا للحساب !

« بلى إن ربه كان به بصيرا » . .

إنه ظن أن لن يحور . ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعا على أمره ، محيطا بحقيقته ، عالما بحركاته وخطواته ، عارفا أنه صائر إليه ، وأنه مجازيه بما كان منه . . وكذلك كان ، حين انتهى به المطاف إلى هذا المقدور فى علم الله . والذى لم يكن بد أن يكون !

وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله فى حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح — فى صورة من صور الكدح — تقابلها صورة ذلك السعيد ، وهو ينقلب إلى أهله مسرورا فى حياة الآخرة المديدة ، الطليقة ، الجميلة ، السعيدة ، الهنيئة ، الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء . .

* * *

ومن هذه الجولة الكبيرة العميقة الأثر بمشاهدها ولمساتها الكثيرة ، يعود السياق بهم إلى لمحات من هذا الكون الذى يعيشون فيه حياتهم ، وهم غافلون عما تشى به هذه اللمحات من التدبير والتقدير ، الذى يشملهم كذلك ، ويقدّر بإحكام مايتوارد عليهم من أحوال :

« فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق . . لتركبن طبقا عن طبق » . .

وهذه اللمحات الكونية التى يلوح بالقسم بها ، لتوجيه القلب البشرى إليها ، وتلقى إيحاءاتها وإيقاعاتها . . لمحات ذات طابع خاص . طابع يجمع بين الخشوع الساكن ، والجلال المرهوب . وهى تتفق فى ظلالها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة .

فالشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب . . وبعد الغروب تأخذ النفس روعة

ساكنه عميقة . ويحس القلب بمعنى الوداع وما فيه من أسى صامت وشجى عميق . كما يحس برهبة الليل القادم ، ووحشة الظلام الزاحف . ويلفه فى النهاية خشوع وخوف خفى وسكون !

« والليل وما وسق » . . هو الليل وما جمع وما حمل . . بهذ التعميم ، وبهذا التجهيل ، وبهذا التهويل . والليل يجمع ويضم ويحمل الكثير . . ويذهب التأمل بعيدا ، وهو يتقصى مايجمعه الليل ويضمه ويحمله من أشياء وأحياء وأحداث ومشاعر ، وعوالم خافية ومضمرة ، سارية فى الأرض وغائرة فى الضمير . . ثم يؤوب من هذه الرحلة المديدة ، ولم يبلغ من الصور مايحتويه النص القرآنى القصير : « والليل وما وسق » . . إنما يغمره من النص العميق العجيب ، رهبة ووجل ، وخشوع وسكون تتسق مع الشفق وما يضفيه من خشوع وخوف وسكون !

« والقمر إذا اتسق » . . مشهد كذلك هادىء رائع ساحر . . وهو القمر فى ليالى اكتماله . . وهو يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع الموحى بالصمت الجليل ، والسياحة المديدة ، فى العوالم الظاهرة والمكنونة فى الشعور . . وهو جو له صلة خفية بجو الشفق ، والليل وما وسق . يلتقى معهما فى الجلال والخشوع والسكون . .

هذه اللمحات الكونية الجميلة الجليلة الرائعة المرهوبة الموحية يلتقطها القرآن لقطات سريعة ، ويخاطب بها القلب البشرى ، الذى يغفل عن خطابها الكونى . ويلوح بالقسم بها ليبرزها للمشاعر والضمائر ، فى حيويتها وجمالها وإيحائها وإيقاعها ، ودلالتها على اليد التى تمسك بأقدار هذا الكون ، وترسم خطواته ، وتبدل أحواله . . وأحوال الناس أيضا وهم غافلون :

« لتركبن طبقا عن طبق » . . أى لتعانون حالا بعد حال ، وفق ماهو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال . ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها . والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف فى التعبير العربى ، كقولهم : « إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه » . . وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة. وكل منها تمضى بهم وفق مشيئة القدر الذى يقودها ويقودهم فى الطريق ، فتنتهى بهم عند غاية تؤدى إلى رأس مرحلة جديدة ، مقدرة كذلك مرسومة ، كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق . حتى تنتهى بهم إلى لقاء ربهم ،

الذى تحدثت عنه الفقرة السالفة . . وهذا التتابع المتناسق فى فقرات السورة ، والانتقال اللطيف من معنى إلى معنى ، ومن جولة إلى جولة ، هو سمة من سمات هذا القرآن البديع . .

* * *

وفى ظل هذه اللمحات الأخيرة ، والمشاهد والجولات السابقة لها فى السورة ، يجىء التعجيب من أمر الذين لايؤمنون . وأمامهم هذا الحشد من موحيات الإيمان ودلائله فى أنفسهم وفى الوجود :

« فما لهم لايؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ؟ »

أجل ! فما لهم لايؤمنون ؟

إن موحيات الإيمان فى لمحات الوجود ، وفى أحوال النفوس ، تواجه القلب البشرى حيثما توجه ؛ وتتكاثر عليه أينما كان . وهى من الكثرة والعمق والقوة والثقل فى ميزان الحقيقة بحيث تحاصر هذا القلب لو أراد التفلت منها . بينما هى تناجيه وتناغيه وتناديه حيثما ألقى بسمعه وقلبه إليها !

« فما لهم لايؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ؟» وهو يخاطبهم بلغة الفطرة، ويفتح قلوبهم على موحيات الإيمان ودلائله فى الأنفس والآفاق . ويستجيش فى هذه القلوب مشاعر التقوى والخشوع والطاعة والخضوع لبارىء الوجود.. وهو « السجود »

إن هذا الكون جميل . وموح . وفيه من اللمحات والومضات واللحظات والسبحات مايستجيش فى القلب البشرى أسمى مشاعر الاستجابة والخشوع .

وإن هذا القرآن جميل . وموح . وفيه من اللمسات والموحيات مايصل القلب البشرى بالوجود الجميل ، وببارىء الوجود الجليل . ويسكب فيه حقيقة الكون الكبيرة الموحية بحقيقة خالقه العظيم . . « فما لهم لايؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ؟ » . .

إنه لأمر عجيب حقا . يضرب عنه السياق ليأخذ فى بيان حقيقة حال الكفار ،وما ينتظرهم من مآل :

« بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم » . .

بل الذين كفروا يكذبون . يكذبون إطلاقا . فالتكذيب طابعهم وميسمهم وطبعهم الأصيل .والله أعلم بما يكنون فى صدورهم ، ويضمون عليه جوانحهم ، من شر وسوء ودوافع لهذا التكذيب . .

ويترك الحديث عنهم ، ويتجه بالخطاب إلى الرسول الكريم : « فبشرهم بعذاب أليم » .. ويالها من بشرى لاتسر ولا يودها متطلع إلى بشرى من بشير !

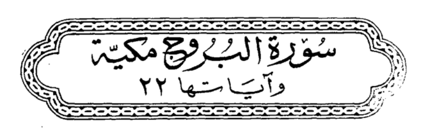
وفى الوقت ذاته يعرض ماينتظر المؤمنين الذين لايكذبون ، فيستعدون بالعمل الصالح لما يستقبلون . ويجىء هذا العرض فى السياق كأنه استثناء من مصير الكفار المكذبين :

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون » . .

وهو الذى يقال عنه فى اللغة إنه استثناء منقطع . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء فى تلك البشارة السوداء ثم استثنوا منها ! ولكن التعبير على هذا النحو أشد إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى !

والأجر غير الممنون . . هو الأجر الدائم غير المقطوع . . فى دار البقاء والخلود .

وبهذا الإيقاع الحاسم القصير ، تنتهى السورة القصيرة العبارة ، البعيدة الآماد فى مجالات الكون والضمير .



بسم الله الرحمن الرحيم

« وَٱلسَّماءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ - ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا - فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ .

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ؟

« بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ * وَٱللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ .

« بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » ..

هـذه السورة القصيرة تعرض ، حقائق العقيدة ، وقواعد التصور الإيمـانى . . أمورا عظيمة وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى ، وراء المعانى والحقائق المباشرة التى تعبر عنها نصوصها حتى لتكاد كل آية ـ وأحيانا كل كلمة فى الآية ـ أن تفتح كوة على عالم مترامى الأطراف من الحقيقة . .

والموضوع المباشر الذى تتحدث عنه السورة هو حادث أصحـاب الأخـدود . . والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام ـ قيل إنهم من النصارى الموحدين ـ ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين ، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم ، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم . فشق الطغاة لهم شقا فى الأرض ، وأوقدوا فيه النار ، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقا ، على مرأى من الجموع التى حشدها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة ، ولـكى يتلهى الطغاة بمشهد الحريق . حريق الآدميين المؤمنين : « ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » . .

تبـدأ السورة بقسم : « والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود . . » فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة ، واليوم الموعود وأحـداثه الضخام ، والحشود التى تشهده والأحداث المشهودة فيه . . تربط بين هـذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة .

ثم تعرض المشهد المفجع فى لمحات خاطفة ، تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل . . مع التلميح إلى عظمة العقيدة التى تعالت على فتنة الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها ، وارتفعت إلى الأوج الذى يشرف الإنسان فى أجياله جميعا . والتلميح إلى بشاعة الفعلة ، وما يـكمن فيها من بغى وشر وتسفل ، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين : « النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعـود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود » .

بعد ذلك تجىء التعقيبات المتواليـة القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة فى شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيمانى الأصيل :

إشارة إلى ملك الله فى السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل مايقع فى السماوات والأرض : الله « الذى له ملك السماوات والأرض . والله على كل شىء شهيد » . .

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذى ينتظر الطغاة الفجرة السفلة ؛ وإلى نعيم الجنة . . ذلك الفوز الكبير . . الذى ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة ، وارتفعوا على فتنة النار والحريق : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ــ ثم لم يتوبوا ــ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير » . .

وتلويح ببطش الله الشديد ، الذى يبدىء ويعيد : « إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدىء ويعيد » . . وهى حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التى أزهقت فى الحادث ، وتلقى وراء الحادث إشعاعات بعيدة . .

وبعد ذلك بعض صفات الله تعالى . وكل صفة منها تعنى أمرا . .

« وهو الغفور الودود » الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع . الودود لعباده الذين يختارونه على كل شىء . والود هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح !

« ذو العرش المجيد . فعال لما يريد » . . وهى صفات تصور الهيمنة المطلقة ، والقدرة المطلقة ، والإرادة المطلقة . . وكلها ذات اتصال بالحادث . . كما أنها تطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد .

ثم إشارة سريعة إلى سوابق من أخذه للطغاة ، وهم مدججون بالسلاح .. « هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ؟ » وهما مصرعان متنوعان فى طبيعتهما وآثارهما . ووراءهما ــ مع حادث الأخدود ــ إشعاعات كثيرة .

وفى الختام يقرر شأن الذين كفروا وإحاطة الله بهم وهم لايشعرون : « بل الذين كفروا فى تكذيب . والله من ورائهم محيط » . .

ويقرر حقيقة القرآن ، وثبات أصله وحياطته : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ..

مما يوحى بأن مايقرره هو القول الفصل والمرجع الأخير ، فى كل الأمور ..

هـذه لمحات مجملة عن إشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد . تمهد لاستعراض هـذه الإشعاعات بالتفصيل :

* * *

« والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود » ..

تبدأ السورة ـ قبل الإشارة إلى حادث الأخدود ـ بهذا القسم : بالسماء ذات البروج ، وهى إما أن تـكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أى قصورها المبنية ، كما قال: « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » . . وكما قال « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها » . . وإما أن تـكون هى المنازل التى تتنقل فيها تلك الأجرام فى أثناء دورانها ، وهى مجالاتها التى لا تتعداها فى جريانها فى السماء . والإشارة إليها يوحى بالضخامة . وهو الظل المراد إلقاؤه فى هـذا الجو .

« واليوم الموعود » .. وهو يوم الفصل فى أحداث الدنيا، وتصفية حساب الأرض وما كان فيها . وهو الموعود الذى وعد الله بمجيئه ، ووعد بالحساب والجزاء فيه ؛ وأمهل المتخاصمين والمتقاضين إليه . وهو اليوم العظيم الذى تتطلع إليه الخلائق ، وترقبه لترى كيف تصير الأمور .

« وشاهد ومشهود » . . فى ذلك اليوم الذى تعرض فيه الأعمال ، وتعرض فيه الخلائق ، فتصبح كلها مشهودة ، ويصبح الجميع شاهدين . ويعلم كل شىء . ويظهر مكشوفا لا يستره ساتر عن القلوب والعيون . .

وتلتقى السماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود . . تلتقى جميعا فى إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذى يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود . كما توحى بالمجال الواسع الشامل الذى يوضع فيه هـذا الحادث . وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه . . وهو أكبر من مجال الأرض ، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود . .

* * *

وبعد رسم هذا الجو ، وفتح هـذا المجال ، تجىء الإشارة إلى الحادث فى لمسات قلائل :

« قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شىء شهيد » ..

وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود: « قتل أصحاب الأخدود » .. وهى كلمة تدل على الغضب . غضب الله على الفعلة وفاعليها . كما تدل على شناعة الذنب الذى يثير غضب الحليم ، ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه .

ثم يجىء تفسير الأخدود : « النار ذات الوقود » والأخدود : الشق فى الأرض . وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا ، فصارت النار بدلا فى التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها .

قتل أصحاب الأخدود ، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب ، فى الحالة التى كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم، ويزاولون تلك الجريمة : « إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » . وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم ، وهم يوقدون النار ، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار ، قريبون من عملية التعذيب البشعة ، يشاهدون أطوار التعذيب ، وفعل النار فى الأجسام فى لذة وسعار ، كأنما يثبتون فى حسهم هذا المشهد البشع الشنيع !

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السماوات والأرض . والله على كل شىء شهيد » .. فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله ، العزيز : القادر على ما يريد ، الحميد : المستحق للحمد فى كل حال ، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال ! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له. وهو وحده الذى له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شىء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور. ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود . . وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين ، وتهدد العتاة المتجبرين . فالله كان شهيدا . وكفى بالله شهيدا .

وتنتهى رواية الحادث فى هذه الآيات القصار ، التى تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها ، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه . فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد ، ووراءه فى حساب الله ما وراءه .

كذلك تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة .روعة الإيمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هـذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيـدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جدا ومعنى كبير جـدا هذا الذى ربحوه وهم بعد فى الأرض . ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار ! وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب . . يعقب به السياق .

* * *

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ـ ثم لم يتوبوا ـ فلهم عـذاب جهنم ولهم عـذاب الحـريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير » . .

إن الذى حـدث فى الأرض وفى الحيـاة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهـاية المطاف . فالبقية آتية هناك . والجزاء الذى يضع الأمر فى نصابه، ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت . وهو مقرر مؤكد ، وواقع كما يقول عنه الله :

« إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات » . . ومضوا فى ضلالتهم سادرين ، لم ينـدموا على مافعلوا « ثم لم يتوبوا » . . « فلهم عـذاب جهنم ولهم عـذاب الحريق » . . وينص على « الحريق » . . وهو مفهوم من عذاب جهنم . ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق فى الأخدود . وبنفس اللفظ الذى يدل على الحدث . ولكن أين حريق من حريق ؟ فى شدته أو فى مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق. وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهى ، وحريق الآخرة آباد لايعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنسانى الكريم . ومع حـريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميم !

ويتمثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . . وهذه هى النجاة الحقيقية : « ذلك الفوز الكبير » . . والفوز : النجاة والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز . فكيف بالجنات تجرى من تحتها الأنهار ؟

بهذه الخاتمة يستقر الأمر فى نصابه . وهى الخاتمة الحقيقية للموقف . فلم يكن ماوقع منه فى الأرض إلا طرفا من أطرافه ، لايتم به تمامه . . وهذه هى الحقيقة التى يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر فى قلوب القلة المؤمنة فى مكة ، وفى قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون .

* * *

ثم تتوالى التعقيبات . .

« إن بطش ربك لشديد » . . وإظهار حقيقة البطش وشدته فى هذا الموضع هو الذى يناسب مامر فى الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذى يحسبه أصحابه ويحسبه الناس فى الأرض كبيرا شديدا . فالبطش الشديد هو بطش الجبار . الذى له ملك السماوات والأرض . لابطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة ، فى رقعة من الزمان محدودة . .

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب — وهو الرسول — صلى الله عليه وسلم — والقائل وهو الله عز وجل . وهو يقول له : « إن بطش ربك .. » ربك الذى تنتسب إلى ربوبيته، وسندك الذى تركن إلى معونته . . ولهذه النسبة قيمتها فى هذا المجال الذى يبطش فيه الفجار بالمؤمنين !

« إنه هو يبدىء ويعيد » . . والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلى إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة . . إلا أنهما حدثان دائبان فى كل لحظة من ليل أو نهار . ففى كل لحظة بدء وإنشاء . وفى كل لحظة إعادة لما بلى ومات . والكون كله فى تجدد مستمر . . وفى بلى مستمر . . وفى ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود ونتائجه الظاهرة مسألة عابرة فى واقع الأمر وحقيقة التقدير . فهو بدء لإعادة . أو إعادة لبدء . فى هذه الحركة الدائبة الدائرة . .

« وهو الغفور الودود » . . والمغفرة تتصل بقوله من قبل : « ثم لم يتوبوا » . . فهى من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود . وهى الباب المفتوح الذى لايغلق فى وجه عائد تائب . ولو عظم الذنب وكبرت المعصية . . أما الود . . فيتصل بموقف المؤمنين ، الذين اختاروا ربهم على كل شىء . وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم . حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه إلى مرتبة ، يتحرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله يجود بها . . مرتبة الصداقة . . الصداقة بين الرب والعبد . . ودرجة الود من الله لأودائه وأحبائه المقربين . . فماذا تكون الحياة التى ضحوا بها وهى ذاهبة ؟ وماذا يكون العذاب الذى احتملوه وهو موقوت ؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو ؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب ؟

إن عبيدا من رقيق هذه الأرض . عبيد الواحد من البشر ، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه ، أولمحة رضاء تبدو فى وجهه . . وهو عبد وهم عبيد.. فكيف بعباد الله . الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل ، الله « ذو العرش المجيد » العالى المهيمن الماجد الكريم ؟ ألا هانت الحياة . وهان الألم . وهان العذاب . وهان كل غالعزيز ، فى سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد . .

« فعال لما يريد » . . هذه صفته الكثيرة التحقق ، الدائبة العمل . . فعال لما يريد . . فهو مطلق الإرادة ، يختار مايشاء ؛ ويفعل مايريده ويختاره ، دائما أبدا، فتلك صفته سبحانه .

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به فى هذه الأرض لحكمة يريدها . ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها . . يريد مرة أن يأخذ الجبارين فى الأرض . ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود . . لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك ، فى قدره المرسوم . .

فهذا طرف من فعله لما يريد . يناسب الحادث ويناسب ماسيأتى من حديث فرعونوثمود. وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعلفعلها فى الوجود .

فعال لما يريد .. وهاك نموذجا من فعله لما يريد :

« هل أتاك حديث الجنود : فرعون وثمود ؟ » . . وهى إشارة إلى قصتين طويلتين ،

ارتكانا إلى المعلوم من أمرها للمخاطبين، بعد ماورد ذكرها كثيرا فى القرآن الكريم . ويسميهم الجنود . إشارة إلى قوتهم واستعدادهم . . هل أتاك حديثهم ؟ وكيف فعل ربك بهم مايريد ؟

وهما حديثان مختلفان فى طبيعتهما وفى نتائجهما . . فأما حديث فرعون ، فقد أهلكه الله وجنده ونجى بنى إسرائيل ، ومكن لهم فى الأرض فترة ، ليحقق بهم قدرا من قدره ، وإرادة من إرادته . وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحا والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك ولا تمكين . إنما هى مجرد النجاة من القوم الفاسقين . .

وهما نموذجان لفعل الإرادة ، وتوجه المشيئة . وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة ، إلى جانب الاحتمال الثالث الذى وقع فى حادث الأخدود .. وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة فى مكة ، ولكل جيل من أجيال المؤمنين . .

* * *

وفى الختام يجىء إيقاعان قويان جازمان . فى كل منهما تقرير ، وكلمة فصل وحكم أخير:

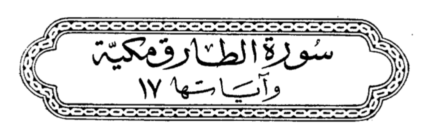
« بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط » . .

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم فى تكذيب يمسون به ويصبحون . « والله من ورائهم محيط » . . وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه . فهم أضعف من الفيران المحصورة فى الطوفان العميم !

« بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » . .

والمجيد الرفيع الكريم العريق . . وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ؟ وهو فى لوح محفوظ . لاندرك نحن طبيعته ، لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله بعلمه . إنما ننتفع نحن بالظل الذى يلقيه التعبير ، والإيحاء الذى يتركه فى القلوب . وهو أن هذا القرآن مصون ثابت ، قوله هو المرجع الأخير ، فى كل مايتناوله من الأمور . يذهب كل قول ، وقوله هو المرعى المحفوظ . .

ولقد قال القرآن قوله فى حادث الأخدود ، وفى الحقيقة التى وراءه . . وهو القول الأخير . .



سورة الطارق مكية
وآياتها ١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَٱلسَّمَاءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ .

« فَلْيَنْظُرِ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ .

« إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ .

« وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ * وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ .

« إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ ٱلْكَافِرِينَ ، أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا » ..

جاء فى مقدمة هذا الجزء أن سوره تمثل طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات بنوّم غارقين فى النوم .. . تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد ، ونذير واحد : « اصحوا . تيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . وإن هنالك عذابا شديدا ونعيا كبيرا . . »

وهذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص . ففي إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع المشاهد، ونوع الإيقاع الموسيقي ، وجرس الألفاظ ، وإيحاء المعاني .

ومن مشاهدها : الطارق . والثاقب . والدافق . والرجع . والصدع .

ومن معانيها : الرقابة على كل نفس : « إن كل نفس لما عليها حافظ » . . ونفي القوة والناصر : « يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر » . . والجد الصارم : « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » . .

والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته : « إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » !

وتكاد تتضمن تلك الموضوعات التي أشير إليها في مقدمة الجزء : « إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . . . الخ » .

وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية في السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ يتضح من استعراض السورة في سياقها القرآني الجميل . .

* * *

« والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ » . .

هذا القسم يتضمن مشهدا كونيا وحقيقة إيمانية . وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثني بالاستفهام المعهود في التعبير القرآني : « وما أدراك ما الطارق ؟ » . . وكأنه أمر وراء الإدراك والعلم . ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته : « النجم الثاقب » الذي يثقب الظلام بشعاعه النافذ. وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم . ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته من هذا النص ، ولا ضرورة لهذا التحديد . بل إن الإطلاق أولى . ليكون المعنى : والسماء ونجومها الثاقبة للظلام ، النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء . ويكون لهذه الإشارة إيحاؤها حول حقائق السورة وحول مشاهدها الأخرى . . كما سيأتي . .

يقسم بالسماء ونجمها الثاقب :أن كل نفس عليها من أمرالله رقيب : «إن كل نفس لما عليها حافظ » . . . وفي التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد . . مامن نفس إلا عليها حافظ .

يراقبها ، ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله . ويمين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار . وهى التى يناط بها العمل والجزاء .

ليست هنالك فوضى إذن ولاهيصة ! والناس ليسوا مطلقين فى الأرض هكذا بلا حارس . ولامهملين فى شعابها بلاحافظ ،ولامتروكين يفعلون كيف شاءوا بلارقيب . إنما هو الإحصاء الدقيق المباشر ، والحساب المبنى على هذا الإحصاء الدقيق المباشر .

ويلقى النص إيحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبدا فى خلوة ـ وإن خلت ـ فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب ، وتتخفى عن كل عين ، وتأمن من كل طارق . هنالك الحافظ الذى يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور . كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر .. وصنعة الله واحدة متناسقة فى الأنفس وفى الآفاق .

* * *

ويخلص من هذه اللمسة التى تصل النفس بالكون ، إلى لمسة أخرى تؤكد حقيقة التقدير والتدبير ، التى أقسم عليها بالسماء والطارق . فهذه نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة ؛ وتوحى بأن الإنسان ليس متروكا سدى ، ولامهملا ضياعا :

« فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » . .

فلينظر الإنسان من أى شىء خلق وإلى أى شىء صار . . إنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، خلق من هـذا الماء الذى يجتمع من صلب الرجل وهو عظام ظهره الفقارية ومن ترائب المرأة وهى عظام صدرها العلوية . . ولقد كان هـذا سرا مكنونا فى علم الله لايعلمه البشر . حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هـذه الحقيقة بطريقته ؛ وعرف أنه فى عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل ، وفى عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة . حيث يلتقيان فى قرار مكين فينشأ منهما الإنسان !

والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير . . بين الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب وبين الإنسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوى والعصبى والعقلى والنفسى . . هـذه المسافة الهائلة التى يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق توحى بأن هنالك يدا خارج ذات الإنسان هى التى تدفع بهذا الشىء المائع الذى لاقوام له ولاإرادة ولاقدرة ، فى طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة ، حتى تنتهى به إلى هـذه النهاية الماثلة . وتشى بأن هنالك حافظا من أمر الله

يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ، ومن الإرادة والقدرة ، فى رحلتها الطويلة العجيبة . وهى تحوى من العجائب أضعاف مايعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته !

هذه الخلية الواحدة الملقحة لاتكاد ترى بالمجهر ، إذ أن هنالك ملايين منها فى الدفقة الواحدة .. هذه الخليقة التى لاقوام لها ولاعقل ولاقدرة ولاإرادة ، تبدأ فى الحال بمجرد استقرارها فى الرحم فى عملية بحث عن الغذاء . حيث تزودها اليد الحافظة بخاصية أكالة تحول بها جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج ! وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ فى عملية جديدة . عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا .. وتعرف هذه الخليقة الساذجة التى لاقوام لها ولاعقل ولاقدرة ولاإرادة . . تعرف ماذا هى فاعلة وماذا هى تريد . . حيث تزودها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة والإرادة التى تعرف بهـا الطريق ! إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هـذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هـذه العمارة الهائلة . . عمـارة الجسم الإنسانى . . فهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الهيكل العظمى . وهـذه المجموعة تنطلق لتنشىء الجهاز العضلى . وهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الجهاز العصبى . وهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الجهـاز اللمفاوى . . . إلى آخر هـذه الأركان الأساسـية فى العمارة الإنسانية ! . . ولـكن العمل ليس بمثل هـذه البساطة . . إن هنالك تخصصا أدق . فكل عظم من العظام . وكل عضلة من العضلات . وكل عصب من الأعصاب ... لا يشبه الآخر . لأن العمارة دقيقة الصنع ، عجيبة التـكوين ، متنوعة الوظائف . . ومن ثم تتعلم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة ، أن تتفرق طوائف متخصصة ، تقوم كل طائفة منهـا بنوع معين من العمل فى الركن المخصص لهـا من العمارة الـكبيرة ! . .

إن كل خليـة صغيرة تنطلق وهى تعرف طريقها . تعرف إلى أين هى ذاهبـة ، وماذا هو مطلوب منها ! ولا تخطىء واحدة منها طريقها فى هذه المتاهة الهائلة . فالخلايا المـكلفة أن تصنع العين تعرف أن العين ينبغى أن تـكون فى الوجه ، ولا يجوز أبدا أن تـكون فى البطن أو القدم أو الذراع . مع أن كل موضع من هذه المواضع يمـكن أن تنمو فيه عين . ولو أخذت الخليـة الأولى المـكلفة بصنع العين وزرعت فى أى من هـذه المواضع لصنعت عينا هنالك ! ولـكنها هى بذاتها حين تنطلق لاتذهب إلا للمـكان المخصص للعين فى هـذا الجهاز الإنسانى المعقد . . فمن ترى قال لها : إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين فى هـذا المـكان دون سواه ؟ إنه

الله . إنه الحافظ الأعلى الذى يرعاها ويوجهها ويهديها إلى طريقها فى المتاهة التى لا هادى فيها إلا الله !

وكل تلك الخلايا فرادى ومجتمعة تعمل فى نطاق ترسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها . هى وحدات الوراثة ، الحافظة لسجل النوع ولخصائص الأجداد . فخلية العين وهى تنقسم وتتكاثر لكى تكوّن العين ، تحاول أن تحافظ فى أثناء العمل على شكل معين للعين وخصائص محددة تجعلها عين إنسان لاعين أى حيوان آخر . وإنسان لأجداده شكل معين للعين وخصائص معينة . . وأقل انحراف فى تصميم هذه العين من ناحية الشكل أو ناحية الخصائص يحيد بها عن الخط المرسوم . فمن ذا الذى أودعها هذه القدرة ؟ وعلمها ذلك التعليم ؟ وهى الخلية الساذجة التى لاعقل لها ولا إدراك ، ولا إرادة لها ولا قوة ؟ إنه الله . علمها مايعجز الإنسان كله عن تصميمه لو وكل إليه تصميم عين أو جزء من عين . بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة ، تقوم بهذا العمل العظيم !

ووراء هذه اللمحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق ، حشود لاتحصى من العجائب والغرائب ، فى خصائص الأجهزة والأعضاء ، لانملك تقصيها فى هذه الظلال . . تشهد كلها بالتقدير والتدبير . وتشى باليد الحافظة الهادية المعينة . وتؤكد الحقيقة الأولى التى أقسم عليها بالسماء والطارق . كما تمهد للحقيقة التالية . حقيقة النشأة الآخرة التى لايصدقها المشركون ، المخاطبون أول مرة بهذه السورة . .

* * *

« إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فماله من قوة ولا ناصر » . .

إنه — الله الذى أنشأه ورعاه — إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت ، وإلى التجدد بعد البلى ، تشهد النشأة الأولى بقدرته ، كما تشهد بتقديره وتدبيره . فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثا إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل : « يوم تبلى السرائر » . . السرائر المكنونة ، المطوية على الأسرار المحجوبة . . يوم تبلى وتختبر ، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر ؛ وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملفعة بالسواتر ! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر : « فماله من قوة ولا ناصر » . . ماله من قوة فى ذاته ، وماله من ناصر خارج ذاته . .

والتكشف من كل ستر ، مع التجرد من كل قوة ، يضاعف شدة الموقف ؟ ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير . وهو ينتقل من الكون والنفس ، إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة ، إلى نهاية المطاف هناك ، حيث يتكشف ستره ويكشف سره ، ويتجرد من القوة والنصير . . .

* * *

ولعل طائفا من شك ، أو بقية من ريب ، تكون باقية في النفس ، في أن هذا لابد كائن . . فمن ثم يجزم جزما بأن هذا القول هو القول الفصل ، ويربط بين هذا القول وبين مشاهد الكون ، كما صنع في مطلع السورة :

« والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل » . .

والرجع المطر ترجع به السماء مرة بعد مرة ، والصدع النبت يشق الأرض وينبثق .. وهما يمثلان مشهدا للحياة في صورة من صورها .حياة النبات ونشأته الأولى : ماء يتدفق من السماء، ونبت ينبثق من الأرض . . أشبه شيء بالماء الدافق من الصلب والترائب ؟ والجنين المنبثق من ظلمات الرحم . الحياة هي الحياة . والمشهد هو المشهد . والحركة هي الحركة . . نظام ثابت ، وصنعة معلمة ، تدل على الصانع . الذى لايشبهه أحد لافي حقيقة الصنعة ولا في شكلها الظاهر !

وهو مشهد قريب الشبه بالطارق . النجم الثاقب . وهو يشق الحجب والستائر . كما أنه قريب الشبه بابتلاء السرائر وكشف السواتر . . صنعة واحدة تشير إلى الصانع !

يقسم الله بهذين الكائنين وهذين الحدثين : السماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع.. حيث يوقع مشهدهما وإيحاؤهما ، كما يوحي جرس التعبير ذاته ، بالشدة والنفاذ والجزم . . يقسم بأن هذا القول الذى يقرر الرجعة والابتلاء — أو بأن هذا القرآن عامة—هو القول الفصل الذى لايتلبس به الهزل . القول الفصل الذى ينهى كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب .القول الذى ليس بعده قول . تشهد بهذا السماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع!

* * *

وفي ظل هذا القول الفصل بالرجعة والابتلاء يتجه الخطاب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو ومن معه من القلة المؤمنة في مكة يعانون من كيد المشركين ومؤامراتهم على الدعوة

والمؤمنين بها ـ وقد كانوا فى هم مقعد مقيم للكيد لها والتدبير ضدها وأخذ الطرق عليها وابتكار الوسائل فى حربها ـ يتجه الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتثبيت والتطمين ، وبالتهوين من أمر الكيد والكائدين . وأنه إلى حين . وأن المعركة بيده هو ـ سبحانه ـ وقيادته . فليصبر الرسول وليطمئن هو والمؤمنون :

« إنهم يكيدون كيدا ،وأكيد كيدا ، فمهل الكافرين ، أمهلهم رويدا » . .

إنهم ـ هؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ـ بلا حول ولا قوة ولا قدرة ولا إرادة ، ولا معرفة ولا هداية . والذين تولتهم يد القدرة فى رحلتهم الطويلة .والذين هم صائرون إلى رجعة تبلى فيها السرائر ، حيث لا قوة لهم ولا ناصر . . إنهم هؤلاء يكيدون كيدا . .

وأنا ـ أنا المنشىء . الهادى . الحافظ . الموجه . المعيد . المبتلى . القادر . القاهر . خالق السماء والطارق . وخالق الماء الدافق ، والإنسان الناطق ، وخالق السماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع . . أنا الله . . أكيد كيدا . .

فهذا كيد . وهذا كيد . وهذه هى المعركة . . . ذات طرف واحد فى الحقيقة . . وإن صورت ذات طرفين لمجرد السخرية والهزء !

« فمهل الكافرين » .. « أمهلهم رويدا » .. لا تعجل . ولا تستبطىء نهاية المعركة . وقد رأيت طبيعتها وحقيقتها . . فإنما هى الحكمة وراء الإمهال . الإمهال قليلا . . وهو قليل حتى لو استغرق عمر الحياة الدنيا . فما هو عمر الحياة الدنيا إلى جانب تلك الآباد المجهولة المدى ؟

ونلحظ فى التعبير الإيناس الإلهى للرسول : « فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » . . كأنه هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحب الأمر ، وصاحب الإذن ، وكأنه هو الذى يأذن بإمهالهم . أو يوافق على إمهالهم . وليس من هذا كله شىء للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هو الإيناس والود فى هذا الموضع الذى تنسم نسائم الرحمة على قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإيناس الذى يخلط بين رغبة نفسه وإرادة ربه . ويشركه فى الأمر كأن له فيه شيئا . ويرفع الفوارق والحواجز بينه وبين الساحة الإلهية التى يقضى فيها الأمر ويبرم . . وكأنما يقول له ربه : إنك مأذون فيهم . ولكن أمهلهم . أمهلهم رويدا . . فهو الود المطوف والإيناس اللطيف . يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد ، فتنمحى كلها وتذوب . . ويبقى العطف الودود . .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ * ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ .

« سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ ، إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ * فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ .

« بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ .

« إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ » ..

فى رواية للإمام أحمد عن الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يحب هـذه السورة : « سبح اسم ربك الأعلى » .. وفى صحيح مسلم أنه كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، و « هل أتاك حديث الغاشية » . وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما . .

وحق لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحب هذه السورة وهى تحيل له الكون كله معبدا تتجاوب أرجاؤه بتسبيح ربه الأعلى وتمجيده، ومهرضا يحفل بموحيات التسبيح والتحميد:

« سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » . . وإيقاع السورة الرخى المديديلقى ظلال التسبيح ذى الصدى البعيد . .

وحق له ـ صلى الله عليـه وسلم ـ أن يحبها،وهى تحمل لهمن البشريات أمرا عظيما . وربه يقول له ، وهو يكلفه التبليغ والتذكير : « سنقرئك فلاتنسى ـ إلاماشاء الله إنه يعلم الجهر ومايخفى ـ ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى » . . وفيها يتكفل له ربه بحفظ قلبه لهذا القرآن ، ورفع هـذه الـكلفة عن عاتقه . ويعده أن ييسره لليسرى فى كل أموره وأمور هذه الدعوة . وهو أمر عظيم جدا .

وحق له ـ صلىالله عليه وسلم ـ أن يحبها، وهى تتضمن الثابت من قواعدالتصور الإيمانى: من توحيد الرب الخالق وإثبات الوحى الإلهى ، وتقرير الجزاء فى الآخرة . وهى مقومات العقيدة الأولى . ثم تصل هذه العقيدة بأصولها البعيدة ، وجذورها الضاربة فى شعاب الزمان: « إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى » . . فوق ماتصوره من طبيعة هـذه العقيدة ، وطبيعة الرسول الذى يبلغها والأمة التى تحملها .. طبيعة اليسر والسماحة . .

وكل واحدة من هذه تحتها موحيات شتى ؛ ووراءها مجالات بعيدة المدى . .

* * *

« سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهـدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » . .

إن هذا الافتتاح ، بهذا المطلع الرخى المديد ، ليطلق فى الجو ابتداء أصداء التسبيح ، إلى جانب معنى التسبيح . وإن هذه الصفات التى تلى الأمر بالتسبيح : « الأعلى الذى خلق فسوى. والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » . . لتحيل الوجود كله معبدا يتجاوب جنباته بتلك الأصداء ؛ ومعرضا تتجلى فيه آثار الصانع المبدع : « الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى » . . .

والتسبيح هو التمجيد والتنزيه واستحضار معانى الصفات الحسنى لله ، والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور . وليست هى مجرد ترديد لفظ : سبحان الله ! . . و « سبح اسم ربك الأعلى » . . تطلق فى الوجـدان معنى وحالة يصعب تحـديدها باللفظ ، ولـكنها تتذوق بالوجـدان . وتوحى بالحياة مع الإشراقات المنبثقة من استحضار معانى الصفات .

والصفة الأولى القريبة فى هـذا النص هى صفة الرب . وصفة الأعلى . . والرب : المربى والراعى ، وظلال هـذه الصفة الحانيـة مما يتناسق مع جو السورة وبشرياتها وإيقاعاتها الرخية . . وصفة الأعلى تطلق التطلع إلى الآفاق التى لاتتناهى ؛ وتطلق الروح لتسبح وتسبح إلى غير مدى . . وتتناسق مع التمجيد والتنزيه ، وهو فى صميمه الشعور بصفة الأعلى . .

والخطاب هنا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتداء . وهذا الأمر صادر إليهمن ربه . بهذه الصيغة : « سبح اسم ربك الأعلى » . . وفيه من التلطف والإيناس مايجل عن التعبير . وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ يقرأ هـذا الأمر ، ثم يعقب عليـه بالاستجابة المباشرة ، قبل أن يمضى فى آيات السورة ، يقول : « سبحان ربى الأعلى » . . فهو خطاب ورده . وأمر وطاعته . وإيناس ومجـاوبته . . إنه فى حضرة ربه ، يتلقى مباشرة ويستجيب . فى أنس وفى اتصال قريب . . وحينما نزلت هذه الآية قال : « اجعلوها فى سجودكم » . وحينما نزلت قبلها : « فسبح باسم ربك العظيم » . . قال : « اجعـلوها فى ركوعـكم » . . فهـذا التسبيح فى الركوع والسجود كلة حيـة ألحقت بالصلاة وهى دافئـة بالحياة . لتـكون استجابة مباشرة لأمر مباشر . أو بتعبير أدق . . لإذن مباشر . . فإذن الله لعبـاده بأن يحمدوه ويسبحوه إحـدى نعمه عليهم وأفضاله . إنه إذن بالاتصال به ـ سبحانه ـ فى صورة مقربة إلى مدارك البشر المحدودة . صورة تفضل الله عليهم بها ليعرفهم ذاته . فى صفاته . فى الحـدود التى يملـكون أن يتطلعوا إليها . وكل إذن للعباد بالاتصال بالله فى أية صورة من صور الاتصال ،هو مكرمة له وفضل على العباد .

« سبح اسم ربك الأعلى » . . « الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . . »

الذى خلق كل شىء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الـكمال الذى يناسبه .. والذى قدر لـكل مخلوق وظيفته وطريقه وغايته فهداه إلى ماخلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ؛ وقدر له مايصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه أيضا . .

وهذه الحقيقة الـكبرى ماثلة فى كل شىء فى هذا الوجود ؛ يشهد بها كل شىء فى رحاب الوجود . من الـكبير إلى الصغير . ومن الجليـل إلى الحقير . . كل شىء مسوى فى صنعته ، كامل فى خلقته . معد لأداء وظيفته . مقدر له غاية وجوده ، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق .. وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق، ميسرة لـكى تؤدى فى تجمعها دورها الجماعى ؛ مثلما هى ميسرة فرادى لـكى تؤدى دورها الفردى .

الذرة بمفردها كاملة التناسق بين كهاربها وبروتوناتها وإلكتروناتها ، شأنها شأن المجموعة الشمسية فى تناسق شمسها وكواكبها وتوابعها . . وهى تعرف طريقها وتؤدى مثلها وظيفتها . .

والخليـة الحية المفردة كاملة الخلقـة والاستعداد لأداء وظائفها كلها ، شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة .

وبين الذرة المفردة والمجموعة الشمسية ؛ كما بين الخليـة الواحدة وأرقى الـكائنات الحية ، درجات من التنظيمات والتركيبات كلها فى مثل هذا الـكمال الخلقى ، وفى مثل هـذا التناسق الجماعى ، وفى مثل هذا التدبير والتقدير الذى يحكمها ويصرفها . . والـكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة . .

هذه الحقيقة يدركها القلب البشرى جملة حين يتلقى إيقاعات هـذا الوجود ؛ وحين يتدبر الأشيـاء فى رحابه بحس مفتوح . وهـذا الإدراك الإلهامى لايستعصى على أى إنسان فى أية بيئة ، وعلى أية درجة من درجات العلم الـكسبى ، متى تفتحت منافذ القلب ، وتيقظت أوتاره لتلقى إيقاعات الوجود .

والملاحظة بعـد ذلك والعلم الـكسبى يوضحان بالأمثلة الفردية مايدركه الإلهـام بالنظرة الأولى . . وهناك من رصيد الملاحظة والدراسة مايشير إلى طرف من تلك الحقيقة الشاملة لـكل مافى الوجود . .

يقول العالم (ا . كريسى موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيورك فى كتابه : « الإنسان لايقوم وحده [١] »

« إن الطيور لها غريزة العودة إلى الوطن . فعصفور الهزاز الذى عشش ببابك يهاجر جنوبا فى الخريف . ولـكنه يعود إلى عشه فى الربيع التالى . وفى شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا [٢] إلى الجنوب . وقد تقطع فى الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار . ولـكنها لاتضل طريقها . وحمـام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليـه فى رحلة طويلة داخل قفص ، يحوم برهة ثم يقصد قدما إلى موطنه دون أن يضل . . والنحلة تجـد

(١) ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلـكى بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .
(٢) أى طيور أمريـكا .

خليتها مهما طمست الريح ،فى هبوبها على الأعشاب والأشجار ، كل دليل يرى . وحاسة العودة إلى الوطن هـذه هى ضعيفة فى الإنسان ، ولـكنه يـكمل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة . ونحن فى حاجة إلى هذه الغريزة ، وعقولنا تسد هـذه الحاجة . ولا بد أن للحشرات الدقيقة عيونا ميـكروسكوبية (مـكبرة) لا ندرى مبلغها من الإحكام ؛ وأن للصقور بصرا تلسكوبيا (مـكبرا مقربا) . وهنا أيضا يتفوق الإنسان بأدواته الميـكانيـكية فهو بتلسكوبه يبصر سديما بلغ من الضعف أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة إبصاره مليونى مرة ليراه . وهو بمـكروسكوبه الـكهربائى يستطيع أن يرى بـكتريا كانت غير مرئية (بل كذلك الحشرات الصغيرة التى تمضها !) .

« وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده ، فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل . وهو يقـدر أن يرى ولو فى غير وضوح . ولـكنه يلحظ اختلاف درجة الحرارة فى الطريق وجانبيه ، بعينين تأثرتا قليلا بالأشعة تحت الحمـراء التى للطريق . والبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافىء اللطيف وهو يجرى على العشب البارد مهما تـكن ظلمة الليل . ونحن نقلب الليل نهارا بإحداث إشعاع فى تلك المجموعة التى نسميها الضوء » . .

. . . « إن العاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الأحجام فى المشط الذى يستخدم فى التربية . وتعد الحجرات الصغيرات للعمال ، والأكبر منها لليعاسيب (ذكور النحل) وتعد غرفة خاصة للملـكات الحـوامل . والنحلة الملـكية تضع بيضا غير مخصب فى الخلايا المخصصة للذكور ، وبيضا مخصبا فى الحجرات الصحيحة المعدة للعاملات الإناث والملـكات المنتظرات . والعاملات اللائى هن إناث معدلات بعد أن انتظرن طويلا مجىء الجيل الجـديد ، تهيأن أيضا لإعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل واللقح ومقدمات هضمه . ثم ينقطعن عن عملية المضغ ومقدمات الهضم عند مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث ، ولا يغذين سوى العسل واللقح . والإناث اللاتى يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات » .

«أما الإناث اللاتى فى حجرات الملـكة ،فإن التغذية بالمضغ ومقدمات الهضم تستمر بالنسبة لهن . وهؤلاء اللاتى يعاملن هذه المعاملة الخاصة يتطورن إلى ملـكات نحل ، وهن وحدهن اللائى ينتجن بيضا مخصبا .وعملية تـكرار الإنتاج هذه تتضمن حجرات خاصة ، وبيضا خاصا ، كما تتضمن الأثر العجيب الذى لتغيير الغذاء ، وهذا يتطلب الانتظار والتمييز وتطبيق اكتشاف

أثر الغذاء ! وهذه التغيرات تنطبق بوجه خاص على حياة الجماعة ، وتبدو ضرورية لوجودها . ولا بد أن المعرفة والمهارة اللازمتين لذلك قد تم اكتسابهما بعد ابتداء هذه الحياة الجماعية ، وليستا بالضرورة ملازمتين لتكوين النحل ولا لبقائه على الحياة . وعلى ذلك فيبدو أن النحل قد فاق الإنسان فى معرفة تأثير الغذاء تحت ظروف معينة !

« والكلب بما أوتى من أنف فضولى يستطيع أن يحس الحيوان الذى مر . وليس ثمة من أداة من اختراع الإنسان لتقوى حاسة الشم الضعيفة لديه . ومع هذا فإن حاسة الشم الخاصة بنا — على ضعفها — قد بلغت من الدقة أنها يمكنها أن تتبين الذرات المكروسكوبية البالغة الدقة . .

« وكل الحيوانات تسمع الأصوات التى يكون كثير منها خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا، وذلك بدقة تفوق كثيرا حاسة السمع المحدودة عندنا . وقد أصبح الإنسان يستطيع بفضل وسائله أن يسمع صوت ذبابة تطير على بعد أميال ، كما لو كانت فوق طبلة أذنه . ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يسجل وقع شعاع شمسى !

« إن إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عشا على شكل منطاد (بالون) من خيوط العنكبوت . وتعلقه بشىء ما تحت الماء . ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء فى شعر جسمها ، وتحملها إلى الماء ، ثم تطلقها تحت العش . ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش . وعندئذ تلد صغارها وتربيها ، آمنة عليها من هبوب الهواء . فهاهنا نجد طريقة النسج ، بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية !

وسمك « السلمون » الصغير يمضى سنوات فى البحر ، ثم يعود إلى نهره الخاص به . والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذى يصب عنده النهير الذى ولد فيه . . فما الذى يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد ؟ إن سمكة السلمون التى تصعد فى النهر صعدا إذا نقلت إلى نهير آخر أدركت توا أنه ليس جدولها . فهى لذلك تشق طريقها خلال النهر ، ثم تحيد ضد التيار ، قاصدة إلى مصيرها !

« وهناك لغز أصعب من ذلك يتطلب الحل ، وهو الخاص بثعابين الماء التى تسلك عكس هذا المسلك ، فإن تلك المخلوقات العجيبة متى اكتمل نموها ، هاجرت من مختلف البرك والأنهار . وإذا كانت فى أوربا قطعت آلاف الأميال فى المحيط قاصدة كلها إلى الأعماق

السحيقة جنوبى برمودا . وهناك تبيض وتموت . أما صغارها تلك التى لاتملك وسيلة لتعرفه بها أى شىء سوى أنها فى مياه قفرة ـ فإنها تعود أدراجها وتجـد طريقها إلى الشاطىء الذى جاءت منه أمهاتها . ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة . ولذا يظل كل جسم من الماء آهلا بثعابين البحار . لقد قاومت التيارات القوية ، وثبتت للأمداد والمواصف ، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطىء . وهى الآن يتاح لها النمو . حتى إذا اكتمل نموها دفعها قانون خفى إلى الرجوع حيث كانت بعـد أن تتم الرحـلة كلها . فمن أين ينشأ الحافز الذى يوجهها لذلك ؟ لم يحـدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريـكى فى المياه الأوربية ، أو صيد ثعبان ماء أوربى فى المياه الأمريكية . والطبيعة تبطىء فى إنماء ثعبان الماء الأوربى مدة سنة أو أكثر لتعوض من زيادة مسافة الرحـلة التى يقطعها (إذ أن مسافته أطول من مسافة زميـله الأمريـكى) ترى هل الذرات والهباءات إذا توحـدت معاً فى ثعبان ماء يـكون لها حاسة التوجيه وقوة الإرادة اللازمة للتنفيذ ؟ !

. . . « وإذا حمـل الريح فراشة أنثى من خلال نافذة إلى علية بيتك ، فإنها لاتلبث حتى ترسل إشارة خفيـة . وقد يـكون الذكر على مسافة بعيـدة . ولـكنه يتلقى هـذه الإشارة ويجاوبها ،مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلهما . ترى هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة ؟ وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلى ، فضلا عن السلك اللاقط للصوت (إيريال) ؟ أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز ؟ !

. . . « إن التليفون والراديو هما من العجائب الآلية . وهما يتيحان لنا الاتصال السريع . ولـكنا مرتبطون فى شأنهما بسلك ومكان . وعلى ذلك لاتزال الفراشة متفوقة علينا من هـذه الوجهة » . .

« والنبات يتحايل على استخدام وكلاء لمواصلة وجوده دون رغبة من جانبهم ! كالحشرات التى تحمل اللقح من زهرة إلى أخرى ، والرياح ، وكل شىء يطير أو يمشى ، ليوزع بذوره . وأخيرا أوقع النبات الإنسان ذا السيادة فى الفخ ! فقد حسن الطبيعة وجازته بسخاء . غير أنه شديد التـكاثر ؛ حتى أصبح مقيدا بالمحراث ، وعليه أن يبذر ويحصد ويخزن ، وعليه أن يربى ويهجن ، وأن يشذب ويطعم . وإذا هو أغفل هذه الأعمال كانت المجاعة نصيبه ، وتدهورت المدنية ، وعادت الأرض إلى حالتها الفطرية ! » .

« وكثير من الحيوانات هى مثل « سرطان البحر » الذى إذا فقد مخلبا عرف أن جزءا من جسمه قد ضاع ، وسارع إلى تعويضه بإعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة ؛ ومتى تم ذلك كفت الخلايا عن العمل ، لأنها تعرف بطريقة ماأن وقت الراحة قد حان !

« وكثير الأرجل المائى إذا انقسم إلى قسمين استطاع أن يصلح نفسه عن طريق أحد هذين النصفين . وأنت إذا قطعت رأس دودة الطعم تسارع إلى صنع رأس بدلا منه . ونحن نستطيع أن ننشط التئام الجروح ، ولكن متى يتاح للجراحين أن يعرفوا كيف يحركون الخلايا لتنتج ذراعا جديدة ، أو لحما أو عظاما أو أظافر أو أعصابا ؟ — إذا كان ذلك فى حيز الإمكان ؟ !

« وهناك حقيقة مدهشة تلقى بعض الضوء على لغز هذا الخلق من جديد : فإن الخلايا فى المراحل الأولى من تطورها ، إذا تفرقت ، صار لكل منها القدرة على خلق حيوان كامل . ومن ثم فإنه إذا انقسمت الخلية الأولى إلى قسمين ، وتفرق هذان ، تطور منهما فردان . وقد يكون فى ذلك تفسير لتشابه التوأمين . ولكنه يدل على أكثر من ذلك . وهو أن كل خلية فى البداية يمكن أن تكون فردا كاملا بالتفصيل . فليس هناك شك إذن ، فى أنك أنت ، فى كل خلية ونسيج ! »

ويقول فى فصل آخر :

« إن جوزة البلوط تسقط على الأرض ، فتحفظها قشرتها السمراء الجامدة ، وتتدحرج فى حفرة ما من الأرض ، وفى الربيع تستيقظ الجرثومة ، فتنفجر القشرة ، وتزدرد الطعام من اللب الشبيه بالبيضة الذى اختفت فيه « الجينات » (وحدات الوراثة) وهى تمد الجذور فى الأرض ، وإذا بك ترى فرخا أو شتلة (شجيرة) وبعد سنوات شجرة ! وإن الجرثومة بما فيها من جينات قد تضاعفت ملايين الملايين ، فصنعت الجذع والقشرة وكل ورقة وكل ثمرة ، مماثلة لتلك التى لشجرة البلوط التى تولدت عنها . وفى خلال مئات السنين قدبقى من ثمار البلوط التى لاتحصى نفس ترتيب الذرات تماما الذى أنتج أول شجرة بلوط منذ ملايين السنين [1] »

وفى فصل ثالث يقول :

« وكل خلية تنتج فى أى مخلوق حى يجب أن تكيف نفسها لتكون جزءا من اللحم .

---

(١) يراجع ماجاء عن رحلة النطفة الجنينية فى سورة « والسماء والطارق » . .

أو أن تضحى بنفسها كجزء من الجلد الذى لايلبث حتى يبلى . وعليها أن تضع ميناء الأسنان ، وأن تنتج السائل الشفاف فى العين ، أو أن تدخل فى تكوين الأنف أو الأذن . ثم على كل خلية أن تكيف نفسها من حيث الشكل وكل خاصية أخرى لازمة لتأدية مهمتها . ومن العسير أن نتصور أن خلية ما هى ذات يد يمنى أو يسرى . ولكن إحدى الخلايا تصبح جزءا من الأذن اليمنى ، بينما الأخرى تصبح جزءا من الأذن اليسرى .

. . . « وإن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشىء الصواب فى الوقت الصواب . وفى المكان الصواب » !

وفى فصل رابع . .

. . . « فى خليط الخلق قد أتيح لكثير من المخلوقات أن تبدى درجة عالية من أشكال معينة من الغريزة أو الذكاء أو ما لا ندرى . فالدبور مثلا يصيد الجندب النطاط ، ويحفر حفرة فى الأرض ، ويخز الجندب فى المكان المناسب تماما حتى يفقد وعيه ، ولكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ . . وأنثى الدبور تضع بيضا فى المكان المناسب بالضبط ، ولعلها لاتدرى أن صغارها حين تفقس يمكنها أن تتغذى ، دون أن تقتل الحشرة التى هى غذاؤها ، فيكون ذلك خطرا على وجودها . ولابد أن الدبور قد فعل ذلك من البداية وكرره دائما ، وإلا مابقيت زنابير على وجه الأرض . . والعلم لايجد تفسيرا لهذه الظاهرة الخفية ، ولكنها مع ذلك لايمكن أن تنسب إلى المصادفة !

« وإن أنثى الدبور تغطى حفرة فى الأرض ، وترحل فرحا ، ثم تموت . فلا هى ولا أسلافها قد فكرت فى هذه العملية ، وهى لاتعلم ماذا يحدث لصغارها ، أو أن هناك شيئا يسمى صغارا . . بل إنها لاتدرى أنها عاشت وعملت لحفظ نوعها !

. . . « وفى بعض أنواع النمل يأتى العملة منه بحبوب صغيرة لإطعام غيرها من النمل فى خلال فصل الشتاء . وينشىء النمل ماهو معروف « بمخزن الطحن » وفيه يقوم النمل الذى أوتى أفكاكا كبيرة معدة للطحن ، بإعداد الطعام للمستعمرة . وهذا هو شاغلها الوحيد . وحين يأتى الخريف ، وتكون الحبوب كلها قد طحنت ، فإن « أعظم خير لأكبر عدد » يتطلب حفظ تلك المؤونة من الطعام . ومادام الجيل الجديد سينتظم كثيرا من النمل الطحان، فإن جنود النمل تقتل النمل الطاحن الموجود . ولعلها ترضى ضميرها الحشرى بأن ذلك النمل قد نال جزاءه الكافى ، إذ كانت له الفرصة الأولى فى الإفادة من الغذاء أثناء طحنه !

« وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير (واختر منهما مايحلو لك) إلى زرع أعشاش للطعام فما يمكن تسميته « بحدائق الأعشاش » . وتصيد أنواعا معينة من الدود والأرق أو البرق (وهى حشرات صغيرة تسبب آفة النـدوة العسلية) فهـذه المخلوقات هى بقر النمل وعنزاتها ! ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليـكون طعاما له .

« والنمل يأسر طوائف منه ويسترقها . وبعض النمل حين يصنع أعشاشه ، يقطع الأوراق مطابقة للحجم المطلوب . وبينما يضع بعض عملة النمل الأطراف فى مكانها ، تستخدم صغارها — التى وهى فى الدور اليرقى تقدر أن تغزل الحرير — لحياكتها معاً ! وربما حرم طفل النمل عمل شرنقة لنفسه ، ولـكنه قد خدم الجماعة !

« فـكيف يتاح لذرات المـادة التى تتـكون منها النملة ، أن تقوم بهذه العمليات المعقدة ؟

« لاشك أن هناك خالقا أرشدها إلى كل ذلك » . . انتهى . .

أجل . لاشك أن هناك خالقا أرشدها ، وأرشد غيرها من الخلائق . كبيرها وصغيرها إلى كل ذلك . . إنه « الأعلى الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى » . .

وهذه النماذج التى اقتطفناها من كلام ذلك العالم ليست سوى طرف صغير من الملاحظات التى سجلها البشر فى عوالم النبات والحشرات والطيور والحيوان . ووراءها حشود من مثلها كثيرة . . وهذه الحشود لاتزيد على أن تشير إلى جانب صغير من مدلول قوله تعالى : « الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » . . فى هذا الوجود المشهود الذى لانعرف عنه إلا أقل من القليل . ووراءه عالم الغيب الذى ترد لنا عنه لمحات فيما يحدثنا الله عنه ؛ بالقـدر الذى يطيقه تـكويننا البشرى الضعيف !

* * *

وبعـد عرض هـذا المدى المتطاول ، من صفحة الوجود الـكبيرة ، وإطلاق التسبيح فى جنباته ، تتجاوب به أرجاؤه البعيدة ، يـكمل التسبيحة الـكبرى بلمسة فى حيـاة النبات لهـا إيحاؤها ولها مغزاها :

« والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » . .

والمرعى كل نبات . وما من نبات إلا وهو صالح لحلق من خلق الله . فهو هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا . فالله خلق هـذه الأرض وقدر فيها أقواتها لـكل حى يدب فوق ظهرها أو يختبىء فى جوفها ، أو يطير فى جوها .

والمرعى يخرج فى أول أمره خضرا ، ثم يذوى فإذا هو غثاء ، أميل إلى السواد فهو أحوى . وقد يصلح أن يكون طعاما وهو أخضر ، ويصلح أن يكون طعاما وهو غثاء أحوى . وما بينهما فهو فى كل حالة صالح لأمر من أمور هذه الحياة ، بتقدير الذى خلق فسوى وقدر فهدى . .

والإشارة إلى حياة النبات هنا توحى من طرف خفى ، بأن كل نبت إلى حصاد وأن كل حى إلى نهاية . وهى اللمسة التى تتفق مع الحديث عن الحياة الدنيا والحياة الأخرى ... « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » . . والحياة الدنيا كهذا المرعى ، الذى ينتهى فيكون غثاء أحوى . . والآخرة هى التى تبقى .

* * *

وبهذا المطلع الذى يكشف عن هذا المدى المتطاول من صفحة الوجود الكبيرة . . تتصل حقائق السورة الآتية فى سياقها ، بهذا الوجود ؛ ويتصل الوجود بها ، فى هذا الإطار العريض الجميل . والملحوظ أن معظم السور فى هذا الجزء تتضمن مثل هذا الإطار . الإطار الذى يتناسق مع جوها وظلها وإيقاعها تناسقا كاملا (١) .

* * *

بعدئذ يجىء بتلك البشرى العظيمة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته من ورائه :

« سنقرئك فلا تنسى ـ إلا ماشاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ـ ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى » . .

وتبدأ البشرى برفع عناء الحفظ لهذا القرآن والكد فى إمساكه عن عاتق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سنقرئك فلا تنسى » . . فعليه القراءة يتلقاها عن ربه ، وربه هو المتكفل بعد ذلك بقلبه ، فلا ينسى مايقرئه ربه .

وهى بشرى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تريحه وتطمئنه على هذا القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه . الذى كان يندفع بعاطفة الحب له ، وبشعور الحرص عليه ، وبإحساس التبعة العظمى فيه . . إلى ترديده آية آية وجبريل يحمله إليه ، وتحريك لسانه به خيفة أن ينسى حرفا منه . حتى جاءته هذه البشائر المطمئنة بأن ربه سيتكفل بهذا الأمر عنه .

---

(١) يراجع فصل التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

وهى بشرى لأمته من ورائه ، تطمئن بها إلى أصل هـذه العقيدة . فهى من الله . والله كافلها وحافظها فى قلب نبيها . وهذا من رعايته سبحانه ، ومن كرامة هذا الدين عنده ، وعظمة هذا الأمر فى ميزانه .

وفى هذا الموضع كما فى كل موضع يرد فيه وعد جازم ، أو ناموس دائم ، يرد مايفيد طلاقة المشيئة الإلهيـة من وراء ذلك ، وعدم تقيدها بقيـد ما ولو كان هـذا القيد نابعا من وعدها وناموسها . فهى طليقة وراء الوعد والناموس . ويحرص القرآن على تقرير هـذه الحقيقة فى كل موضع ـ كما سبق أن مثلنا لهذا فى الظلال ـ ومن ذلك ماجاء هنا :

« إلا ماشاء الله » . . فهو الاحتراس الذى يقرر طلاقة المشيئة الإلهية ، بعد الوعد الصادق بأنه لاينسى . ليظل الأمر فى إطار المشيئة الـكبرى ؛ ويظل التطلع دائما إلى هـذه المشيئة حتى فيما سلف فيه وعد منها . ويظل القلب معلقا بمشيئة الله حيا بهذا التعلق أبدا . .

« إنه يعلم الجهر وما يخفى » . . وكأن هـذا تعليل لما مر فى هـذا المقطع من الإقـرار والحفظ والاستثناء . . فـكلها ترجع إلى حـكمة يعلمها من يعلم الجهر وما يخفى ؛ ويطلع على الأمر من جوانبـه جميعا ، فيقرر فيـه ماتقتضيه حـكمته المستندة إلى علمـه بأطراف الأمر جميعا .

* * *

والبشرى الثانية الشاملة :

« ونيسرك لليسرى » . .

بشرى لشخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبشرى لأمته من ورائه . وتقرير لطبيعة هذا الدين ، وحقيقة هـذه الدعوة ، ودورها فى حياة البشر ، وموضعها فى نظام الوجود . . وإن هاتين الـكلمتين : « ونيسرك لليسرى » ، لتشتملان على حقيقة من أضخم حقائق هـذه العقيدة ، وحقائق هـذا الوجود أيضا . فهى تصل طبيعة هـذا الرسول بطبيعة هـذه العقيدة بطبيعة هذا الوجود . الوجود الخارج من يد القدرة فى يسر . السائر فى طريقه بيسر . المتجه إلى غايته بيسر . فهى انطلاقة من نور ؛ تشير إلى أبعاد وآماد وآفاق من الحقيقة ليس لها حدود . . .

إن الذى ييسره الله لليسرى ليمضى فى حياته كلها ميسرا . يمضى مع هـذا الوجود المتناسق

التركيب والحركة والاتجاه . . إلى الله . . فلا يصطدم إلا مع المنحرفين عن خط هـذا الوجود الكبير — وهم لاوزن لهم ولا حساب حين يقاسون إلى هذا الوجود الكبير — يمضى فى حركة يسيرة لطيفة هينة لينة مع الوجود كله ومع الأحداث والأشياء والأشخاص ، ومع القدر الذى يصرف الأحداث والأشياء والأشخاص. اليسر فى يده . واليسر فى لسانه . واليسر فى خطوه . واليسر فى عمله واليسر فى تصوره . واليسر فى تفكيره . واليسر فى أخذه للأمور. واليسر فى علاجه للأمور . اليسر مع نفسه واليسر مع غيره .

وهكذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى كل أمره . . ماخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما روت عنه عائشة — رضى الله عنها [1] — وكما قالت عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا فى بيته ألين الناس ، بساما ضحاكا » وفى صحيح البخارى : « كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت » !

وفى هديه — صلى الله عليه وسلم — فى اللباس والطعام والفراش وغيرها مايعبر عن اختيار اليسر وقلة التكلف البتة .

جاء فى زاد المعاد لشمس الدين أبى عبد الله محمد ابن قيم الجوزية ، عن هديه — صلى الله عليه وسلم — فى « ملابسه » : « كانت له عمامة تسمى السحاب كساها علياً ، وكان يلبسها ويلبس تحتها القلنسوة .وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة ، ويلبس العمامة بغير قلنسوة . وكان إذا اعتم أرخى عمامته بين كتفيه — كما رواه مسلم فى صحيحه . عن عمر ابن حريث قال : رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه . وفى مسلم أيضا عن جابر ذؤابة ، فدل على أن الذؤابة لم يكن يرخيها دائما بين كتفيه . وقد يقال : إنه دخل مكة وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه فلبس فى كل موطن مايناسبه » .

وفى فصل آخر قال : « والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — التى سنها وأمر بها ورغب فيها وداوم عليها . وهى أن هديه فى اللباس أن يلبس ماتيسر من اللباس . من الصوف تارة ، والقطن تارة ، والكتان تارة . ولبس البرود اليمانية والبرد الأخضر .ولبس الجبة والقباء والقميص والسراويل والإزار والرداء والخف والنعل ،وأرخى الذؤابة من خلفه تارة وتركها تارة . . الخ » .

(١) أخرجه الشيخان عن عائشة .

وقال فى هديه فى الطعام : « وكذلك كان هديه — صلى الله عليه وسلم — وسيرته فى الطعام، لايرد موجودا ولا يتكلف مفقودا . فما قرب إليه شىء من الطيبات إلا أكله — إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم — وماعاب طعاما قط . إن اشتهاه أكله ،وإلا تركه ، كما ترك أكل الضب لما لم يعتده ، ولم يحرمه على الأمة ، بل أكل على مائدته وهو ينظر . وأكل الحلوى والعسل — وكان يحبهما — وأكل الرطب والتمر ، وشرب اللبن خالصاً ومشوبا والسويق والعسل بالماء ، وشرب نقيع التمر ، وأكل الخزيرة — وهى حساء يتخذ من اللبن والدقيق — وأكل القثاء بالرطب ، وأكل الأقط ، وأكل التمر بالخبز ، وأكل الخبز بالخل ، وأكل القديد ، وأكل الدباء المطبوخة — وكان يحبها — وأكل المسلوقة ، وأكل الثريد بالسمن ، وأكل الجبن ، وأكل الخبز بالزيت ، وأكل البطيخ بالرطب . وأكل التمر بالزبد — وكان يحبه — ولم يكن يرد طيبا ولا يتكلفه ، بل كان هديه أكل ماتيسر ، فإن أعوزه صبر . . . الخ » .

وقال عن هديه فى نومه وانتباهه : « كان ينام على فراشه تارة وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة ، وعلى السرير تارة بين رماله ، وتارة على كساء أسود » . .

وأحاديثه التى تحض على اليسر والسماحة والرفق فى تناول الأمور — وفى أولها أمر العقيدة وتكاليفها — كثيرة جدا يصعب تقصيها . من هذا قوله — صلى الله عليه وسلم — : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » (أخرجه البخارى) . . « لاتشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم . . . » (أخرجه أبو داود) . . إن المنبتّ لاأرضا قطع ولا ظهرا أبقى » (أخرجه البخارى) . . « يسروا ولا تعسروا » (أخرجه الشيخان) .

وفى التعامل : «رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى» (أخرجه البخارى) « المؤمن هين لين» (أخرجه البيهقى) « المؤمن يألف ويؤلف » (أخرجه الدار قطنى .) « إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم » (أخرجه الشيخان) .

ومن اللمحات العميقة الدلالة كراهيته — صلى الله عليه وسلم — للعسر والصعوبة حتى فى الأسماء وسمات الوجوه، ممايوحى بحقيقةفطرته وصنع ربه بها وتيسيره لليسرى انطباعاوتكوينا . .

عن سعيد ابن المسيب عن أبيه ــ رضى الله عنه ــ أنه جاء للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : ما اسمك ؟ قال : حَزْن (أى صعب وعر) قال : بل أنت سهل . قال : لاأغير اسما سمانيه أبى ! قال ابن المسيب رحمه الله: «فما زالت فينا حزونة بعد » ! (أخرجه البخارى) .. « وعن ابن عمر رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ غير اسم عاصية وسماها جميلة » (أخرجه مسلم) . ومن قوله : « إن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » (أخرجه الترمذى) . .

فهو الحس المرهف الذى يلمح الوعورة والشدة حتى فى الأسماء والملامح فينفر منها ، ويميل بها إلى اليسر والهوادة !

وسيرة رسول الله ــصلى الله عليه وسلم ــ كلها صفحات من السماحة واليسر والهوادة واللين والتوفيق إلى اليسر فى تناول الأمور جميعا .

وهذا مثل من علاجه للنفوس ، يــكشف عن طريقته ــ صلى الله عليه وسلم ــ وطبيعته :

« جاءه أعرابى يوما يطلب منه شيئا فأعطاه . قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى :لا . ولا أجملت ! فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ؟ فأشار إليهم أن كفوا . ثم دخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئا . ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم . فجــزاك الله من أهل ومن عشيرة خيرا . فقال له النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إنك قلت ماقلت وفى نفس أصحــابى شىء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم مافيها عليك . قال : نعم . فلما كان الغــداة جاء ، فقال النبى ــ صلى الله عليــه وسلم ــ : إن هــذا الأعرابى قال ماقال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى . أكذلك ؟ فقال الأعرابى : نعم ، فجــزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليــه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخــذ لها من قمــام الأرض ، فردها هونا هونا ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها . وإنى لو تركتــكم حيث قال الرجل ماقال فقتلتموه دخل النار » . .

فهــكذا كان أخذه ــ صلى الله عليه وسلم ــ للنفوس الشاردة . بهــذه البساطة ، وبهــذا اليسر ، وبهذا الرفق وبهذا التوفيق .. والنماذج شتى فى سيرته كلها .وهى من التيسير لليسرى كما بشره ربه ووفقه فى حياته وفى دعوته وفى أموره جميعا . . .

هذه الشخصية الكريمة الحبيبة الميسرة لليسرى كانت كذلك لكى تحمل إلى البشرية هذه الدعوة . فتكون طبيعتها من طبيعتها ، وحقيقتها من حقيقتها، وتكون كفاء للأمانة الضخمة التى حملتها ــ بتيسير الله وتوفيقه ــ على ضخامتها ... حيث تتحول الرسالة بهذا التيسير من عبء مثقل ، إلى عمل محبب ، ورياضة جميلة ، وفرح وانشراح . .

وفى صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصفة وظيفته التى جاء ليؤديها ورد فى القرآن الكريم : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١) » . . « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم (٢) » فقد جاء ــ صلى الله عليه وسلم ــ رحمة للبشرية . جاء ميسرا يضع عن كواهل الناس الأثقال والأغلال التى كتبت عليهم ، حينما شددوا فشدد عليهم .

وفى صفة الرسالة التى حملها ورد : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣)» .. « وما جعل عليكم فى الدين من حرج (٤) » . . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها (٥) » . . « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم (٦) » فقد جاءت هذه الرسالة ميسرة فى حدود الطاقة لا تكلف الناس حرجا ولا مشقة . وسرى هذا اليسر فى روحها كما سرى فى تكاليفها « فطرة الله التى فطر الناس عليها (٧) » .

وحينما سار الإنسان مع هذه العقيدة وجد اليسر ومراعاة الطاقة البشرية ، والحالات المختلفة للإنسان ، والظروف التى يصادفها فى جميع البيئات والأحوال . . العقيدة ذاتها سهلة التصور . إله واحد ليس كمثله شىء . أبدع كل شىء ، وهداه إلى غاية وجوده . وأرسل رسلا تذكر الناس بغاية وجودهم ، وتردهم إلى الله الذى خلقهم . والتكاليف بعد ذلك كلها تنبثق من هذه العقيدة فى تناسق مطلق لاعوج فيه ولا انحراف . وعلى الناس أن يأتوا منها بما فى طوقهم بلا حرج ولا مشقة : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه مااستطعتم ، وما نهيتكم عنه

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧
(٢) الأعراف : ١٥٧
(٣) القمر : ٢٢
(٤) الحج : ٧٨
(٥) البقرة : ٢٨٦
(٦) الأحزاب : المائدة٦
(٧) الروم : ٣٠

فاجتنبوه[1] » .. والنهى عنه لاحرج فيه فى حالة الضرورة : « إلا ما اضطررتم إليه[2] » .. وبين هذه الحدود الواسعة تنحصر جميع التكاليف . .

ومن ثم التقت طبيعة الرسول بطبيعة الرسالة ، والتقت حقيقة الداعى بحقيقة الدعوة . فى هذه السمة الأصيلة البارزة . وكذلك كانت الأمة التى جاءها الرسول الميسر بالرسالة الميسرة . فهى الأمة الوسط ، وهى الأمة المرحومة الحاملة للرحمة. الميسرة الحاملة لليسر .. تتفق فطرتها هذه مع فطرة هذا الوجود الكبير . . .

وهذا الوجود بتناسقه وانسياب حركته يمثل صنعة الله من اليسر والانسياب الذى لاتصادم فيه ولااحتكاك . . ملايين الملايين من الأجرام تسبح فى فضاء الله وتنساب فى مداراتها متناسقة متجاذبة ،لا تصطدم ولاتضطرب ولاتميد .. وملايين الملايين من الخلائق الحية تجرى بها الحياة إلى غاياتها القريبة والبعيدة فى انتظام وفى إحكام . وكل منها ميسر لما خلق له ، سائر فى طريقه إلى غاية . وملايين الملايين من الحركات والأحداث والأحوال تتجمع وتتفرق وهى ماضية فى طريقها كنغمات الفرقة العازفة بشتى الآلات ، لتجتمع كلها فى لحن واحد طويل مديد !

إنه التوافق المطلق بين طبيعة الوجود ، وطبيعة الرسالة ، وطبيعة الرسول ، وطبيعة الأمة المسلمة .. صنعة الله الواحد ، وفطرة المبدع الحكيم .

« فذكر إن نفعت الذكرى » ..

لقد أقرأه فلاينسى (إلا ماشاء الله) ويسره لليسرى . لينهض بالأمانة الكبرى . . ليذكر . فلهذا أعد ، ولهذا بُشر . . فذكر حيثما وجدت فرصة للتذكير ، ومنفذا للقلوب ، ووسيلة للبلاغ . ذكر « إن نفعت الذكرى » . . والذكرى تنفع دائما ،ولن تعدم من ينتفع بها كثيرا كان أو قليلا . ولن يخلو جيل ولن تخلو أرض ممن يستمع وينتفع ، مهما فسد الناس وقست القلوب وران عليها الحجاب ..

وحين نتأمل هذا الترتيب فى الآيات ، ندرك عظمة الرسالة ، وضخامة الأمانة ، التى اقتضت للنهوض بها هذا التيسير لليسرى ، وذلك الإقراء والحفظ وتكفل الله بهما ؛ كى ينهض الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعبء التذكير ، وهو مزود بهذا الزاد الكبير .

فإذ نهض ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهذا العبء فقد أدى ماعليه ،والناس بعد ذلك وشأنهم ؛

---

(١) أخرجه الشيخان

(٢) سورة الأنعام : ١١٩

تختلف مسالكهم ، وتختلف مصائرهم ، ويفعل الله بهم مايشاء وفق مايستجيبون لهذه الذكرى :

« سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لايموت فيها ولايحيا . قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » . .

فذكرّ . . وسينتفع بالذكرى « من يخشى » . . ذلك الذى يستشعر قلبه التقوى ، فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحى يتوجس ويخشى ، مذ يعلم أن للوجود إلها خلق فسوى ، وقدر فهدى ، فلن يترك الناس سدى ، ولن يدعهم هملا ؛ وهو لابد محاسبهم على الخير والشر ، ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى . فإذا ذُكر ذكر ، وإذا بُصر أبصر ، وإذا وعظ اعتبر .

« ويتجنبها الأشقى » . يتجنب الذكرى ، فلايسمع لها ولايفيد منها .وهو إذن« الأشقى» الأشقى إطلاقا وإجمالا . الأشقى الذى تتمثل فيه غاية الشقوة ومنتهاها . الأشقى فى الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الصفيقة ، التى لاتحس حقائق الوجود ، ولا تسمع شهادتها الصادقة ، ولا تتأثر بموحياتها العميقة . والذى يعيش قلقا متكالبا على مافى الأرض كادحا لهذا الشأن الصغير ! والأشقى فى الآخرة بعذابها الذى لا يعرف له مدى :

« الذى يصلى النار الكبرى .ثم لايموت فيها ولايحيا » . .

والنار الكبرى هى نار جهنم. الكبرى بشدتها، والكبرى بمدتها ، والكبرى بضخامتها . . حيث يمتد بقاؤه فيها ويطول . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ؛ ولاهو يحيا فى أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد ، الذى يتطلع صاحبه إلى الموت كما يتطلع إلى الأمنية الكبرى !

وفى الصفحة المقابلة نجد النجاة والفلاح مع التطهر والتذكر :

« قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى » . .

والتزكى : التطهر من كل رجس ودنس ، والله ـ سبحانه ـ يقرر أن هذا الذى تطهر وذكر اسم ربه ، فاستحضر فى قلبه جلاله : « فصلى » . . إما بمعنى خشع وقنت . وإما بمعنى الصلاة الاصطلاحى، فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله فى القلب ،والشعور بمهابته فى الضمير . . هذا الذى تطهر وذكر وصلى « قد أفلح » يقينا . أفلح فى دنياه ، فعاش موصولا ، حى القلب ، شاعرا بحلاوة الذكر وإيناسه . وأفلح فى أخراه ، فنجا من النار الكبرى ، وفاز بالنعيم والرضى . .

فأين عاقبة من عاقبة ؟ وأين مصير من مصير ؟

* * *

وفى ظل هذا المشهد . مشهد النار الكبرى للأشقى . والنجاة والفلاح لمن تزكى ، يعود بالمخاطبين إلى علة شقائهم ، ومنشإ غفلتهم ، ومايصرفهم عن التذكروالتطهر والنجاة والفلاح، ويذهب بهم إلى النار الكبرى والشقوة العظمى :

« بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى » . .

إن إيثار الحيـاة الدنيا هو أساس كل بلوى . فعن هـذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى ؛ لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثروها . وهم يريدون الدنيـا ، ويؤثرونها . .

وتسميتها « الدنيا » لاتجىء مصادفة . فهى الواطية الهـابطة ـ إلى جانب أنها الدانيـة : العاجلة : « والآخرة خير وأبقى » . . خير فى نوعها ، وأبقى فى أمدها .

وفى ظل هـذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير . لايقـدم عليهما عاقل بصير . .

* * *

وفى الختام تجىء الإشارة إلى قدم هـذه الدعوة ، وعراقة منبتها ، وامتداد جذورها فى شعاب الزمن ، وتوحد أصولها من وراء الزمان والمكان :

« إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » . .

هذا الذى ورد فى هذه السورة وهو يتضمن أصول العقيدة الكبرى . هذا الحق الأصيل العريق . هو الذى فى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى .

ووحدة الحق ، ووحـدة العقيدة ، هى الأمر الذى تقتضيه وحدة الجهـة التى صدر عنها ، ووحدة المشيئة التى اقتضت بعثة الرسل إلى البشر . . إنه حق واحد ، يرجع إلى أصل واحد . تختلف جزئياته وتفصيلاته باختلاف الحاجات المتجددة ، والأطوار المتعاقبة . ولـكنها تلتقى عند ذلك الأصل الواحد . الصادر من مصدر واحد . . من ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى . .

سورة الغاشية مكية
وآياتها ٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ؟ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ .

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ .

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ؟

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » . .

هذه السورة واحدة من الإيقاعات العميقة الهادئة، الباعثة إلى التأمل والتدبر ، وإلى الرجاء والتطلع ، وإلى المخافة والتوجس ، وإلى عمل الحساب ليوم الحساب !

وهى تطوّف بالقلب البشرى فى مجالين هائلين : مجال الآخرة وعالمها الواسع ، ومشاهدها المؤثرة . ومجـال الوجود العريض المكشوف للنظر ، وآيات الله المبثوثة فى خلائقه المعروضة للجميع . ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين الهائلتين بحساب الآخـرة ، وسيطرة الله ، وحتمية الرجوع إليه فى نهاية المطاف .. كل ذلك فى أسلوب عميق الإيقاع، هادىء، ولكنه نافذ . رصين ولكنه رهيب !

* * *

« هل أتاك حديث الغاشية ؟ » ..

بهذا المطلع تبدأ السورة التى تريد لترد القلوب إلى الله ، ولتذكرهم بآياته فى الوجود ، وحسابه فى الآخرة وجزائه الأكيد . وبهذا الاستفهام الموحى بالعظمة الدال على التقرير ؛ الذى يشير فى الوقت ذاته إلى أن أمر الآخرة مما سبق به التقرير والتذكير . وتسمى القيامة هذا الاسم الجديد : « الغاشية » .. أى الداهية التى تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها. وهو من الأسماء الجديدة الموحية التى وردت فى هذا الجزء . . الطامة . الصاخة . الغاشية . القارعة . . مما يناسب طبيعة هذا الجزء المعهودة .

وهذا الخطاب : « هل أتاك . . ؟ » كان رسول الله — صلى الله عليـه وسلم — يحس وقع توجيهه إلى شخصه ، حينما سمع هذه السورة ، وكأنما يتلقاه أول مرة مباشرة من ربه ، لشدة حساسية قلبه بخطاب الله — سبحانه — واستحضاره لحقيقة الخطاب ، وشعوره بأنه صادر إليه بلا وسيط حينما سمعته أذناه .. قال ابن أبى حاتم : حدثنا على ابن محمد الطنافسى ، حدثنا أبو بكر ابن عباس ، عن ابى إسحاق ، عن عمر ابن ميمون ، قال : مر النبى — صلى الله عليه وسلم على امرأة تقرأ : « هل أتاك حديث الغاشية ؟ » فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءنى » . .

والخطاب — مع ذلك — عام لكل من يسمع هذا القرآن . فحديث الغاشية هو حديث هذا القرآن المتكرر . يذكر به وينذر ويبشر ؛ ويستجيش به فى الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس ؛ كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحيي هـذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل .

* * *

« هل أتاك حديث الغاشية ؟ » .. ثم يعرض شيئا من حديث الغاشية :

« وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع . لايسمن ولايغنى من جوع » . .

إنه يعجل بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم ؛ فهو أقرب إلى جو «الغاشية »وظلها .. فهناك: يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ؛ عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة ، ولم تجد إلا الوبال والخسارة ،فزادت مضضا وإرهاقا وتعبا ، فهى :« عاملة ناصبة » . . عملت لغير الله ، ونصبت فى غير سبيله . عملت لنفسها ولأولادها . وتعبت لدنياها ولأطماعها . ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته فى الدنيا شقوة لغير زاد . ووجدته فى الآخرة سواداً يؤدى إلى العذاب. وهى تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس الخائب الرجاء !

ومع هذا الذل والرهق العذاب والألم : « تصلى نارا حامية » وتذوقها وتعانيها .

« تسقى من عين آنية » . .حارة بالغة الحرارة .. « ليس لهم طعام إلا من ضريع لايسمن ولايغنى من جوع » .. والضريع قيل : شجر من نار فى جهنم . استنادا إلى ماورد عن شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم . وقيل : نوع من الشوك اللاطىء بالأرض ، ترعاه الإبل وهو أخضر، ويسمى « الشبرق » فإذا جف صار اسمه « الضريع» ولم تستطع الإبل مذاقه فهو عندئذ سام ! فهذا أو ذلك هو لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقى هـذه الألوان التى لاتسمن ولاتغنى من جوع !

وواضح أننا لانملك فى الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب فى الآخرة . إنما تجىء هـذه الأوصاف لتلمس فى حسنا البشرى أقصى مايملك تصوره من الألم ،الذى يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية، ومن التبرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة! والتغذى بالطعام الذى لاتقوى الإبل على تذوقه ، وهو شوك لانفع فيه ولا غناء .. من مجموعة هذه التصورات يتجمع فى حسنا إدراك لأقصى درجات الألم . وعذاب الآخرة بعد ذلك أشد . وطبيعته لايتذوقها إلا من يذوقها والعياذ بالله !

وعلى الجانب الآخر : « وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية : فى جنة عالية . لاتسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة .ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة » . .

فهنا وجوه يبدو فيها النعيم . ويفيض منها الرضى . وجوه تنعم بما تجد ، وتحمد ماعملت فوجدت عقباه خيرا ، وتستمتع بهذا الشعور الروحى الرفيع . شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها . وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته ،ثم يراها ممثلة فى رضى الله الكريم . وفى النعيم . ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على مافى الجنة من رخاء ومتاع ، ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء :

« فى جنة عالية » . . عالية فى ذاتها رفيعة مجيدة . ثم هى عالية الدرجات . وعالية المقامات . وللعلو فى الحس إيقاع خاص .

« لاتسمع فيها لاغية » . . ويطلق هذا التعبير جوا من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان والود والرضى والنجاء والسمر بين الأحباء والأوداء ، والتنزه والارتفاع عن كل كلمة لاغية ، لاخير فيها ولا عافية .. وهذه وحدها نعيم . وهذه وحدهاسعادة. سعادة تتبين حين يستحضر الحس هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من لغو وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقعة وفرقعة . وضجة وصخب ، وهرج ومرج . ثم يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن والسلام الساكن والود الرضى والظل الندى فى العبارة الموحية : « لاتسمع فيها لاغية » وألفاظها ذاتها تنسم الروح والندى وتنزلق فى نعومة ويسر ، وفى إيقاع موسيقى ندى رخى ! وتوحى هذه اللمسة بأن حياة المؤمنين فى الأرض وهم ينأون عن الجدل واللغو، هى طرف من حياة الجنة ، يتهيأون بها لذلك النعيم الكريم .

وهكذا يقدم الله من صفة الجنة هذا المعنى الرفيع الكريم الوضىء . ثم تجىء المناعم التى تشبع الحس والحواس . تجىء فى الصورة التى يملك البشر تصورها . وهى فى الجنة مكيفة وفق ماترتقى إليه نفوس أهل الجنة . مما لايعرفه إلا من يذوقه !

« فيها عين جارية » . . والعين الجارية : الينبوع المتدفق . وهو يجمع إلى الرى الجمال . جمال الحركة والتدفق والجريان . والماء الجارى يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التى تنتفض وتنبض ! وهو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الخفى ، الذى يتسرب إلى أعماق الحس .

« فيها سرر مرفوعة » . . والارتفاع يوحى بالنظافة كما يوحى بالطهارة .. « وأكواب موضوعة » . . مصفوفة مهيأة للشراب لاتحتاج إلى طلب ولا إعداد ! « ونمارق مصفوفة » .. والنمارق الوسائد والحشايا للاتكاء فى ارتياح ! « وزرابى مبثوثة » . . والزرابى البسط ذات الخمل « السجاجيد » مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء !

وكلها مناعم مما يشهد الناس له أشباها فى الأرض. وتذكر هذه الأشباه لتقريبها إلى مدارك أهل الأرض . أما طبيعتها وطبيعة المتاع بها فهى موكولة إلى المذاق هناك . للسعداء الذين يقسم الله لهم هذا المذاق !

ومن اللغو الدخول فى موازنات أو تحقيقات حول طبيعة النعيم ـ أو طبيعة العذاب ـ فى الآخرة . فإدراك طبيعة شىء ماموقوف على نوع هذا الإدراك . وأهل الأرض يدركون بحس مقيد بظروف هـذه الأرض وطبيعة الحيـاة فيها . فإذا كانوا هناك رفعت الحجب وأزيلت الحواجز وانطلقت الأرواح والمدارك ، وتغيرت مدلولات الألفاظ ذاتها بحكم تغير مذاقها ، وكان ماسيـكون ، مما لانملك أن ندرك الآن كيف يـكون !

إنما نفيد من هذه الأوصاف أن يستحضر تصورنا أقصى مايطيقه من صور اللذاذة والحلاوة والمتاع . وهو مانملك تذوقه مادمنا هنا . حتى نعرف حقيقته هناك . حين يـكرمنا الله بفضله ورضاه .

* * *

وتنتهى هـذه الجولة فى العالم الآخر ، فيؤوب منها إلى هـذا الوجود الظاهر . الحاضر . الموحى بقدرة القادر وتدبير المدبر ، وتميز الصنعة ، وتفرد الطابع . الدال على أن وراء التدبير والتقدير أمرا بعد هذه الحياة ، وشأنا غير شأن الأرض . وخاتمة غير خاتمة الموت :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » . .

وتجمع هذه الآيات الأربعة القصار ، أطراف بيئة العربى المخاطب بهذا القرآن أول مرة . كما تضم أطراف الخلائق البارزة فى الـكون كله . حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال (ممثلة لسائر الحيوان) على مزية خاصة بالإبل فى خلقها بصفة عامة وفى قيمتها للعربى بصفة خاصة .

إن هذه المشاهد معروضة لنظر الإنسان حيثما كان . . السماء والأرض والجبال والحيوان . . وأيا كان حظ الإنسان من العلم والحضارة فهذه المشاهد داخلة فى عالمه وإدراكه . موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها .

والمعجزة كامنة فى كل منها . وصنعة الخالق فيها معلمة لانظير لها . وهى وحدها كافية لأن توحى بحقيقة العقيدة الأولى . ومن ثم يوجه القرآن الناس كافة إليها :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ » .. والإبل حيوان العربى الأول . عليها يسافر ويحمل . ومنها يشرب ويأكل . ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل. فهى مورده الأول للحياة. ثم إن لها خصائص تفردها من بين الحيوان . فهى على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصغير فتنقاد، وهى على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف . مرعاها ميسر، وكلفتها ضئيلة ، وهى أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال . . ثم إن لهيئتها مزية فى تناسق المشهد الطبيعى المعروض كما سيجىء . .

لهذا كله يوجه القرآن أنظار المخاطبين إلى تدبر خلق الإبل ؛ وهى بين أيديهم ، لاتحتاج منهم إلى نقلة ولا علم جديد .. « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ » . . أفلا ينظرون إلى خلقها وتكوينها ؟ ثم يتدبرون : كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها ، المحقق لغاية خلقها ، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا ؟ إنهم لم يخلقوها . وهى لم تخلق نفسها ، فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته ، التى تدل عليه ، وتقطع بوجوده ؛ كما تشى بتدبيره وتقديره .

« وإلى السماء كيف رفعت ؟ » . . وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر فى القرآن . وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء . حيث للسماء طعم ومذاق ، وإيقاع وإيحاء ، كأنما ليست السماء إلا هناك فى الصحراء !

السماء بنهارها الواضح الباهر الجاهر . والسماء بأصيلها الفاتن الرائق الساحر . والسماء بغروبها البديع الفريد الموحى . والسماء بليلها المترامى ونجومها المتلألئة وحديثها الفاتر . والسماء بشروقها الجميل الحى السافر .

هـذه السماء . فى الصحراء . . أفلا ينظرون إليها ؟ أفلا ينظرون إليها كيف رفعت ؟ من ذا رفعها بلا عمد ؟ ونثر فيها النجوم بلا عدد ؟ وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال وهذا الإيحاء ؟ إنهم لم يرفعوها وهى لم ترفع نفسها . فلابد لها من رافع ولابد لها من مبدع . لايحتاج الأمر إلى علم ولا إلى كد ذهن . فالنظرة الواعية وحدها تكفى . . .

« وإلى الجبال كيف نصبت ؟ » . . والجبال عند العربى ـ بصفة خاصة ـ ملجأ وملاذ ، وأنيس وصاحب، ومشهدها يوحى إلى النفس الإنسانية ـ بصفة عامة ـ جلالا واستهوالا. حيث يتضاءل الإنسان إلى جوارها ويستكين . ويخشع للجلال السامق الرزين . والنفس فى أحضان

الجبل تتجه بطبيعتها إلى الله ؟ وتشعر أنها إليه أقرب ، وتبعد عن واغش الأرض وضجيجها وحقاراتها الصغيرة . ولم يكن عبثا ولامصادفة أن يتحنث محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى غار حراء فى جبل ثور . وأن يتجه إلى الجبل من يريدون النجوة بأرواحهم فترات من الزمان !

والجبال هنا « كيف نصبت » لأن هــذه اللمحة تتفق من الناحية التصويرية مع طبيعة المشهد كما سيجىء .

« وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » .. والأرض مسطوحة أمام النظر ، ممهدة للحياة والسير والعمل ، والناس لم يسطحوها كذلك . فقد سطحت قبل أن يكونوا هم . . أفلا ينظرون إليها ويتدبرون ماوراءها ، ويسألون : من سطحها ومهدها هكذا للحياة تمهيدا ؟

إن هــذه المشاهد لتوحى إلى القلب شيئا . بمجرد النظر الواعى والتأمل الصاحى . وهذا القدر يكفى لاستجاشة الوجدان واستحياء القلب . وتحرك الروح نحو الخالق المبدع لهذه الخلائق.

ونقف وقفة قصيرة أمام جمال التناسق التصويرى لمجموعة المشهد الكونى لنرى كيف يخاطب القرآن الوجدان الدينى بلغة الجمال الفنى ، وكيف يعتنقان فى حس المؤمن الشاعر بجمال الوجود . .

إن المشهد الكلى يضم مشهد السماء المرفوعة والأرض المبسوطة . وفى هذا المدى المتطاول تبرز الجبال « منصوبة » السنان لاراسية ولاملقاة ، وتبرز الجمال منصوبة السنام .. خطان أفقيان وخطان رأسيان فى المشهد الهائل فى المساحة الشاسعة . ولكنها لوحة متناسقة الأبعاد والاتجاهات! على طريقة القرآن فى عرض المشاهد ، وفى التعبير بالتصوير على وجه الإجمال [١] .

* * *

والآن بعــد الجولة الأولى فى عالم الآخرة ، والجولة الثانية فى مشاهد الكون المعروضة ، يلتفت إلى الرسول ــ صلى الله عليــه وسلم ــ يوجهه إلى حدود واجبه وطبيعة وظيفته، ويلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة الموقظة .

« فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم » . .

فذكر بهــذا وذاك . ذكرهم بالآخرة وما فيها . وذكرهم بالكون وما فيه . إنما أنت مذكر . هذه وظيفتك على وجه التحديد . وهذا دورك فى هذه الدعوة ، ليس لك ولا عليك شىء وراءه. عليك أن تذكر . فإنك ميسر لهذا ومكاف إياه .

(١) فصل التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

« لست عليهم بمصيطر » . . فأنت لاتملك من أمر قلوبهم شيئا . حتى تقهرها وتقسرها على الإيمان . فالقلوب بين أصابع الرحمان ، لايقدر عليها إنسان .

فأما الجهاد الذى كتب بعد ذلك فلم يكن لحمل الناس على الإيمان . إنما كان لإزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس . فلا يعنوا من سماعها . ولا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها . كان لإزالة العقبات من طريق التذكير . الدور الوحيد الذى يملكه الرسول .

وهذا الإيحاء بأن ليس للرسول من أمر هذه الدعوة شىء إلا التذكير والبلاغ يتكرر فى القرآن لأسباب شتى . فى أولها إعفاء أعصاب الرسول من حمل هم الدعوة بعد البلاغ ، وتركها لقدر الله يفعل بها مايشاء . فإلحاح الرغبة البشرية بانتصار دعوة الخير وتناول الناس لهذا الخير ، إلحاح عنيف جدا يحتاج إلى هذا الإيحاء المتكرر بإخراج الداعية لنفسه ولرغائبه هذه من مجال الدعوة ، كى ينطلق إلى أدائها كائنة ما كانت الاستجابة ، وكائنة ما كانت العاقبة . فلا يعنى نفسه بهم من آمن وهم من كفر . ولا يشغل باله بهذا الهم الثقيل حين تسوء الأحوال من حول الدعوة ، وتقل الاستجابة ، ويكثر المعرضون والمخاصمون .

ومما يدل على إلحاح الرغبة البشرية فى انتصار دعوة الله وتذوق الناس لما فيها من خير ورحمة ، هذه التوجيهات المتكررة للرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو من هو تأدبا بأدب الله ومعرفة لحدوده ولقدر الله . . ومن ثم اقتضى إلحاح هذه الرغبة هذا العلاج الطويل المتكرر فى شتى الأحيان . .

ولكن إذا كان هذا هو حد الرسول ، فإن الأمر لاينتهى عند هذا الحد . ولا يذهب المكذبون ناجين ، ولا يتولون سالمين . إن هنالك الله وإليه تصير الأمور :

« إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر » . .

وهم راجعون إلى الله وحده قطعا ، وهو مجازيهم وحده حتما . وهذا هو الإيقاع الختامى فى السورة فى صيغة الجزم والتوكيد .

« إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم » . . .

بهذا يتحدد دور الرسول فى هذه الدعوة . ودور كل داعية إليها بعده . . إنما أنت مذكر وحسابهم بعد ذلك على الله . ولا مفر لهم من العودة إليه ، ولا محيد لهم عن حسابه وجزائه . غير أنه ينبغى أن يفهم أن من التذكير إزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس وليتم التذكير . فهذه وظيفة الجهاد كما تفهم من القرآن ومن سيرة الرسول سواء ، بلا تقصير فيها ولا اعتداء . .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ * وَٱللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ ؟

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَادِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِى ٱلْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ؟ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ .

« فَأَمَّا ٱلْإِنْسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ : رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ : رَبِّى أَهَانَنِ .

« كَلَّا ! بَلْ لَا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا .

« كَلَّا ! إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنْسَانُ ، وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ! * يَقُولُ : يَا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ .

« يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي وَٱدْخُلِي جَنَّتِي » ..

هذه السورة فى عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء فى الهتاف بالقلب البشرى إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر . . ولكنها تتضمن ألوانا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال . ألوانا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنا واحدا متعدد النغمات موحد الإيقاع !

فى بعض مشاهدها جمال هادئ رفيق ندى السمات والإيقاعات، كهذا المطلع الندى بمشاهده الكونية الرقيقة ، وبظل العبادة والصلاة فى ثنايا تلك المشاهد .. « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . . » .

وفى بعض مشاهدها شد وقصف سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف: « كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا . وجىء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول : ياليتنى قدمت لحياتى . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد » . .

وفى بعض مشاهدها نداوة ورقة ورضى يفيض وطمأنينة . تتناسق فيها المناظر والأنغام ، كهذا الختام : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . .

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بين بين . بين إيقاع القصص الرخى وإيقاع المصرع القوى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد » .

وفيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية وقيمه غير الإيمانية . وهى ذات لون خاص فى السورة تعبيرا وإيقاعا : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول: ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن . . » .

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التى تنبع منها هذه التصورات . وهى تشمل

لونين من ألوان العبارة والتنغيم : « كلا . بل لاتكرمون اليتيم . ولاتحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما » ..

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم ومايتنظرهم فى مآلهم . فقد جاء بعده : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ... الخ » .. فهو وسط فى شدةالتنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير !

ومن هـذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة فى مشاهد السورة . وإيقاعاتها فى تعبيرها وفى تنغيمها . . كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافى . بحسب تنوع المعانى والمشاهد . فالسورة من هـذا الجانب نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالى فى التعبير القرآنى [١] . فوق مافيها عموما من جمال ملحوظ مأنوس !

فأما أغراض السورة الموضوعية التى يحملها هـذا التعبير المتناسق الجميل . فنعرضها فيما يلى بالتفصيل :

* * *

« والفجر وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل فى ذلك قسم لذى حجر ؟ » . .

هذا القسم فى مطلع السورة يضم هذه المشاهد والخلائق . ذات الأرواح اللطيفة المأنوسة الشفيفة : « والفجر » .. ساعة تنفس الحياة فى يسر ،وفرح ، وابتسام ، وإيناس ودود ندى ، والوجود الغافى يستيقظ رويدا رويدا ، وكأن أنفاسه مناجاة ، وكأن تفتحه ابتهال !

« وليال عشر » أطلقها النص القرآنى ووردت فيها روايات شتى . . قيل هى العشر من ذى الحجة، وقيل هى العشر من المحرم . وقيل هى العشر من رمضان .. وإطلاقها هكذا أوقع وأندى . فهى ليال عشر يعلمها الله. ولها عنده شأن . تلقى فى السياق ظلال الليلات ذات الشخصية الخاصة . وكأنها خلائق حية معينة ذوات أرواح ، تعاطفنا ونعاطفها من خلال التعبير القرآنى الرفاف !

« والشفع والوتر » . . يطلقان روح الصلاة والعبادة فى ذلك الجو المأنوس الحبيب . جو الفجر والليالى العشر .. « ومن الصلاة الشفع والوتر » (كما جاء فى حديث أخرجه الترمذى)

---

(١) فصل : التناسق الفنى . فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

وهــذا المعنى هو أنسب المعانى فى هــذا الجو . حيث تلتقى روح العبادة الخاشعة ، بروح الوجود الساجيــة ! وحيث تتجاوب الأرواح العابدة مع أرواح الليالى المختارة ، وروح الفجر الوضيئة .

« والليل إذا يسر » . . والليل هنا مخلوق حى ، يسرى فى الــكون ، وكأنه ساهر يجول فى الظلام ! أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة ! يا لأناقة التعبير ! ويا لأنس المشهد ! ويالجمال النغم ! ويالتناسق مع الفجر ، والليالى العشر . والشفع والوتر !

إنها ليست ألفاظا وعبارات . إنما هى أنسام من أنسام الفجر ، وأنداء مشعشعة بالعطر ! أم إنه النجاء الأليف للقلب ؟ والهمس اللطيف للروح ؟ واللمس الموحى للضمير ؟

إنه الجــال . . الجمال الحبيب الهامس اللطيف . الجمال الذى لايدانيه جمــال التصورات الشاعرية الطليقة . لأنه الجمال الإبداعى ، المعبر فى الوقت ذاته عن حقيقة .

ومن ثم يعقب عليه فى النهاية : ـ « هل فى ذلك قسم لذى حجر » ؟ وهو سؤال للتقرير. إن فى ذلك قسما لذى لب وعقل . إن فى ذلك مقنعا لمن له إدراك وفــكر . ولــكن صيغة الاستفهام ـ مع إفادتها التقرير ـ أرق حاشية . فهى تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق !

* * *

أما المقسم عليه بذلك القسم ، فقد طواه السياق ، ليفسره مابعده ، فهو موضوع الطغيان والفساد ، وأخــذ ربك لأهل الطغيان والفساد ، فهو حق واقع يقسم عليــه بذلك القسم فى تلميح يناسب لمسات السورة الخفيفة على وجه الإجمال :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ؟ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ؟ وفرعون ذى الأوتاد ؟ .. الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب ؟ إن ربك لبالمرصاد » . .

وصيغة الاستفهام فى مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات . والخطاب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتداء . ثم هو لــكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر فى مصارع أولئك الأقوام، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه ؛ ومما تشهد به الآثار والقصص الباقية فى الأجيال المتعاقبة ، وإضافة الفعل إلى « ربك » فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة . وبخاصة أولئك الذين كانوا فى مكة يعانون طغيان الطغاة ، وعسف الجبارين من المشركين ، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد .

وقد جمع الله فى هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم ..
مصرع : « عاد إرم » وهى عاد الأولى . وقيل : إنها من العرب العاربة أو البادية . وكان مسكنهم بالأحقاف وهى كثبان الرمال . فى جنوبى الجزيرة بين حضرموت واليمن . وكانوا بدواً ذوى خيام تقوم على عماد . وقد وصفوا فى القرآن بالقوة والبطش ، فقد كانت قبيلة عاد هى أقوى قبيلة فى وقتها وأميزها : « التى لم يخلق مثلها فى البلاد » فى ذلك الأوان . .

« وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » . . وكانت ثمود تسكن بالحجر فى شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام . وقد قطعت الصخر وشيدته قصورا ؛ كما نحتت فى الجبال ملاجىء ومغارات . .

« وفرعون ذى الأوتاد » .. وهى على الأرجح الأهرامات التى تشبه الأوتاد الثابتة فى الأرض المتينة البنيان . وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار .

هؤلاء هم « الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد » . . وليس وراء الطغيان إلا الفساد . فالطغيان يفسد الطاغية ، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء . كما يفسد العلاقات والارتباطات فى كل جوانب الحياة . ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف ، المعمر البانى ، إلى خط آخر لاتستقيم معه خلافة الإنسان فى الأرض بحال ..

إنه يجعل الطاغية أسير هواه ، لأنه لايفىء إلى ميزان ثابت ، ولايقف عند حد ظاهر ، فيفسد هو أول من يفسد ؛ ويتخذ له مكانا فى الأرض غير مكان العبد المستخلف ؛ وكذلك قال فرعون .. « أنا ربكم الأعلى » عندما أفسده طغيانه ، فتجاوز به مكان العبد المخلوق ، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح ، وهو فساد أى فساد .

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم ، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية ، وملكات الابتكار المتحررة التى لاتنمو فى غير جو الحرية . والنفس التى تستذل تأسن وتتعفن ، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة . وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك .وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أى فساد ..

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة ، لأنها خطر على الطغاة والطغيان . فلابد من تزييف للقيم ،وتزوير فى الموازين ، وتحريف للتصورات كى تقبل صورة البغى البشعة ، وتراها مقبولة مستساغة .. وهو فساد أى فساد .

فلما أكثروا فى الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد :

« فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد » . .

فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم . فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب ، وهو تعبير يوحى بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب . حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد .

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان فى أى زمان وأى مكان . ومن قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » تفيض طمأنينة خاصة . فربك هناك . راصد لايفوته شىء . مراقب لا يند عنه شىء . فليطمئن بال المؤمن، ولينم ملء جفونه . فإن ربه هناك ! .. بالمرصاد .. للطغيان والشر والفساد !

وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله فى أمر الدعوة ، غير النموذج الذى تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود . وقد كان القرآن ـ ولا يزال ـ يربى المؤمنين بهذا النموذج وذاك . وفق الحالات والملابسات . ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء . لتطمئن على الحالين . وتتوقع الأمرين ، وتكل كل شىء لقدر الله يجريه كما يشاء .

* * *

« إن ربك لبالمرصاد » . . يرى ويحسب ويحاسب ويجازى ، وفق ميزان دقيق لا يخطىء ولايظلم ولايأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء . . فأما الإنسان فتخطىء موازينه وتضل تقديراته ، ولايرى إلا الظواهر ، مالم يتصل بميزان الله :

« فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربى أكرمن . وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن » . .

فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال ، ومن بسط وقبض ، ومن توسعة وتقدير .. يبتليه بالنعمة والإكرام . بالمال أوالمقام . فلايدرك أنه الابتلاء ، تمهيدا للجزاء . إنما يحسب هذاالرزق وهذه المكانة دليلا على استحقاقه عند الله للإكرام ، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره . فيعتبر البلاء جزاء والامتحان نتيجة ! ويقيس الكرامه عند الله بعرض هذه الحياة ! ويبتليه بالتضييق عليه فى الرزق ، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك ، ويحسب الاختبار عقوبة ، ويرى فى ضيق الرزق مهانة عند الله ، فلولم يرد مهانته ماضيق عليه رزقه . .

وهو فى كلتا الحالتين مخطىء فى التصور ومخطىء فى التقدير . فبسط الرزق أوقبضه ابتلاء من الله لعبده . ليظهر منه الشكر على النعمة أوالبطر . ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر . والجزاء على مايظهر منه بعد . وليس ماأعطى من عرض الدنيا أومنع هو الجزاء . . وقيمة العبد عند الله لاتتعلق بما عنده من عرض الدنيا . ورضى الله أوسخطه لايستدل عليه بالمنح والمنع فى هذه الأرض . فهو يعطى الصالح والطالح ، ويمنع الصالح والطالح . ولكن ماوراء هـذا وذلك هـو الذى عليـه المعول . إنه يعطى ليبتلى ويمنع ليبتلى . والمعول عليـه هو نتيجة الابتلاء !

غير أن الإنسان ــ حين يخلو قلبه من الإيمان ــ لايدرك حكمة المنع والعطاء . ولاحقيقة القيم فى ميزان الله .. فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ماهنالك . وخفت فى ميزانه الأعراض الزهيدة ، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء ، فعمل له فى البسط والقبض سواء . واطمأن إلى قدر الله به فى الحالين ؛ وعرف قدره فى ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء !

* * *

وقد كان القرآن يخاطب فى مكة أناسا ــ يوجد أمثالهم فى كل جاهلية تفقد اتصالها بعالم أرفع من الأرض وأوسع ــ أناسا ذلك ظنهم بربهم فى البسط والقبض . وذلك تقديرهم لقيم الناس فى الأرض . ذلك أن المال والجاه عندهم كل شىء . وليس وراءهما مقياس ! ومن ثم كان تكالبهم على المال عظيما ، وحبهم له حبا طاغيا ، مما يورثهم شراهة وطمعا . كما يورثهم حرصا وشحا . . ومن ثم يـكشف لهم عن ذوات صدورهم فى هـذا المجال ، ويقرر أن هـذا الشره والشح هما علة خطئهم فى إدراك معنى الابتلاء من وراء البسط والقبض فى الأرزاق .

« كلا . بل لاتـكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما » . .

كلا ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوى من الإيمان . ليس بسط الرزق دليلا على الـكرامة عنـد الله . وليس تضييق الرزق دليلا على المهانة والإهمال . إنما الأمر أنـكم لاتنهضون بحق العطاء ، ولا توفون بحق المال . فأنتم لاتـكرمون اليتيم الصغير الذى فقد حاميـه وكافله حين فقـد أباه ، ولا تتحاضون فيما بينـكم على إطعام المسكين . السا كن الذى لايتعرض للسؤال وهو محتاج ! وقد اعتبر عدم التحاض والتواصى على إطعام المسكين قبيحا مستنـكرا . كما يوحى بضرورة التـكافل فى الجماعة فى التوجيه إلى الواجب وإلى الخير العام . وهذه سمة الإسلام .

. . إنكم لاتدركون معنى الابتلاء . فلا تحاولون النجاح فيه ، بإكرام اليتيم والتواصى على إطعام المسكين، بل أنتم ـ على العكس ـ تأكلون الميراث أكلا شرها جشعا ؛وتحبون المال حبا كثيرا طاغيا ، لا يستبقى فى نفوسكم أريحية ولا مكرمة مع المحتاجين إلى الإكرام والطعام .

وقد كان الإسلام يواجه فى مكة ـ كما ذكرنا من قبل ـ حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق ،تورث القلوب كزازة وقساوة. وكان ضعف اليتامى مغريا بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث منهم فى صور شتى ؛ وبخاصة مايتعلق بالميراث (كما سبق بيانه فى مواضع متعددة فى الظلال) كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهرة بارزة فى المجتمع المكى قبل الإسلام . وهى سمة الجاهليات فى كل زمان ومكان ! حتى الآن !

وفى هذه الآيات فوق الكشف عن واقع نفوسهم ، تنديد بهذا الواقع ، وردع عنه ، يتمثل فى تكرار كلمة « كلا » كما يتمثل فى بناء التعبير وإيقاعه ، وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفه :

« وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما ! » . .

* * *

وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة ،بعد تصوير خطأ تصورهم فىالابتلاء بالمنع والعطاء ، يجىء التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته ، بعد الابتلاء ونتيجته ، فى إيقاع قوى شديد :

« كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا .وجاءربك والملك صفا صفا .وجىء يومئذ بجهنم .يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ؟يقول : ياليتنى قدمت لحياتى. فيومئذ لايعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد » . .

ودك الأرض ، تحطيم معالمها وتسويتها ؛ وهو أحد الانقلابات الكونية التى تقع فى يوم القيامة.فأما مجىء ربك والملائكة صفا صفا،فهو أمرغيبى لاندرك طبيعته ونحن فى هذه الأرض. ولكنا نحس وراء التعبير بالجلال والهول . كذلك المجىء بجهنم . نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى . فأما حقيقة مايقع وكيفيته فهى من غيب الله المكنون ليومه المعلوم .

إنما يرتسم من وراء هذه الآيات ، ومن خلال موسيقاها الحادة التقسيم ، الشديدة الأسر،

مشهد ترجف له القلوب ، وتخشع له الأبصار . والأرض تدك دكا دكا ! والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفا صفا . ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى !

« يومئذ يتذكر الإنسان » .. الإنسان الذى غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء . والذى أكل التراث أكلا لما ، وأحب المال حبا جما . والذى لم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين . والذى طغى وأفسد وتولى . . يومئذ يتذكر . يتذكر الحق ويتعظ بما يرى . . ولكن لقد فات الأوان « فأنى له الذكرى ؟ » . . ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدى هنا فى دار الجزاء أحدا ! وإن هى إلا الحسرة على فوات الفرصة فى دار العمل فى الحياة الدنيا !

وحين تتجلى له هذه الحقيقة : « يقول : ياليتنى قدمت لحياتى » . . ياليتنى قدمت شيئا لحياتى هنا . فهى الحياة الحقيقية التى تستحق اسم الحياة . وهى التى تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها . ياليتنى . . أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهى أقصى مايملكه الإنسان فى الآخرة !

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة : « فيومئذ لايعذب عذابه أحد ، ولايوثق وثاقه أحد » . . إنه الله القهار الجبار . الذى يعذب يومئذ عذابه الفذ الذى لا يملك مثله أحد . والذى يوثق وثاقه الفذ الذى لايوثق مثله أحد . وعذاب الله ووثاقه يفصلهما القرآن فى مواضع أخرى فى مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة فى ثنايا القرآن كله . ويجملهما هنا حيث يصفها بالتفرد بلاشبيه من عذاب البشر ووثاقهم . أو من عذاب الخلق جميعا ووثاقهم. وذلك مقابل ماأسلف فى السورة من طغيان الطغاة ممثلين فى عاد وثمود وفرعون ، وإكثارهم من الفساد فى الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال . فها هو ذا ربك — أيها النبى وأيها المؤمن — يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم . ولكن شتان بين عذاب وعذاب، ووثاق ووثاق ..وهان مايملكه الخلق من هذا الأمر، وجل مايفعله صاحب الخلق والأمر . فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم مايكون . فسيعذبون هم ويوثقون ، عذابا ووثاقا وراء التصورات والظنون !

* * *

وفى وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوثاق ، الذى يتجاوز كل تصور تنادى « النفس » المؤمنة من الملأ الأعلى :

« ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى » . .

هكذا فى عطف وقرب : « ياأيتها » وفى روحانية وتكريم : « ياأيتها النفس » . . وفى ثناء وتطمين .. « ياأيتها النفس المطمئنة » .. وفى وسط الشد والوثاق ، الانطلاق والرخاء : « ارجعى إلى ربك » ارجعى إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد . ارجعى إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة . . « راضية مرضية » بهذه النداوة التى تفيض على الجو كله بالتعاطف وبالرضى . . « فادخلى فى عبادى » . . المقربين المختارين لينالوا هذه القربى . . « وادخلى جنتى » .. فى كنفى ورحمتى ..

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة . منذ النداء الأول : « ياأيتها النفس المطمئنة » . . المطمئنة إلى ربها . المطمئنة إلى طريقها . المطمئنة إلى قدر الله بها . المطمئنة فى السراء والضراء، وفى البسط والقبض ، وفى المنع والعطاء . المطمئنة فلاترتاب . والمطمئنة فلاتنحرف . والمطمئنة فلاتتلجلج فى الطريق . والمطمئنة فلاترتاع فى يوم الهول الرعيب . .

ثم تمضى الآيات تباعا تغمر الجو كله بالأمن والرضى والطمأنينة ، والموسيقى الرخية الندية حول المشهد ترف بالود والقربى والسكينة .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية ، تطل من خلال هـذه الآيات . وتتجلى عليها طلعة الرحمان الجليلة البهية . . .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِى كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ : أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ؟

« أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ؟ * فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ؟ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ » . .

تضم هذه السورة الصغيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية فى حياة الكائن الإنسانى ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية . حشد يصعب أن يجتمع فى هذا الحيز الصغير فى غير القرآن الكريم ، وأسلوبه الفريد فى التوقيع على أوتار القلب البشرى بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة . .

* * *

تبدأ السورة بالتلويح بقسم عظيم ، على حقيقة فى حياة الإنسان ثابتة :

« لاأقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقدخلقناالإنسانفى كبد » . .

والبلد هو مكة . بيت الله الحرام . أول بيت وضع للناس فى الأرض . ليكون مثابة لهم وأمنا يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداواتهم ، ويلتقون فيه مسالمين ، حراما بعضهم على بعض ، كما أن البيت وشجره وطيره وكل حى فيه حرام . ثم هو بيت إبراهيم والد إسماعيل أبى العرب والمسلمين أجمعين .

ويكرم الله نبيه محمدا — صلى الله عليه وسلم — فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته ، بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة ، وتزيده شرفا ، وتزيده عظمة . وهى إيماءة ذات دلالة عميقة فى هذا المقام . والمشركون يستحلون حرمة البيت ، فيؤذون النبى والمسلمين فيه ، والبيت كريم ، يزيده كرما أن النبى — صلى الله عليه وسلم — حل فيه مقيم. وحين يقسم الله — سبحانه — بالبلد والمقيم به ، فإنه يخلع عليه عظمة وحرمة فوق حرمته ، فيبدو موقف المشركين الذين يدعون أنهم سدنة البيت وأبناء إسماعيل وعلى ملة إبراهيم ، موقفا منكرا قبيحا من جميع الوجوه .

ولعل هذا المعنى يرشح لاعتبار : « ووالد وما ولد » . . إشارة خاصة إلى إبراهيم ، أو إلى إسماعيل — عليهما السلام — وإضافة هذا إلى القسم بالبلد والنبى المقيم به ، وبانيه الأول وما ولد . . وإن كان هذا الاعتبار لاينفى أن يكون المقصود هو : والد وما ولد إطلاقا . وأن تكون هذه إشارة إلى طبيعة النشأة الإنسانية ، واعتمادها على التوالد . تمهيدا للحديث عن حقيقة الإنسان التى هى مادة السورة الأساسية .

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى هذا الموضع من تفسيره للسورة فى « جزء عم » لفتة لطيفة تتسق فى روحها مع روح هذه «الظلال » فنستعيرها منه هنا . . قال رحمه الله :

« ثم أقسم بوالد وما ولد ، ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود — وهو طور التوالد — وإلى مافيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى مايعانيه الوالد والمولود فى إبداء النشء وتكميل الناشىء ، وإبلاغه حده من النمو المقدر له .

« فإذا تصورت فى النبات كم تعانى البذرة فى أطوار النمو : من مقاومة فواعل الجو ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر ، إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ،

وتستعد إلى أن تلد بذرة أو بذورا أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها ــ إذا أحضرت ذلك فى ذهنك ، والتفت إلى مافوق النبات من الحيوان والإنسان ، حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ماهو أعظم ، ووجدت من المكابدة والعناء الذى يلاقيه كل منهما فى سبيل حفظ الأنواع ، واستبقاء جمال الكون بصورها ماهو أشد وأجسم » ..انتهى..

يقسم هذا القسم على حقيقة ثابتة فى حياة الكائن الإنسانى :

« لقد خلقنا الإنسان فى كبد » . .

فى مكابدة ومشقة ، وجهد وكد ، وكفاح وكدح .. كما قال فى السورة الأخرى : « ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » . .

الخلية الأولى لاتستقر فى الرحم حتى تبدأ فى الكبد والكدح والنصب لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء ــ بإذن ربها ــ وما تزال كذلك حتى تنتهى إلى المخرج ،فتذوق من المخاض ــ إلى جانب ماتذوقه الوالدة ــ ماتذوق . وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق فى مخرجه من الرحم !

ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر . يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذى لاعهد له به ، ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر فى صراخ يشى بمشقة البداية ! وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية فى العمل على غير عادة ! ويعانى فى إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد ! وكل خطوة بعد ذلك كبد ، وكل حركة بعد ذلك كبد . والذى يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو وعندما يهم بالمشى يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة .

وعند بروز الأسنان كبد . وعند انتصاب القامة كبد . وعند الخطو الثابت كبد . وعند التعلم كبد . وعند التفكر كبد . وفى كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشى سواء !

ثم تفترق الطرق ، وتتنوع المشاق ؛ هذا يكدح بعضلاته . وهذا يكدح بفكره . وهذا يكدح بروحه . وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء . وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف ...وهذا يكدح للملك أوجاه ، وهذا يكدح فى سبيل الله . وهذا يكدح لشهوة ونزوة. وهذا يكدح لعقيدة ودعوة . وهذا يكدح إلى النار . وهذا يكدح إلى الجنة . . والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحا إلى ربه فيلقاه ! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء . وتكون الراحة الكبرى للسعداء .

إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا . تختلف أشكاله وأسبابه . ولكنه هو الكبد فى النهاية . فأخسر الخاسرين هو من يعانى كبد الحياة الدنيا لينتهى إلى الكبد الأشق الأمرّ فى الأخرى . وأفلح الفالحين من يكدح فى الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهى عنه كبد الحياة ، وتنتهى به إلى الراحة الكبرى فى ظلال الله .

على أن فى الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدح والعناء . إن الذى يكدح للأمر الجليل ليس كالذى يكدح للأمر الحقير . ليس مثله طمأنينة بال وارتياحا للبذل ، واسترواحا بالتضحية ، فالذى يكدح وهو طليق من أثقال الطين ، أوللانطلاق من هـذه الأثقال ، ليس كالذى يكـدح ليغوص فى الوحل ويلصق بالأرض كالحشرات والديدان ! والذى يمـوت فى سبيل دعوة ليس كالذى يموت فى سبيل نزوة . . ليس مثله فى خاصة شعوره بالجهد والكبد الذى يلقاه .

* * *

وبعد تقرير هـذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية يناقش بعض دعاوى « الإنسان » وتصوراته التى تشى بها تصرفاته :

« أيحسب أن لن يقدر عليـه أحد ؟ يقول : أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد ؟ » .

إن هذا « الإنسان » المخلوق فى كبد ، الذى لا يخلص من عناء الكدح والكد ، لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع ، فيتصرف تصرف الذى لا يحسب أنه مأخوذ بعمله، ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه.. فيطغى ويبطش ويسلب وينهب ، ويجمع ويكثر ، ويفسق ويفجر ، دون أن يخشى ودون أن يتحرج . . وهذه هى صفة الإنسان الذى يعرى قلبه من الإيمان .

ثم إنه إذا دعى للخير والبذل (فى مثل المواضع التى ورد ذكرها فى السورة) « يقول : أهلكت مالا لبدا » . . وأنفقت شيئا كثيرا فحسبى ما أنفقت وما بذلت ! « أيحسب أن لم يره أحد » ؟ وينسى أن عين الله عليه ، وأن علمه محيط به ، فهو يرى ما أنفق ، ولماذا أنفق ؟ ولـكن هـذا « الإنسان » كأنما ينسى هذه الحقيقة ، ويحسب أنه فى خفاء عن عين الله !

* * *

وأمام هـذا الغرور الذى يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة ، وأمام ضنه بالمال وادعائه

أنه بذل الكثير، يجابهه القرآن بفيض الآلاء عليه فى خاصة نفسه ، وفى صميم تكوينه ، وفى خصائص طبيعته واستعداداته، تلك الآلاء التى لم يشكرها ولم يقم بحقها عنده :

« ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشفتين ؟ وهديناه النجدين ؟ » . .

إن الإنسان يغتر بقوته ، والله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة . ويضن بالمال . والله هوالمنعم عليه بهذا المال . ولا يهتدى ولا يشكر ، وقد جعل له من الحواس مايهديه فى عالم المحسوسات: جعل له عينين على هذا القدر من الدقة فى تركيبهما وفى قدرتهما على الإبصار . وميزه بالنطق، وأعطاه أداته المحكمة : « ولسانا وشفتين » . . ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل : « وهديناه النجدين » . . ليختار أيهما شاء ، فنى طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أى النجدين . والنجد الطريق المرتفع . وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء، وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقا لحكمة الله فى الخلق ، وإعطاء كل شىء خلقه، وتيسيره لوظيفته فى هذا الوجود .

وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ؛ كما أنها تمثل قاعدة « النظرية النفسية الإسلامية » هى والآيات الأخرى فى سورة الشمس : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (وسنرجىء عرضها بشىء من التفصيل إلى الموضع الآخر فى سورة الشمس لأنه أوسع مجالا) .

* * *

هذه الآلاء التى أفاضها الله على جنس الإنسان فى خاصة نفسه ، وفى صميم تكوينه ، والتى من شأنها أن تعينه على الهدى : عيناه بما تريان فى صفحات هذا الكون من دلائل القدرة وموحيات الإيمان ؛ وهى معروضة فى صفحات الكون مبثوثة فى حناياه . ولسانه وشفتاه وهما أداة البيان والتعبير ؛ وعنهما يملك الإنسان أن يفعل الشىء الكثير . والكلمة أحيانا تقوم مقام السيف والقذيفة وأكثر ؛ وأحيانا تهوى بصاحبها فى النار كما ترفعه أو تخفضه . فى هذه النار . . « عن معاذ ابن جبل رضى الله عنه قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير، فقلت : يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى عن النار . قال : سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما

يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم تلا قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . . . . » ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : كف عليك هذا ، وأشار إلى لسانه . قلت : يانبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك ! وهل يكب الناس فى النار على وجوههم — أو قال : على مناخرهم — إلا حصائد ألسنتهم ؟ » رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وهدايته إلى إدراك الخير والشر ، ومعرفة الطريق إلى الجنة والطريق إلى النار ، وإعانته على الخير بهذه الهداية . .

هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا « الإنسان » إلى اقتحام العقبة التى تحول بينه وبين الجنة . هذه العقبة التى يبينها الله له فى هذه الآيات :

« فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة » . .

هذه هى العقبة التى يقتحمها الإنسان — إلا من استعان بالإيمان — هذه هى العقبة التى تقف بينه وبين الجنة . لو تخطاها لوصل! وتصويرها كذلك حافز قوى، واستجاشة للقلب البشرى ، وتحريك له ليقتحم العقبة وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم . . « فلا اقتحم العقبة » ! ففيه تحضيض ودفع وترغيب !

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم : « وما أدراك ما العقبة ! » . . إنه ليس تضخيم العقبة ، ولكنه تعظيم شأنها عند الله ، ليحفز به « الإنسان » إلى اقتحامها وتخطيها ؛ مهما تتطلب من جهد ومن كبد . فالكبد واقع واقع . وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتى ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده ، ولا يذهب ضياعا وهو واقع واقع على كل حال !

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذى كانت البيئة الخاصة التى تواجهها الدعوة فى أمس الحاجة إليه : فك الرقاب العانية ؛ وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة ، وينتهى بالأمر الذى لايتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص، والذى

تواجهه النفوس جميعا ، وهى تتخطى العقبة إلى النجاة : « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » . . .

وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة فى عتقها ، وأن العتق هو الاستقلال بهـذا . . وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة .

وقد نزل هـذا النص والإسلام فى مكة محاصر ؛ وليست له دولة تقوم على شريعته . وكان الرق عاما فى الجزيرة العربية وفى العالم من حولهـا . وكان الرقيق يعاملون معاملة قاسية على الإطلاق . فلما أن أسلم بعضهم كعمار ابن ياسر وأسرته ، وبلال ابن رباح ، وصهيب . . وغيرهم ـ رضى الله عنهم جميعا ـ اشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاة ، وأسلموهم إلى تعذيب لا يطاق . وبدا أن طريق الخلاص لهم هو تحريرهم بشرائهم من سادتهم القساة ، فكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ هو السابق كعادته دائما إلى التلبية والاستجابة فى ثبات وطمأنينة واستقامة . .

قال ابن إسحاق : « وكان بلال مولى أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ لبعض بنى جمح مولدا من مولديهم وكان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان أمية ابن خلف ابن وهب ابن حذافة ابن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة؛ ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد ...

« حتى مر به أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يوما وهم يصنعون ذلك به ـ وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح . فقال لأمية ابن خلف ، ألا تتقى الله فى هـذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى . فقال أبو بكر : أفعل . عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك » أعطيكه به . قال : قد قبلت. قال : هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ غلامه ذلك وأخذه وأعتقه .

« ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب . بلال سابعهم : عامر ابن فهيرة(شهد بدرا وقتل يوم بئر معونة شهيدا) وأم عبيس ، وزنيرة . (وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش: ماأذهب بصرها إلا اللات والعزى ! فقالت : كذبوا وبيت الله ماتضر اللات والعزى وماتنفعان . فرد الله بصرها) وأعتق النهدية وابنتها ، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبدا . فقال

أبو بكر — رضى الله عنه — حلّ ياأم فلان (أى تحللى من يمينك) فقالت : حل ! أنت أفسدتهما فأعتقهما . قال فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما وهما حرتان . ارجعا إليها طحينها . قالتا : أونفرغ منه ياأبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال : ذلك إن شئتما .

« ومر بجارية بنى مؤمل — هى من بنى عدى — وكانت مسلمة ، وكان عمر ابن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام — وهو يومئذ مشرك — وهو يضربها ، حتى إذا مل قال : إنى أعتذر إليك ، إنى لم أتركك إلا ملالة ! فتقول : كذلك فعل الله بك ! فابتاعها أبو بكر فأعتقها » .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد ابن عبد الله ابن أبى عتيق ، عن عامر ابن عبد الله ابن الزبير عن بعض أهله ، قال : قال أبو قحافة لأبى بكر : يابنى إنى أراك تعتق رقابا ضعافا . فلو أنك إذا فعلت مافعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك ! قال : فقال أبو بكر رضى الله عنه : ياأبت إنى إنما أريد ما أريد لله . . . » . .

لقد كان — رضى الله عنه — يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية . . لله . . وكانت الملابسات الحاضرة فى البيئة تجعل هذا العمل يذكر فى مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة فى سبيل الله .

«أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة » . .

والمسغبة : المجاعة ، ويوم المجاعة الذى يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان . وقد كان اليتيم يجد فى البيئة الجاهلية الجاحدة المتكالبة الخسف والغبن . ولو كان ذا قربى . وقد حفل القرآن بالوصية باليتيم . مما يدل على قسوة البيئة من حول اليتامى . وظلت هذه الوصايا تتوالى حتى فى السور المدنية بمناسبة تشريعات الميراث والوصاية والزواج . وقد مر منها الكثير فى سورة النساء خاصة . . وفى سورة البقرة وغيرهما . وكذلك إطعام المسكين ذى المتربة — أى اللاصق بالتراب من بؤسه وشدة حاله — فى يوم المسغبة يقدمه السياق القرآنى خطوة فى سبيل اقتحام العقبة ، لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار ، ومراقبة لله فى عياله ، فى يوم الشدة والمجاعة والحاجة وهاتان الخطوتان : فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إيحاءات البيئة الملحة ، وإن كانت لهما صفة العموم ، ومن ثم قدمها فى الذكر . ثم عقب بالوثبة الكبرى الشاملة :

« ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة » . . .

« وثم » هنا ليست للتراخي الزمني ، إنما هي للتراخي المعنوي باعتبار هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقا والأعلى أفقا . وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان . فالإيمان مفروض وقوعه قبـل فك الرقاب وإطعام الطعام . وهو الذي يجعل للعمل الصالح وزنا في ميزان الله . لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد . فلا يـكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب ، أو ابتغاء محمدة من البيئة أو مصلحة .

وكأنما قال : فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أومسكينا ذا متربة . . وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمـة . فثم هنا لإفادة معنى الفضل والعلو .

والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة . والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر ، وتعاونها على تـكاليف الإيمان . فهي أعضاء متجاوبة الحس . تشعر جميعا شعورا واحدا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه، فيوصي بعضها بعضا بالصبر على العبء المشترك؛ ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل ؛ ويقوي بعضها بعضا فلا تنهزم . وهذا أمر غير الصبر الفردي . وإن يـكن قائما على الصبر الفردي . وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجمـاعة المؤمنة . وهو ألا يـكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت ، ولا يـكون داعيـة هزيمة بل داعيـة اقتحام ؛ ولا يـكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة .

وكذلك التواصي بالمرحمة . فهو أمر زائد على المرحمة . إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به ، والتحاض عليـه ، واتخاذه واجبا جماعيا فرديا في الوقت ذاته ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه . وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين . فهو دين جماعة ، ومنهج أمة ، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحا كاملا . .

وأولئك الذين يقتحمون العقبة ـ كما وصفها القرآن وحددها ـ « أولئك أصحاب الميمنة » . . وهم أصحاب اليمين كما جاء في مواضع أخرى . أو أنهم أصحاب اليمن والحظ والسعادة . . وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني .

* * *

« والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة » . .

ولم يحتج هنا إلى ذكر أوصاف أخرى لفريق المشأمة غير أن يقول : « والذين كفروا بآياتنا » . . لأن صفة الكفر تنهى الموقف . فلا حسنة مع الكفر . ولا سيئة إلا والكفر يتضمنها أو يغطى عليها . فلا ضرورة للقول بأنهم الذين لا يفكون الرقاب ولا يطعمون الطعام ، ثم هم الذين كفروا بآياتنا . . فإذا كفروا فما هو بنافعهم شيء من ذلك حتى لو فعلوه !

وهم أصحاب المشأمة . أى أصحاب الشمال أوهم أصحاب الشؤم والنحس . وكلاهما كذلك قريب فى المفهوم الإيمانى . وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها !

« عليهم نار مؤصدة » .. أى مغلقة . . إما على المعنى القريب . أى أبوابها مغلقة عليهم وهم فى العذاب محبوسون . وإما على لازم هذا المعنى القريب ؛ وهو أنهم لايخرجون منها . فبحكم إغلاقها عليهم لايمكن أن يزايلوها . . وهذان المعنيان متلازمان . .

* * *

هذه هى الحقائق الأساسية فى حياة الكائن الإنسانى ، وفى التصور الإيمانى . تعرض فى هذا الحيز الصغير . بهذه القوة وبهذا الوضوح . . وهذه هى خاصية التعبير القرآنى الفريد . . .

سورة الشمس مكية
وآياتها ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ : نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » ..

هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة ، والإيقاع الموسيقى الموحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التى تبدأ بها السورة والتى تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التى تتضمنها السورة . حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان فى شأن نفسه ، وتبعته فى مصيرها . . هذه الحقيقة التى يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة .

كذلك تتضمن قصة ثمود ، وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها الناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها . وهى نموذج من الخيبة التى تصيب من لا يزكى نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزمها

تقواها : كما جاء فى الفقرة الأولى فى السورة : « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . .

* * *

« والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها. والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » . .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها . ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هـذه الخلائق قيمة كبرى؛ وأن يوجه إليها القلوب تتملاها ، وتتدبر ماذا لها من قيمة وماذا بها من دلالة ، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم .

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقا بينها وبين القلب الإنسانى لغة سرية ! متعارف عليها فى صميم الفطرة وأغوار المشاعر. وبينها وبين الروح الإنسانى تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت، وهى تنطق للقلب ، وتوحى للروح ، وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنسانى الحى ، حينما التقى بها وهو مقبل عليها ، متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء .

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب، فى شتى المواضع. تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ، ووضعها إطارا لما يليها من الحقائق . وفى هـذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هـذه التوجيهات واللمسات كثرة ظاهرة . فلا تكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق إلى هذا الكون، يطلب عنده التجاوب والإيحاء . ويتلقى عنه ــ بلغة السر المتبادل ــ ما ينطق به من دلائل وما يبثه من مناجاة !

وهنا نجد القسم الموحى بالشمس وضحاها . . بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة . وهى أروق ما تكون فى هذه الفترة وأحلى. فى الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش . وفى الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها . فالشمس فى الضحى فى أروق أوقاتها وأصفاها . وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله ، ولكنا لا نرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى . وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا .

وبالقمر إذا تلاها . . إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافى . . وبين القمر

والقلب البشرى ود قديم موغل فى السرائر والأعماق ، غائر فى شعاب الضمير ، يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب فى أية حال . وللقمر همسات وإيحاءات للقلب ، وسبحات وتسبيحات للخالق ، يكاد يسمعها القلب الشاعر فى نور القمر المنساب . . وإن القلب ليشعر أحيانا أنه يسبح فى فيض النور الغامر فى الليلة القمراء ، ويغسل أدرانه ، ويرتوى ، ويعانق هذا النور الحبيب ويستروح فيه روح الله .

ويقسم بالنهار إذا جلاها . . مما يوحى بأن المقصود بالضحى هو الفترة الخاصة لا كل النهار . والضمير فى « جلاها » . . الظاهر أن يعود إلى الشمس المذكوره فى السياق . . ولكن الايحاء القرآنى يشى بأنه ضمير هذه البسيطة . وللأسلوب القرآنى إيحاءات جانبية كهذه مضمرة فى السياق لأنها معهودة فى الحس البشرى ، يستدعيها التعبير استدعاء خفيا . فالنهار يجلى البسيطة ويكشفها . وللنهار فى حياة الإنسان آثاره التى يعلمها . وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره . فهذه اللمسة السريعة فى مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل فى هذه الظاهرة الكبرى .

ومثله : « والليل إذا يغشاها » . . والتغشية هى مقابل التجلية . والليل غشاء يضم كل شىء ويخفيه . وهو مشهد له فى النفس وقع . وله فى حياة الإنسان أثر كالنهار سواء .

ثم يقسم بالسماء وبنائها : « والسماء وما بناها » . . « وما » هنا مصدرية . ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذى نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا ، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها ومداراتها . فأما حقيقة السماء فلا ندريها . وهذا الذى نراه فوقنا متماسكا لايختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه . أما كيف هو مبنى ، وما الذى يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح فى الفضاء الذى لانعرف له أولا ولا آخرا . . فذلك مالا ندريه . وكل ماقيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل . ولا قرار لها ولا ثبات . . إنما نوقن من وراء كل شىء أن يد الله هى تمسك هذا البناء : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » . . وهذا هو العلم المستيقن الوحيد !

كذلك يقسم بالأرض وطحوها : « والأرض وما طحاها » . . والطحو كالدحو : البسط والتمهيد للحياة . وهى حقيقة قائمة تتوقف على وجودها حياة الجنس البشرى وسائر الأجناس

الحية . وهذه الخصائص والموافقات التي جعلتها يد الله في هــذه الأرض هي التي سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتدبيره . وحسب الظاهر لنا أنه لو اختلت إحداها ماأمــكن أن تنشأ الحياة ولا أن تسير في هــذا الطريق الذي سارت فيه . . وطحو الأرض أو دحوها كما قال في الآية الأخرى: «والأرض بعدذلك دحاها أخرج منهاماءهاومرعاها[1]». وهو أكبر هذه الخصائص والموافقات ويد الله وحدها هي التي تولت هذا الأمر . فحين يذكر هنا بطحو الأرض ، فإنما يذكر بهذه اليد التي وراءه . ويلمس القلب البشري هذه اللمسة للتدبر والذكرى .

* * *

ثم تجيء الحقيقة الــكبرى عن النفس البشرية في سياق هــذا القسم ، مرتبطة بالــكون ومشاهده وظواهره. وهي إحدى الآيات الــكبرى في هذا الوجود الترابط المتناسق :

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » . .

وهذه الآيات الأربع ، بالإضافة إلى آية سورة البلد السابقة : « وهديناه النجدين » . . وآية سورة الإنسان : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » .. تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام . . وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان، كقوله تعالى في سورة « ص » : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا لهساجدين » .. كما أنها مرتبطة ومــكملة للآيات التي تقرر التبعة الفردية : كقوله تعالى في سورة المدثر: « كل نفس بما كسبت رهينة » . . والآيات التي تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان ، كقوله تعالى في سورة الرعد : « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

ومن خلال هــذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها . .

إن هذا الــكائن مخلوق مزدوج الطبيعة،مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تــكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال . فهو قادر على التمييز بين ماهو خير وماهو شر . كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء . وأن هــذه القدرة

---

(١) سورة النازعات في هذا الجزء ص ٢١،٣١ .

كامنة فى كيانه ، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة : « ونفس وماسواها، فألهمها فجورها وتقواها » ..
ويعبر عنها بالهداية تارة : « فهديناه النجدين » . . فهى كامنة فى صميمه فى صورة استعداد . .
والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هـذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها
هنا أوهناك . ولكنها لاتخلقها خلقا . لأنها مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعا ، وكامنة إلهاما .

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة فى ذات
الإنسان . هى التى تناط بها التبعة . فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية
استعداد الخير فيها ، وتغليبه على استعداد الشر . . فقد أفلح . ومن أظلم هـذه القوة وخبأها
وأضعفها فقد خاب : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » . .

وهنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هـذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه.
توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو فى حقل الخير وفى حقل الشر سواء . فهى حرية
تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تـكليف، ومنحة يقابلها واجب ..

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامى، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف،
فأعانه بالرسالات التى تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتـكشف له عن موحيات الإيمان ،
ودلائل الهدى فى نفسه وفى الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشى الهوى فيبصر الحق فى صورته
الصحيحة .. وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشفا لاغبش فيه ولاشبهة فتتصرف القوة الواعية
حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذى تختاره وتسير فيه .

وهذه فى جملتها هى مشيئة الله بالإنسان . وكل مايتم فى دائرتها فهو محقق لمشيئة الله
وقدره العام .

* * *

هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد[1] تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة فى التوجيه التربوى :
فهى أولا ترتفع بقيمة هذا الـكائن الإنسانى ، حين تجعله أهلا لاحتمال تبعة اتجاهه ، وتمنحه
حرية الاختيار (فى إطار المشيئة الإلهية التى شاءت له هـذه الحرية فيما يختار) فالحرية والتبعة
يضعان هذا الـكائن فى مـكان كريم ، ويقرران له فى هـذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة
التى نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده ، وفضلها على كثير من العالمين .

---

(١) يراجع بتوسع فى نظرية الإسلام النفسية كتاب « الإنسان بين المـادية والإسلام » لمحمد قطب.

وهى ثانيا تلقى على هـذا الـكائن تبعة مصيره ، وتجعل أمره بين يديه (فى إطار المشيئة الـكبرى كما أسلفنا) فتثير فى حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى . وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه : « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » .. وهى تبعة ثقيلة لايغفل صاحبها ولا يغفو !

وهى ثالثا تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهيـة الثابتة ، ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه ، ولم يضلله ، كى لايقوده الهوى إلى المهلـكة ، ولا يحق عليـه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه . وبذلك يظل قريبا من الله ، يهتدى بهديه ، ويستضىء بالنور الذى أمده به فى متاهات الطريق !

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها ، وهو يغتسل فى نور الله الفائض ، ويتطهر فى هـذا العباب الذى يتـدفق حوله من ينابيع الوجود . .

* * *

بعـد ذلك يعرض نموذجا من نماذج الخيبة التى ينتهى إليها من يدسى نفسه ، فيحجبها عن الهدى ويدنسها . ممثلا هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونـكال وهلاك :

« كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها . فـكذبوه فعقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها » . .

وقد وردت قصة ثمود ونبيها صالح ـ عليـه السلام ـ فى مواضع شتى من القرآن . وسبق الحديث عنها فى كل موضع . وأقربها ماجاء فى هـذا الجزء فى سورة « الفجر » فيرجع إلى تفصيلات القصة هناك .

فأما فى هذا الموضع فهو يذكر أن ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها ، فـكان الطغيان وحده هو سبب التـكذيب . وتمثل هذا الطغيان فى انبعاث أشقاها . وهو الذى عقر الناقة. وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتـكب من الإثم . وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على الفعلة فقال لهم . احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا المـاء الذى جعل لها يوما ولهم

يوما كما اشترط عليهم عند ما طلبوا منه آية فجعل الله هـذه الناقة آية ــ ولا بد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض فى تفصيلاته ، لأن الله لم يقل لنا عنـه شيئا ــ فكذبوا النـذير فعقروا الناقة . والذى عقرها هو هـذا الأشقى . ولـكنهم جميعا حملوا التبعة وُعـدوا أنهم عقروها ، لأنهم لم يضربوا على يده ، بل استحسنوا فعلته . وهذا مبدأ من مبادىء الإسلام الرئيسية فى التكافل فى التبعة الاجتماعيـة فى الحياة الدنيا . لايتعارض مع التبعة الفردية فى الجزاء الأخروى حيث لاتزر وازرة وزر أخرى . على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغى والشر .

عندئذ تتحرك يد القـدرة لتبطش البطشة الـكبرى : « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » . .

والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنـكيل . واللفظ ذاته . . « دمدم » يوحى بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم مشهدا مروعا مخيفا ! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهو المشهد الذى يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد . .

« ولا يخاف عقباها » .. سبحانه وتعالى . . ومن ذا يخاف ؟ وماذا يخاف ؟ وأنى يخاف ؟ إنما يراد من هـذا التعبير لازمه المفهوم منه . فالذى لايخاف عاقبـة مايفعل ، يبلغ غاية البطش حين يبطش . وكذلك بطش الله كان : إن بطش ربك لشديد . فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله فى النفوس . .

* * *

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الـكبيرة ، ومشاهده الثابتة ، كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله فى أخذ المـكذبين والطغاة ، فى حدود التقدير الحـكيم الذى يجعل لـكل شىء أجلا ، ولـكل حادث موعدا ، ولـكل أمر غاية ، ولـكل قدر حـكمة ، وهو رب النفس والـكون والقدر جميعا . .



سورة الليل مكية
وآياتها ٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ .

« إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ * فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ » . .

فى إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء . ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر : « إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .. وكانت العاقبة كذلك فى الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة : « فأنذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى .. » .

لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين ، وذات اتجاهين . . كذلك كان الإطار المختار

لها فى مطلع السورة ذا لونين فى الـكون وفى النفس سواء : « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى » .. « وماخلق الذكر والأنثى » . . وهذا من بدائع التناسق فى التعبير القرآنى (١) .

* * *

« والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . . وماخلق الذكر والأنثى » ...

يقسم الله — سبحانه — بهاتين الآيتين : الليل والنهار . مع صفة كل منهما الصفة المصورة المشهد . « الليل إذا يغشى » .. « والنهار إذا تجلى » . . الليل حين يغشى البسيطة ، ويغمرها ويخفيها . والنهار حين يتجلى ويظهر ، فيظهر فى تجليه كل شىء ويسفر . وهما آنان متقابلان فى دورة الفلك ، ومتقابلان فى الصورة ، ومتقابلان فى الخصائص ، ومتقابلان فى الآثار . . كذلك يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين : « وما خلق الذكر والأنثى » . . تـكملة لظواهر التقابل فى جو السورة وحقائقها جميعا .

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إيحاء للقلب البشرى ؛ ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفـكر فيهما وفيما وراءهما . والنفس تتأثر تأثرا تلقائيا بتقلب الليل والنهار . الليل إذا يغشى ويعم ، والنهار إذا تجلى وأسفر . ولهذا التقلب حديث وإيحاء حديث عن هذا الـكون المجهول الأسرار ، وعن هذه الظواهر التى لايملك البشر من أمرها شيئا . وإيحاء بما وراء هذا التقلب من قدرة تدير الآونة فى الـكون كما تدار العجلة اليسيرة ! وبما هنالك من تغير وتحول لا يثبت أبدا على حال .

ودلالتهما عند التدبر والتفكر قاطعة فى أن هنالك يدا أخرى تدير هذا الفلك ، وتبدل الليل والنهار . بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهـذه الدقة . وأن الذى يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضا . ولايتركهم سدى ، كما أنه لايخلقهم عبثا .

ومهما حاول المنكرون والمضلون أن يلغوا فى هذه الحقيقة ، وأن يحولوا الأنظار عنها ، فإن القلب البشرى سيظل موصولا بهذا الـكون ، يتلقى إيقاعاته ، وينظر تقلباته ، ويدرك تلقائيا كما يدرك بعد التدبر والتفـكر ، أن هنالك مدبرا لا محيد من الشعور به ، والاعتراف بوجوده من وراء اللغو والهذر ، ومن وراء الجحود والنكران !

وكذلك خلقة الذكر والأنثى . . إنها فى الإنسان والثدييات الحيوانية نطفة تستقر فى رحم .

---

(١) يراجم بتوسع فصل : التناسق الفنى فى كتاب : التصوير الفنى فى القرآن .

وخلية تتحد ببويضة . ففيم هذا الاختلاف فى نهاية المطاف؟ ماالذى يقولهذه : كونى ذكرا ، ويقول لهذه : كونى أنثى ؟ . . إن كشف العوامل التى تجعل هذهالنطفة تصبح ذكرا ، وهذه تصبح أنثى لايغير من واقع الأمر شيئا . . فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهـذه العوامل هناك ؟ وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكرا ، وصيرورة هـذه أنثى هو الحدث الذى يتناسق مع خط سير الحياة كلها ، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى ؟

مصادفة ؟ ! إن للمصادفة كذلك قانونا يستحيل معه أن تتوافر هـذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة . .فلايبقى إلا أن هنالك مدبرا يخلق الذكر والأنثى لحكمةمرسومة وغاية معلومة. فلا مجال للمصادفة ، ولامكان للتلقائية فى نظام هذا الوجود أصلا .

والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك للأنواع كلها غير الثدييات. فهى مطردة فىسائر الأحياء ومنها النبات .. قاعدة واحدة فىالخلق لا تتخلف . لايتفرد ولايتوحد إلا الخالق سبحانه الذى ليس كمثله شىء . .

هذه بعض إيحاءات تلك المشاهدالكونية، وهذه الحقيقةالإنسانية التىيقسم الله ـ سبحانه ـ بها ، لعظيم دلالتها وعميق إيقاعها . والتى يجعلها السياق القرآنى إطارا لحقيقة العمل والجزاء فى الحياة الدنيا وفى الحياة الأخرى . .

* * *

يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلةفى الكون وفى الناس على أنسعى الناس مختلف وطرقهم مختلفة ، ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك ؛ فليس الخير كالشر ، وليس الهدى كالضلال، وليس الصلاح كالفساد ، وليس من أعطى واتقى كمن بخل واستغنى ، وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى . وأن لكل طريقا ، ولكل مصيرا ، ولكل جزاء وفاقا :

« إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، ومايغنى عنه ماله إذا تردى » . .

إن سعيكم لشتى .. مختلف فى حقيقته . مختلف فى بواعثه . مختلف فى اتجاهه . مختلف فى نتائجه .. والناس فى هذه الأرض تختلف طبائعهم ، وتختلف مشاربهم ، وتختلف تصوراتهم ، وتختلف اهتماماتهم ، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش فى كوكب خاص .

هذه حقيقة . ولكن هناك حقيقة أخرى . حقيقة إجمالية تضم أشتات البشر جميعا . وتضم

هذه العوالم المتباينة كلها . تضمها فى حزمتين اثنتين . وفى صفين متقابلين. تحت رايتين عامتين: « من أعطى واتقى وصدق بالحسنى » . . و« من بخل واستغنى وكذب بالحسنى » . .

من أعطى نفسه وماله . واتقى غضب الله وعـذابه . وصدق بهـذه العقيدة التى إذا قيل « الحسنى » كانت اسما لها وعلما عليها .

ومن بخل بنفسه وماله . واستغنى عن الله وهداه . وكذب بهذه الحسنى . .

هـذان هما الصفان اللذان يلتقى فيهما شتات النفوس ، وشتات السعى ، وشتات المناهج، وشتات الغايات . ولـكل منهما فى هذه الحياة طريق . . ولـكل منهما فى طريقه توفيق !

« فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى . . فسنيسره لليسرى » . .

والذى يعطى ويتقى ويصدق بالحسنى يـكون قد بذل أقصى مافى وسعه ليزكى نفسه ويهـديها . عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذى أوجبـه ـ سبحانه ـ على نفسه بإرادته ومشيئته . والذى بدونه لايـكون شىء ، ولا يقدر الإنسان على شىء .

ومن يسره الله لليسرى فقد وصل . . وصل فى يسر وفى رفق وفى هوادة . . وصل وهو بعد فى هذه الأرض . وعاش فى يسر . يفيض اليسر من نفسه على كل ماحوله وعلى كل من حوله . اليسر فى خطوه . واليسر فى طريقه . واليسر فى تناوله للأمور كلها . والتوفيق الهادىء المطمئن فى كلياتها وجزئياتها . وهى درجة تتضمن كل شىء فى طياتها . حيث تسلك صاحبها مع رسـول الله ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ فى وعد ربه له : « ونيسرك لليسرى [1] » . .

« وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . . فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله إذا تردى . » . .

والذى يبخل بنفسه وماله ، ويستغنى عن ربه وهداه ، ويـكذب بدعوته ودينه . . يبلغ أقصى مايبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد . ويستحق أن يعسر الله عليه كل شىء ، فييسره للعسرى ! ويوفقه إلى كل وعورة ! ويحرمه كل تيسير ! ويجعل فى كل خطوة من خطاه مشقة وحرجا ، ينحرف به عن طريق الرشاد . ويصعد به فى طريق الشقاوة . وإن حسب أنه سائر فى طريق الفلاح . وإنما هو يعثر فيتقى العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله ، وتنأى به عن

---

(١) براجع تفسير قوله تعالى : « ونيسرك لليسرى » فى سورة الأعلى ص ١٢٤

رضاه . . فإذا تردى وسقط فى نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذى بخل به، والذى استغنى به كذلك عن الله وهـداه . . « وما يغنى عنـه ماله إذا تردى » . . والتيسير للشر والمعصية من التيسير للعسرى ، وإن أفلح صاحبها فى هـذه الأرض ونجا . . وهل أعسر من جهنم ؟ وإنها لهى العسرى ! .

هكذا ينتهى المقطع الأول فى السورة . وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية فى كل زمان ومكان . وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان . وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ! فييسر الله له طريقـه : إما إلى اليسرى وإما إلى العسرى .

فأما المقطع الثانى فيتحدث عن مصير كل فريق . ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى ، ومن يسره للعسرى . وقبل كل شىء يقرر أن مايلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق ، كما أنه واقع وحتم . فقد بين الله للناس الهدى ، وأنذرهم نارا تلظى :

« إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتـكم نارا تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » . .

لقد كتب الله على نفسه ــ فضلا منه بعباده ورحمة ــ أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم . وأن يبينه لهم كذلك بالرسل والرسالات والآيات ، فلا تـكون هناك حجة لأحد ، ولا يكون هناك ظلم لأحد : « إن علينا للهدى » . .

واللمسة الثانية هى التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التى تحيط بالناس ، فلا يجدون من دونها موئلا : « وإن لنا للآخرة والأولى » . . فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيدا ؟ !

وتفريعا على أن الله كتب على نفسه بيان الهدى للعباد ، وأن له الآخرة والأولى دارى الجزاء والعمل . تفريعا على هـذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم : « فأنذرتـكم نارا تلظى » . . وتتسعر . . هذه النار المتسعرة « لا يصلاها إلا الأشقى » . . أشقى العباد جميعا . وهل بعد الصلى فى النار شقوة ؟ ثم يبين من هو الأشقى . إنه : « الذى كذب وتولى » . . كذب بالدعوة وتولى عنها . تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتى إليه راغبا .

« وسيجنبها الأتقى » . . وهو الأسعد فى مقابل الأشقى . . ثم يبين من هو الأتقى :
« الذى يؤتى ماله يتزكى » . . الذى ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه ، لاليرائى به ويستعلى . ينفقه تطوعا لاردا لجميل أحد ، ولاطلبا لشكران أحد ، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصا .. ربه الأعلى ..

« ومالأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » ..

ثم ماذا ؟ ماذا ينتظر هذا الأتقى ، الذى يؤتى ماله تطهرا ، وابتغاء وجه ربه الأعلى ؟ إن الجزاء الذى يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب . ومفاجىء . وعلى غير المألوف .

« ولسوف يرضى » .

إنه الرضى ينسكب فى قلب هـذا الأتقى . إنه الرضى يغمر روحه . إنه الرضى يفيض على جوارحه . إنه الرضى يشيع فى كيانه . إنه الرضى يندى حياته ..

وياله من جزاء ! ويالها من نعمة كبرى !

« ولسوف يرضى » . . يرضى بدينه . ويرضى بربه . ويرضى بقدره . ويرضى بنصيبه . ويرضى بمـا يجد من سراء وضراء . ومن غنى وفقر . ومن يسر وعسر . ومن رخاء وشدة . يرضى فلا يقلق ولايضيق ولا يستعجل ولا يستثقل العبء ، ولايستبعد الغاية .. إن هـذا الرضى جزاء — جزاء أكبر من كل جزاء — جزاء يستحقه من يبذل له نفسه وماله — من يعطى ليتزكى . ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

إنه جزاء لايمنحه إلا الله . وهو يسكبه فى القلوب التى تخلص له ، فلاترى سواه أحدا .

« ولسوف يرضى » ..

يرضى وقد بذل الثمن . وقد أعطى ماأعطى ..

إنها مفاجأة فى موضعها هـذا . ولـكنها المفاجأة المرتقبة لمن يبلغ مابلغه الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، ومالأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ..

« ولسوف يرضى » ...



سورة الضحى مكية وآياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

هــذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها ، وظلالها وإيقاعها ، لمسة من حنان . ونسمة من رحمة . وطائف من ود . ويد حانيـة تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالروح والرضى والأمل . وتسكب البرد والطمأنينة واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كلها نجاء له من ربه، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين . كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود ، وألطاف من القــربى ، وهدهدة للروح المتعب ، والخاطر المقلق ، والقلب الموجوع .

ورد فى روايات كثيرة أن الوحى فتر عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبطأ عليه جبريل ــ عليــه السلام ــ فقال المشركون : ودع محمـدا ربه ! فأنزل الله تعالى هــذه السورة . .

والوحى ولقاء جبريل والاتصال بالله ، كانت هى زاد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى مشقة الطريق . وسقياه فى هجير الجحود. وروْحه فى لأواء التكذيب. وكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ

يحيا بهـا فى هـذه الهاجرة المحرقة التى يعانيها فى النفوس النـافرة الشاردة العصية العنيدة . ويعانيها فى المـكر والـكيد والأذى المصبوب على الدعوة ، وعلى الإيمان ، وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحى انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب . وبقى الهاجرة وحده . بلا زاد . وبلا رى . وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود . . وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه . .

عندئذ نزلت هذه السورة . نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين . .

« ماودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى » . .

وما تركك ربك من قبل أبدا ، وما قلاك من قبل قط ، وما أخلاك من رحمته ورعايتـه وإيوائه . .

« ألم يجدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالا فهدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟ » . .

ألا تجد مصداق هذا فى حياتك ؟ ألا تحس مس هذا فى قلبك ؟ ألا ترى أثر هذا فى واقعك ؟

لا . لا .. «ماودعك ربك وماقلى» .. وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبدا .. «وللآخرة خير لك من الأولى » . . وهناك ماهو أكثر وأوفى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » !

ومع هـذه الأنسام اللطيفة من حقيقة الأمر وروحه . . الأنسام اللطيفة فى العبـارة والإيقاع . . وفى الإطار الـكونى الذى وضعت فيه هذه الحقيقة :

« والضحى . والليل إذا سجى » . .

« لقد أطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف ، والرحمـة الوديعة ، والرضى الشامل ، والشجى الشفيف :

« ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى » . . « ألم يجـدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالا فهـدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟ » . . ذلك الحنان . وتلك الرحمـة . وذاك الرضى . وهـذا الشجى : تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هـذه الموسيقى السارية فى التعبير . الموسيقى الرتيبـة

الحركات ، الوئيدة الخطوات ، الرقيقة الأصـداء ، الشجية الإيقاع . . فلما أراد إطارا لهـذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديعة ، ولهذا الرضى الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجى . أصفى آنين من آونة الليل والنهار . وأشف آنين تسرى فيهما التأملات . وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود . وتحس بعبادة الـكون كله لمبدعه ، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء . وصورهما فى اللفظ المناسب . فالليل هو « الليل إذا سجى » ، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه . الليـل الساجى الذى يرق ويسكن ويصفو ، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف ، والتأمل الوديع . كجو اليتم والعيلة . ثم ينـكشف ويجلى مع الضحى الرائق الصافى . . فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار . ويتم التناسق والاتساق »[1] .

إن هذا الإبداع فى كمال الجمال ليدل على الصنعة . صنعة الله التى لا تماثلها صنعة ، ولا يتلبس بها تقليد !

* * *

« والضحى . والليل إذا سجى . ماودعك ربك . وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى » . .

يقسم الله سبحانه ـ بهـذين الآنين الرائقين الوحيين . فيربط بين ظـواهر الـكون ومشاعر النفس . ويوحى إلى القلب البشرى بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هـذا الوجود الجميل الحى ، المتعاطف مع كل حى . فيعيش ذلك القلب فى أنس من هذا الوجود ، غير موحش ولا غريب فيه فريد . . وفى هـذه السورة بالذات يـكون لهـذا الأنس وقعه . فظل الأنس هو المراد مده . وكأنما يوحى الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ مطلع السورة ،أن ربه أفاض من حوله الأنس فى هذا الوجود، وأنه من ثم غير مجفوّ فيه ولا فريد !

وبعد هذا الإيحاء الـكونى يجىء التوكيد المباشر : « ماودعك ربك وما قلى » . . ماتركك ربك ولا جفاك ـ كما زعم من يريدون إيذاء روحك وإيجاع قلبك وإقلاق خاطرك . . وهو « ربك » وأنت عبـده المنسوب إليـه ، المضاف إلى ربوبيتـه ، وهو راعيك وكافلك . .

---

(١) من كتاب التصوير الفنى فى القرآن ص ١٠٥ من الطبعة الرابعة .

وما غاض معين فضله وفيض عطائه . فإن لك عنده فى الآخرة من الحسنى خيرا مما يعطيك منها فى الدنيا : « وللآخرة خير لك من الأولى » .. فهو الخير أولا وأخيرا ..

وإنه ليدخر لك مايرضيك من التوفيق فى دعوتك ، وإزاحة العقبات من طريقك ، وغلبة منهجك ، وظهور حقك . . وهى الأمور التى كانت تشغل باله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ وهو يواجه العناد والتــكذيب والأذى والــكيد . . والشماتة . . « ولسوف يعطيك ربك فترضى » . .

* * *

ويمضى سياق السورة يذكر الرسول ــ صلى الله عليــه وسلم ــ ما كان من شأن ربه معه منــذ أول الطريق . ليستحضر فى خاطره جميــل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليــه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهى . وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع :

« ألم يجدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالا فهدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟ » . .

انظر فى واقع حالك ، وماضى حياتك . . هل ودعك ربك وهل قلاك ــ حتى قبل أن يعهــد إليك بهــذا الأمر ؟ ــ ألم تحط يتمك رعايته ؟ ألم تدرك حيرتك هــدايته ؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه ؟

لقد ولدت يتيما فآواك إليــه ، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبى طالب وهو على غير دينك !

ولقد كنت فقيرا فأغنى الله نفسك بالقناعة ، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك (خديجــة رضى الله عنها) عن أن تحس الفقر ، أو تتطلع إلى ماحولك من ثراء !

ثم لقــد نشأت فى جاهلية مضطربة التصورات والعقائد ، منحرفة السلوك والأوضاع ، فلم تطمئن روحك إليها . ولــكنك لم تــكن تجد لك طريقا واضحا مطمئنا . لا فيما عند الجاهليــة ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا . . ثم هداك الله بالأمر الذى أوحى به إليك،وبالمنهج الذى يصلك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هى المنــة الــكبرى ، التى لاتعدلها منــة ؛ وهى الراحة والطمأنينة من القلق الذى لايعدله قلق ؛ ومن التعب الذى لايعدله تعب ، ولعلها

كانت بسبب مما كان رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ يعانيه فى هـذه الفترة ، من انقطاع الوحى وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب . فجاءت هـذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحى فى التيه وهو لم يتركه من قبل فى الحيرة والتيه !

* * *

وبمناسبة ماذكره ربه بإيوائه من اليتم ، وهدايته من الحيرة وإغنائه من العيلة . . يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه ، وفى أولها : الهداية إلى هذا الدين :

« فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث » . .

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهى عن قهره وكسر خاطره وإذلاله ، وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة ، كانت ـ كما ذكرنا مرارا ـ من أهم إيحاءات الواقع فى البيئة الجاحدة المتكالبة ، التى لاترعى حق ضعيف ، غير قادر على حماية حقه بسيفه ! حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل ، والتحرج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله ، الذى يحرس حدوده ويغار عليها ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لايملكون قوة ولا سيفا يذودون به عن هذه الحقوق .

وأما التحدث بنعمة الله ـ وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ـ فهو صورة من صور الشكر للمنعم . يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملى للشكر ، والحديث الصامت النافع الكريم . .

سُورة الشرح مكيّة
وآياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ؟ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ؟ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ؟ * فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَبْ » . .

نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى . وكأنها تكملة لها . فيها ظل العطف الندى . وفيها روح المناجاة الحبيب . وفيها استحضار مظاهر العناية. واستعراض مواقع الرعاية .وفيها البشرى باليسر والفرج. وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق . .

* * *

« ألم نشرح لك صدرك ؟ ووضعنا عنك وزرك. الذى أنقض ظهرك ؟ ورفعنا لك ذكرك؟ »

وهى توحى بأن هناك ضائقة كانت فى روح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمر من أمور هذه الدعوة التى كلفها ، ومن العقبات الوعرة فى طريقها ؛ ومن الكيد والمكر المضروب حولها . . توحى بأن صدره ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مثقلا بهموم هذه الدعوة الثقيلة ، وأنه كان يحس العبء فادحا على كاهله . وأنه كان فى حاجة إلى عون ومدد وزاد ورصيد . .

ثم كانت هذه المناجاة الحلوة ، وهذا الحديث الودود !

« ألم نشرح لك صدرك ؟ » . . ألم نشرح صدرك لهـذه الدعوة ؟ ونيسر لك أمرها ؟ . ونجعلها حبيبة لقلبك ، ونشرع لك طريقها ؟ وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة !

فتش فى صدرك ـ ألا تجد فيه الروْح والانشراح والإشراق والنور ؟ واستعد فى حسك مذاق هذا العطاء ، وقل : ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب ، واليسر مع كل عسر ، والرضى مع كل حرمان ؟

« ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك » .. ووضعنا عنك عبئك الذى أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله .. وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان . وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب . وبالوحى الذى يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس فى يسر وهوادة ولين .

ألا تجد ذلك فى العبء الذى أنقض ظهرك ؟ ألا تجـد عبئك خفيفا بعـد أن شرحنا لك صدرك ؟

« ورفعنا لك ذكرك » . . رفعناه فى الملإ الأعلى ، ورفعناه فى الأرض ، ورفعناه فى هـذا الوجود جميعا . . رفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله كلما تحركت به الشفاه :

« لاإله إلا الله . محمد رسول الله » .. وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة. وهو المقام الذى تفرد به ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون سائر العالمين ..

ورفعنا لك ذكرك فى اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه فى كل مكان تهتف بهـذا الاسم الكريم ، مع الصلاة والتسليم ، والحب العميق العظيم .

ورفعنا لك ذكرك . وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهى الرفيع . وكان مجرد الاختيار لهـذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد فى هذا الوجود ..

فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هـذا العطاء الذى يمسح على كل مشقة وكل عناء ؟

* * *

ومع هـذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار ، ويسرى عنه ، ويؤنسه ، ويطمئنه ويطلعه على اليسر الذى لايفارقه :

« فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا » ..

إن العسر لايخلو من يسر يصاحبه ويلازمه . وقد لازمه معك فعلا . فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك ، فخف حملك ، الذى أنقض ظهرك . وكان اليسر مصاحبا للعسر ، يرفع إصره ، ويضع ثقله .

وإنه لأمر مؤكد يكرره بألفاظه : « فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا » . . وهذا التكرار يشى بأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان فى عسرة وضيق ومشقة، اقتضت هذه الملاحظة ، وهذا التذكير ، وهذا الاستحضار لمظاهر العناية ، وهذا الاستعراض لمواقع الرعاية ، وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد . . والأمر الذى يثقل على نفس محمد هكذا لابد أنه كان أمرا عظيما . .

* * *

ثم يجىء التوجيه الكريم لمواقع التيسير ، وأسباب الانشراح ، ومستودع الرى والزاد فى الطريق الشاق الطويل :

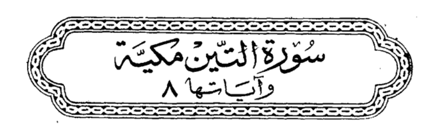
« فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب » . .

إن مع العسر يسرا . . فخذ فى أسباب اليسر والتيسير . فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ،ومع شواغل الحياة . . إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله إذن إلى مايستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد . . العبادة والتجرد والتطلع والتوجه . . « وإلى ربك فارغب ». . إلى ربك وحده خاليا من كل شىء حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم . . إنه لابد من الزاد للطريق . وهنا الزاد . ولابد من العدة للجهاد . وهنا العدة . . وهنا ستجد يسرا مع كل عسر ،وفرجا مع كل ضيق . . هذا هو الطريق !

* * *

وتنتهى هذه السورة كما انتهت سورة الضحى ، وقد تركت فى النفس شعورين ممتزجين: الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذى ينسم على روح الرسول — صلى الله عليه وسلم — من ربه الودود الرحيم .والشعور بالعطف على شخصه — صلى الله عليه وسلم — ونحن نكاد نلمس ماكان يساور قلبه الكريم فى هذه الآونة التى اقتضت ذلك الود الجميل .

إنها الدعوة . هذه الأمانة الثقيلة وهذا العبء الذى ينقض الظهر . وهى مع هذا وهذا مشرق النور الإلهى ومهبطه ، ووصلة الفناء بالبقاء ، والعدم بالوجود !



بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ؟ »

الحقيقة الرئيسية التى تعرضها هذه السورة هى حقيقة الفطرة القويمة التى فطر الله الإنسان عليها ، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان ، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها . وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان .

ويقسم الله ــ سبحانه ــ على هذه الحقيقة بالتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، وهذا القسم ــ على ماعهدنا فى كثير من سور هذا الجزء ــ هو الإطار الذى تعرض فيه تلك الحقيقة . وقد رأينا فى السور المماثلة أن الإطار يتناسق مع الحقيقة التى تعرض فيه تناسقا دقيقا .

وطور سينين هو الطور الذى نودى موسى ــ عليه السلام ــ من جانبه . والبلد الأمين هو مكة بيت الله الحرام . . وعلاقتهما بأمر الدين والإيمان واضحة .. فأما التين والزيتون فلا يتضح فيهما هذا الظل فيما يبدو لنا .

وقد كثرت الأقوال المأثورة فى التين والزيتون .. قيل : إن التين إشارة إلى طورتينا بجوار دمشق .

وقيل : هو إشارة إلى شجرة التين التى راح آدم وزوجه يخصفان من ورقها على سوآتهما فى الجنة التى كانا فيها قبل هبوطهما إلى هـذه الحياة الدنيا . وقيل : هو منبت التين فى الجبل الذى استوت عليه سفينة نوح ـ عليه السلام .

وقيل فى الزيتون : إنه إشارة إلى طور زيتا فى بيت المقدس . وقيل : هو إشارة إلى بيت المقدس نفسه . وقيل : هو إشارة إلى غصن الزيتون الذى عادت به الحمامة التى أطلقها نوح عليه السلام ـ من السفينة ـ لترتاد حالة الطوفان . فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض انكشفت وأنبتت !

وقيل : بل التين والزيتون هما هـذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقتهما . وليس هنـاك رمز لشىء وراءهما . . أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض . . .

وشجرة الزيتون أشير إليها فى القرآن فى موضع آخر بجوار الطور : فقال : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » .. كما ورد ذكر الزيتون : « وزيتونا ونخلا » . . فأما « التين » فذكره يرد فى هـذا الموضع لأول مرة وللمرة الوحيـدة فى القرآن كله .

ومن ثم فإننا لانملك أن نجزم بشىء فى هـذا الأمر . وكل ما نملك أن نقوله ـ اعتمادا على نظائر هذا الإطار فى السور القرآنية ـ : إن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان . أو ذات علاقة بنشأة الإنسان فى أحسن تقويم (وربما كان ذلك فى الجنة التى بدأ فيها حياته) . . كى تلتئم هـذه الإشارة مع الحقيقة الرئيسية البارزة فى السورة ؛ ويتناسق الإطار مع الحقيقة الموضوعة فى داخـله . على طريقة القرآن . . .

***

فأما الحقيقة الداخلية فى السورة فهى هـذه : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » . .

ومنها تبـدو عناية الله بخلق هـذا الإنسان ابتـداء فى أحسن تقويم . والله ـ سبحانه ـ أحسن كل شىء خلقه . فتخصيص الإنسان هنا وفى مواضع قرآنيـة أخرى بحسن التركيب ، وحسن التقويم ، وحسن التعديل . . فيه فضل عناية بهذا المخلوق .

وإن عناية الله بأمر هـذا المخلوق ـ على مابه من ضعف وعلى مايقع منه من انحـراف عن الفطرة وفساد ـ لتشير إلى أن له شأنا عند الله ، ووزنا فى نظام هذا الوجود . وتتجلى هـذه العناية فى خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء فى تكوينه الجثمانى البالغ الدقة والتعقيد ، أم فى تكوينه العقلى الفريد ، أم فى تكوينه الروحى العجيب .

والتركيز فى هذا المقام على خصائصه الروحية . فهى التى تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها . إذ أنه من الواضح أن خلقته البدنية لاتنتكس إلى أسفل سافلين .

وفى هـذه الخصائص الروحيـة يتجلى تفوق التكوين الإنسانى . فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين . كما تشهد بذلك قصة المعراج .. حيث وقف جبريل ـ عليه السلام ـ عند مقام ، وارتفع محمد ابن عبد الله ـ الإنسان ـ إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان مهيأ ـ حين ينتكس ـ لأن يهوى إلى الدرك الذى لايبلغ إليـه مخلوق قط : « ثم رددناه أسفل سافلين » .. حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم، لاستقامتها على فطرتها، وإلهامها تسبيح ربها، وأداء وظيفتها فى الأرض على هدى . بينما هو المخلوق فى أحسن تقويم ، يجحد ربه ، ويرتكس مع هواه ، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه .

« لقـد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » . . فطرة واستعدادا . . « ثم رددناه أسفل سافلين » . . حين ينحرف بهـذه الفطرة عن الخط الذى هداه الله إليـه ، وبينه له ، وتركه ليختار أحد النجدين .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . فهؤلاء هم الذى يبقون على سواء الفطرة ، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح ، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها ، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال فى دار الكمال . « فلهم أجر غير ممنون » دائم غير مقطوع .

فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين ، فيظلون ينحدرون بها فى المنحدر ، حتى تستقر فى الدرك الأسفل . هناك فى جهنم ، حيث تهدر آدميتهم ، ويتمحضون للسفول !

فهـذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء . . إما استقامة على الفطرة القويمة ، وتكميل لها بالإيمان ، ورفع لها بالعمل الصالح . . فهى واصلة فى النهاية إلى كمالها المقدر فى حياة النعيم ..

وإما انحراف عن الفطرة القويمة ، واندفاع مع النكسة ، وانقطاع عن النفخة الإلهية . . فهى واصلة فى النهاية إلى دركها المقرر فى حياة الجحيم .

ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان فى حياة الإنسان . . إنه المرتقى الذى تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كمالها . إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها . إنه النور الذى يكشف لها مواقع خطاها فى المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين .

وحين ينقطع هذا الحبل ، وحين ينطفىء هذا النور ، فالنتيجة الحتمية هى الارتكاس فى المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، والانتهاء إلى إهدار الآدمية كلية ، حين يتمحض الطين فى الكائن البشرى ، فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء !

* * *

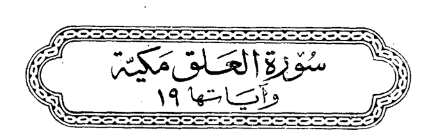
وفى ظل هذه الحقيقة ينادى « الإنسان » :

« فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ » . .

فما يكذبك بالدين بعد هذه الحقيقة ؟ وبعد إدراك قيمة الإيمان فى حياة البشرية ؟ وبعد تبين مصير الذين لا يؤمنون ، ولا يهتدون بهذا النور ، ولا يمسكون بحبل الله المتين ؟

« أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ » . . أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم فى أمر الخلق على هذا النحو ؟ أو . . أليست حكمة الله بالغة فى هذا الحكم على المؤمنين وغير المؤمنين ؟

والعدل واضح . والحكمة بارزة . . ومن ثم ورد فى الحديث المرفوع عن أبى هريرة : « فإذا قرأ أحدكم « والتين والزيتون » فأتى آخرها : « أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ » . . فليقل . . بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » . .



بسم الله الرحمن الرحيم

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ .

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ؟ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ؟ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ؟ * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ؟

« كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ .

« كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » .

مطلع هـذه السورة هو أول ما نزل من القرآن باتفاق. والروايات التي تذكر نزول غيرها ابتداء ليست وثيقة. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر ابن الزهري، عن عروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: .

« أول مابدئ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود إلى ذلك.

ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك ، فقال : اقرأ . قال : ماأنا بقارئ ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ماأنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ،ثم أرسلنى فقال : اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . . فرجع بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة ، فقال « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال : ياخديجة مالى ؟ وأخبرها الخبر . وقال : « قد خشيت على نفسى » فقالت له : كلا . أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل ابن أسد ابن عبد العزى ابن قصى ، وهو ابن عم خديجة أخى أبيها . وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية . كان يكتب الكتاب العربى ، وكتب العبرانية من الإنجيل — ماشاء الله أن يكتب — وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ابن أخى ، ماترى ؟ فأخبره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بما رأى . فقال ورقة : هـذا الناموس الذى أنزل على موسى . ليتنى فيها جذع ، ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: « أومخرجىّ هم ؟ » فقال ورقة : نعم . لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عُودِىَ ، وإن أدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفى . . . الخ » . وهـذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى . .

وروى الطبرى — بإسناده — عن عبدالله ابن الزبير . قال :

« قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : فجاءنى — وأنا نائم — بنمط من ديباج فيه كتاب . فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ . فغتنى حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ وماأقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إلىّ بمثل ماصنع بى . قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . إلى قوله : علم الانسان مالم يعلم » قال : فقرأته . ثم انتهى ، ثم انصرف عنى . وهببت من نومى ، وكأنما كتب فى قلبى كتابا . قال : ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أومجنون . كنت لاأطيق أن أنظر إليهما، قال : قلت : إن الأبعد — يعنى

نفسه ـ لشاعر أو مجنون ، لا تحدث بها عنى قريش أبدا ! لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسى منه فلأقتلنها فلأستريحن ! قال : فخرجت أريد ذلك . حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد . أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت رأسى إلى السماء ، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلنى ذلك عما أردت ، فما أتقدم وماأتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلاأنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ماأتقدم أمامى ، ولاأرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى . ثم انصرف عنى وانصرفت راجعا إلى أهلى ... » ..

وقد رواه ابن إسحاق مطولا عن وهب ابن كيسان عن عبيد أيضا . .

* * *

وقفت هنا أمام هذا الحادث الذى طالما قرأناه فى كتب السيرة وفى كتب التفسير ، ثم مررنا به وتركناه ، أو تلبثنا عنده قليلا ثم جاوزناه !

إنه حادث ضخم . ضخم جدا . ضخم إلى غير حد . ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته ، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا !

إنه حادث ضخم بحقيقته . وضخم بدلالته . وضخم بآثاره فى حياة البشرية جميعا . . وهذه اللحظة التى تم فيها هـذا الحادث تعد ـ بغير مبالغة ـ هى أعظم لحظة مرت بهـذه الأرض فى تاريخها الطويل .

ماحقيقة هذا الحادث الذى تم فى هذه اللحظة ؟

حقيقته أن الله جل جلاله ، العظيم الجبار القهار المتكبر ، مالك الملك كله ، قد تكرم ـ فى عليائه ـ فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان ، القابعة فى ركن من أركان الكون لايكاد يرى اسمه الأرض . وكرم هـذه الخليقة باختيار واحـد منها ليكون ملتقى نوره الإلهى ، ومستودع حكمته ، ومهبط كلماته ، وممثل قدره الذى يريده ـ سبحانه ـ بهذه الخليقة .

وهـذه حقيقة كبيرة . كبيرة إلى غير حد . تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان ـ قدر طاقته ـ حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية . ويتصور فى ظلها حقيقة العبودية

المحدودة الحادثة الفانية . ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنسانى ؛ ويتذوق حلاوة هذا الشعور ؛ ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال . . وهو يتصور كلمات الله ، تتجاوب بها جنبات الوجود كله ، منزّلة لهـذا الإنسان فى ذلك الركن المنزوى من أركان الوجود الضئيلة !

وما دلالة هذا الحادث ؟

دلالته ــ فى جانب الله سبحانه ــ أنه ذو الفضل الواسع ، والرحمة السابغة ، الكريم الودود المنان . يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة ، سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة .

ودلالته ــ فى جانب الإنسان ــ أن الله ــ سبحانه ــ قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها ، ولا يملك أن يشكرها . وأن هذه وحدها لاينهض لها شكره ولوقضى عمره راكعا ساجدا . . هذه . . أن يذكره الله ، ويلتفت إليه ، ويصله به ، ويختار من جنسه رسولا يوحى إليه بكلماته. وأن تصبح الأرض . . مسكنه . . مهبطا لهـذه الكلمات التى تتجاوب بها جنبات الوجود فى خشوع وابتهال .

فأما آثار هذا الحادث الهائل فى حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ اللحظة الأولى . بدأت فى تحويل خط التاريخ ، منذ أن بدأت فى تحويل خط الضمير الإنسانى . منذأن تحددت الجهة التى يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه . . إنها ليست الأرض وليس الهوى . . إنما هى السماء والوحى الإلهى .

ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت فى أرواحهم هذه الحقيقة . . فى كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة . عاشوا يتطلعون إلى الله مباشرة فى كل أمرهم . كبيره وصغيره . يحسون ويتحركون تحت عين الله . ويتوقعون أن تمتد يده ــ سبحانه ــ فتنقل خطاهم فى الطريق خطوة خطوة . تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب . . وفى كل ليلة كانوا يبيتون فى ارتقاب أن يتنزل عليهم من الله وحى يحدثهم بما فى نفوسهم ، ويفصل فى مشكلاتهم ، ويقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك !

ولقد كانت فترة عجيبة حقا . فترة الثلاثة والعشرين عاما التالية ، التى استمرت فيها هــذه الصلة الظاهرة المباشرة بين البشر والملإ الأعلى . فترة لايتصور حقيقتها إلا الذين عاشوها .

وأحسوها . وشهدوا بدأها ونهايتها . وذاقوا حلاوة هذا الاتصال . وأحسوا يدالله تنقل خطاهم في الطريق. ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا .. وهى مسافة هائلة لا تقاس بأى مقياس من مقاييس الأرض . مسافة فى الضمير لا تعدلها مسافة فى الكون الظاهر ، ولا يماثلها بعد بين الأجرام والعوالم ! المسافة بين التلقى من الأرض والتلقى من السماء . بين الاستمداد من الهوى والاستمداد من الوحى . بين الجاهلية والإسلام . بين البشرية والربانية، وهى أبعد مما بين الأرض والسماء فى عالم الأجرام !

وكانوا يعرفون مذاقها . ويدركون حلاوتها . ويشعرون بقيمتها، ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الرفيق الأعلى، وانقطعت هذه الفترة العجيبة التى لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقا .

عن أنس — رضى الله عنه — قال : قال أبو بكر لعمر — رضى الله عنهما — بعد وفاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انطلق بنا إلى أم أيمن — رضى الله عنها — نزورها كما كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يزورها . فلما أتيا إليها بكت . فقالا لها : ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ قالت : بلى ، إنى لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولكن أبكى أن الوحى قد انقطع من السماء . فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها . . . . . (أخرجه مسلم) . . .

ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل فى حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد ولد الانسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الأرض ، واستمداد شريعته من الوحى لا من الهوى [1] .

لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط ، وكما لم يتحول من بعد أيضا. وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق. وقامت المعالم فى الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان، ولا تطمسها الأحداث . وقام فى الضمير الإنسانى تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة ،ولم يجىء بعده تصور فى مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعا ، مع

(١) يراجع تفسير سورة «عبس وتولى » ص ٣٧ من هذا الجزء .

واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية . ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهى فى الأرض! وتبينت خطوطه ومعالمه . « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة » .. لاغموض ولا إبهام . إنما هو الضلال عن علم ، والانحراف عن عمد ، والالتواء عن قصد !

إنه الحادث الفذ فى تلك اللحظة الفريدة . الحادث الكونى الذى ابتـدأ به عهد فى هـذه الأرض وانتهى عهد . والذى كان فرقانا فى تاريخ البشر لافى تاريخ أمة ولا جيل . والذى سجلته جنبات الوجود كله وهى تتجاوب به ، وسجله الضمير الإنسانى . وبقى أن يتلفت هـذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها . وأن يذكر دائما أنه ميلاد جديد للإنسانية لم يشهده إلا مرة واحدة فى الزمان . . .

* * *

ذلك شأن المقطع الأول من السورة . فأما بقيتها فواضح أنها نزلت فيما بعد . فهى تشير إلى مواقف وحوادث فى السيرة لم تجىء إلا متأخرة ، بعد تـكليف الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ إبلاغ الدعوة ، والجهر بالعبادة ، وقيـام المشركين بالمعارضة . وذلك مايشير إليـه قوله تعالى فى السورة : « أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ؟ » . . . الخ

ولـكن هناك تناسقا كاملا بين أجزاء السورة ، وتسلسلا فى ترتيب الحقائق التى تضمنتها بعد هذا المطلع المتقدم . يجعل من السورة كلها وحدة منسقة متماسكة . .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . .

إنها السورة الأولى من هـذا القرآن ، فهى تبـدأ باسم الله . وتوجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول ماتوجه ، فى أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى ، وفى أول خطوة من خطواته فى طريق الدعوة التى اختير لها . . توجهه إلى أن يقرأ باسم الله : « اقرأ باسم ربك » . .

وتبدأ من صفات الرب بالصفة التى بها الخلق والبدء : « الذى خلق » . .

ثم تخصص : خلق الإنسان ومبـدأه : « خلق الإنسان من علق » . . من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة بالرحم . من ذلك المنشأ الصغير الساذج التـكوين . فتـدل على كرم

الخالق فوق ماندل على قــدرته . فمن كرمه رفع هــذا العلق إلى درجة الإنسان الذى يُعلم فيتعلم : « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » . .

وإنها لنقلة بعيدة جدابين المنشأ والمصير . ولـكن الله قادر . ولـكن الله كريم . ومن ثم كانت هذه النقلة التى تدير الرؤوس !

وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم . . تعليم الرب للإنسان « بالقلم » . . . لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا فى حياة الإنسان .. ولم تـكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذى نلمسه الآن ونعرفه فى حياة البشرية . ولـكن الله ــ سبحانه ــ كان يعلم قيمة القلم ، فيشير إليه هذه الإشارة فى أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية . فى أول سورة من سور القرآن الـكريم . . هـذا مع أن الرسول الذى جاء بها لم يـكن كاتبا بالقلم ، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذى يقول هــذا القرآن . لولا أنه الوحى ، ولولا أنها الرسالة !

ثم تبرز مصدر التعليم . . إن مصدره هو الله . منه يستمد الإنسان كل ماعلم ، وكل مايعلم. وكل مايفتح له من أسرار هذا الوجود ، ومن أسرار هذه الحياة ، ومن أسرار نفسه . فهو من هناك . من ذلك المصدر الواحد ، الذى ليس هناك سواه .

وبهـذا المقطع الواحد الذى نزل فى اللحظة الأولى من اتصال الرسول ــ صلى الله عليــه وسلم ــ بالملأ الأعلى ، بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيمانى العريضة ..

كل أمر . كل حركة . كل خطوة . كل عمل . باسم الله . وعلى اسم الله . باسم الله تبدأ . وباسم الله تسير . وإلى الله تتجه ، وإليه تصير .

والله هو الذى خلق . وهو الذى علم . فمنــه البدء والنشأة ، ومنــه التعليم والمعــرفة . . والإنسان يتعلم مايتعلم ، ويعلم مايعلم . . فمصدر هــذا كله هو الله الذى خلق والذى علم . . « علم الإنسان مالم يعلم » . . .

وهــذه الحقيقة القرآنية الأولى ، التى تلقاها قلب رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ فى اللحظة الأولى هى التى ظلت تصرف شعوره ، وتصرف لسانه ، وتصرف عمله واتجــاهه ، بعد ذلك طوال حياته . بوصفها قاعدة الإيمان الأولى .

قال الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية فى كتابه : « زاد المعاد فى هدى خير العباد » يلخص هدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى ذكر الله : .

« كان النبى صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل . بل كان كلامه كله فى ذكر الله وماوالاه . وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له ، وثناؤه عليه بآلاءه وتمجيده وتحميده وتسبيحه ذكرا منه له ، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له . وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه . فكان ذاكرا لله فى كل أحيانه وعلى جميع أحواله . وكان ذكره لله يجرى مع أنفاسه قائما وقاعداً وعلى جنبه ، وفى مشيته وركوبه ، وسيره ونزوله ، وظعنه وإقامته .

« وكان إذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ماأماتنا وإليه النشور . وقالت عائشة كان إذا هب من الليل كبر عشرا ،وهلل عشراً ، ثم قال : اللهم إنى أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشراً ، ثم يستفتح الصلاة . وقالت أيضا : كان إذا استيقظ من الليل قال : لاإله إلا أنت سبحانك . اللهم أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك . اللهم زدنى علماً ، ولاتزغ قلبي بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب « ذكرها أبو داود » . وأخبر أن من استيقظ من الليل فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم قال : اللهم اغفرلى ، أودعاء آخر استجيب له فإن توضأ وصلى قبلت صلاته « ذكره البخارى » .

وقال ابن عباس عنه — صلى الله عليه وسلم — ليلة مبيته عنده : إنه لما استيقظ رفع رأسه للسماء ، وقال العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران . . « إن فى خلق السماوات والأرض ... الخ » ثم قال . . « اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهى لاإله إلا أنت، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

« وقد قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ كان إذا قام من الليل قال : اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » . وربما قالت : كان يفتتح صلاته بذلك .

« وكان إذا أوتر ختم وتره بعد فراغه بقوله : سبحان الله القدوس (ثلاثا) ويمد بالثالثة صوته .

« وكان إذا خرج من بيته يقول : بسم الله توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل ، أو يُجهل على (حديث صحيح) .

« وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ من قال إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولاحول ولاقوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » (حديث حسن) .

« وقال ابن عباس عنه ــ ليلة مبيته عنده ــ : إنه خرج إلى صلاة الفجر وهو يقول : اللهم اجعل فى قلبى نورا ، واجعل فى لسانى نورا ، واجعل فى سمعى نورا ، واجعل فى بصرى نورا ، واجعل من خلفى نورا ، ومن أمامى نورا ، واجعل من فوقى نورا ، واجعل من تحتى نورا . اللهم أعظم لى نورا » .

« وقال فضل ابن مرزوق عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ماخرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاى إليك ، فإنى لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة ، وإنما خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى ، فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت . إلا وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له ، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته » .

وذكر أبو داود عنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه كان إذا دخل المسجد قال أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم . فإذا قال ذلك قال الشيطان : حفظ منى سائر اليوم » .

وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليصل وليسلم على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، فإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » . وذكر عنه أنه كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول : اللهم اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك . فإذا خرج صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول : اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى باب فضلك » .

« وكان إذا صلى الصبح جلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل . وكان يقول إذا أصبح : اللهم بك أصبحنا ،وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك النشور. (حديث صحيح) . وكان يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . رب أسألك خير مافى هذا اليوم وخير مابعده ، وأعوذ بك من شر هذا اليوم، وشر مابعده ؛ رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر . وإذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله . . الخ (ذكره مسلم) .

« وقال له أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ مرنى بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال : قل : اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شىء مليكه ومالكه . أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم . قال : قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك » (حديث صحيح) . « ثم ذكر أحاديث كثيرة فى هذا الباب » .

. . . . « وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا استجد ثوبا سماه باسمه عمامة أو قميصا أو رداء . ثم يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ماصنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له . (حديث صحيح) .

« ويذكر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته : « الحمد لله الذى كفانى وآوانى ، والحمد لله الذى أطعمنى وسقانى ، والحمد لله الذى مَنَّ على . أسألك أن تجيرنى من النار » .

« وثبت عنه فى الصحيحين أنه كان يقول عند دخوله الخلاء : اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث » .

« وكان إذاخرج من الخلاء قال : « غفرانك » ويذكر عنه أنه كان يقول: الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى (ذكره ابن ماجه) .

« وثبت عنه أنه وضع يده فى الإناء الذى فيه الماء ، ثم قال للصحابة : توضأوا باسم الله .

« ويذكر عنه أنه كان يقول « عند رؤية الهلال » : « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله (قال الترمذى حديث حسن) .

« وكان إذا وضع يده فى الطعام قال : باسم الله . ويأمر الآكل بالتسمية ويقول : إذا

أ كل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى ، فإن نسى أن يذكر اسم الله فى أوله فليقل : باسم الله فى أوله وآخره » (حديث صحيح) .

وهكذا كانت حياته كلها — صلى الله عليه وسلم — بدقائقها متأثرة بهذا التوجيه الإلهى الذى تلقاه فى اللحظة الأولى . وقام به تصوره الإيمانى على قاعدته الأصيلة العريقة . .

* * *

ولقد كان من مقتضيات تلك الحقيقة : حقيقة أن الله هو الذى خلق . وهو الذى علم . وهو الذى أكرم . أن يعرف الإنسان . ويشكر . ولكن الذى حدث كان غير هذا ، وهذا الانحراف هو الذى يتحدث عنه المقطع الثانى للسورة :

« كلا ! إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى » . .

إن الذى أعطاه فأغناه هو الله . كما أنه هو الذى خلقه وأكرمه وعلمه . ولكن الإنسان فى عمومه — لا يستثنى إلا من يعصمه إيمانه — لا يشكر حين يُعطى فيستغنى ؛ ولا يعرف مصدر النعمة التى أغنته ، وهو المصدر الذى أعطاه خلقه وأعطاه علمه . . ثم أعطاه رزقه . . ثم هو يطغى ويفجر ، ويبغى ويتكبر ، من حيث كان ينبغى أن يعرف ثم يشكر .

وحين تبرز صورة الإنسان الطاغى الذى نسى نشأته وأبطره الغنى ، يجيء التعقيب بالتهديد الملفوف : « إن إلى ربك الرجعى » فأين يذهب هذا الذى طغى واستغنى ؟

وفى الوقت ذاته تبرز قاعدة أخرى من قواعد التصور الإيمانى . قاعدة الرجعة إلى الله . الرجعة إليه فى كل شىء وفى كل أمر ، وفى كل نية ، وفى كل حركة ، فليس هناك مرجع سواه . إليه يرجع الصالح والطالح . والطائع والعاصى . والمحق والمبطل . والخير والشرير . والغنى والفقير . . وإليه يرجع هذا الذى يطغى أن رآه استغنى . ألا إلى الله تصير الأمور . . ومنه النشأة وإليه المصير .

وهكذا تجتمع فى القطعين أطراف التصور الإيمانى . . الخلق والنشأة . والتكريم والتعليم . . ثم . . الرجعة والمآب لله وحده بلا شريك : « إن إلى ربك الرجعى » . .

* * *

ثم يمضى المقطع الثالث فى السورة القصيرة يعرض صورة من صور الطغيان : صورة مستنكرة يعجب منها ، ويفظع وقوعها فى أسلوب قرآنى فريد .

« أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ؟ أرأيت إن كان على الهدى أوأمر بالتقوى ؟ أرأيت إن كذب وتولى ؟ ألم يعلم بأن الله يرى ؟ » .

والتشنيع والتعجيب واضح فى طريقة التعبير ، التى تتعذر مجاراتها فى لغة الكتابة . ولا تؤدى إلا فى أسلوب الخطاب الحى . الذى يعبر باللمسات المتقطعة فى خفة وسرعة !

« أرأيت » ؟ أرأيت هـذا الأمر المستنكر ؟ أرأيته يقع ؟ «أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ؟ » .

أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة ؟ وتضاف بشاعة إلى بشاعة ؟ أرأيت إن كان هـذا الذى يصلى ويتعرض له من ينهاه عن صلاته . . إن كان على الهدى أوأمر بالتقوى ؟ ثم ينهاه من ينهاه . مع أنه على الهدى ، آمر بالتقوى ؟ .

أرأيت إن أضاف إلى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكرا؟ «أرأيت إن كذب وتولى ؟» .

هنا يجىء التهديد الملفوف كما جاء فى نهاية المقطع الماضى : « ألم يعلم بأن الله يرى ؟ » يرى تكذيبه وتوليه . ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى ، وهو على الهدى ، آمر بالتقوى . يرى . وللرؤية ما بعدها ! « ألم يعلم بأن الله يرى ! »

* * *

وأمام مشهد الطغيان الذى يقف فى وجه الدعوة وفى وجه الإيمان، وفى وجه الطاعة ، يجىء التهديد الحاسم الرادع الأخير ، مكشوفا فى هـذه المرة لاملفوفا : « كلا . لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية » .

إنه تهديد فى إبانه . فى اللفظ الشديد العنيف : « كلا. لئن لم ينته لنسفعن بالناصية » .

هـكذا « لنسفعن » بهذا اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه . والسفع : الأخذ بعنف . والناصية : الجبهة . أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر . مقدم الرأس المتشامخ : إنها ناصية تستحق السفع والصرع : « ناصية كاذبة خاطئة » ! وإنها للحظة سفع وصرع . فقد يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وصحبه : « فليدع ناديه » أما نحن فإننا « سندع الزبانيـة » الشداد الغلاظ . . والمعركة إذن معروفة المصير !

وفى ضوء هذا المصير المتخيل الرعيب . . تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته . .

« كلا . لاتطعه ، واسجد ، واقترب . »

كلا ! لاتطع هـذا الطاغى الذى ينهى عن الصلاة والدعوة . واسجد لربك واقترب منـه بالطاعة والعبادة . ودع هذا الطاغى . الناهى دعه للزبانية !

ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأن السورة ـ عدا المقطع الأول منها ـ قد نزلت فى أبى جهل إذ مر برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى عند المقام . فقال (يامحمد . ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده . فأغلظ له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتهره . .) ولعلها هى التى أخذ فيها رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بخناقه وقال له : « أولى لك ثم أولى » فقال : يامحمد بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى ناديا ، فأنزل الله : « فليدع ناديه . . . » وقال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته ملائـكة العذاب من ساعته . ولـكن دلالة السورة عامة فى كل مؤمن طائع عابد داع إلى الله . وكل طاغ باغ ينهى عن الصلاة ، ويتوعد على الطاعة ، ويختـال بالقوة . . والتوجيـه الربانى الأخـير : « كلا ! لاتطعه واسجد واقترب » . .

* * *

وهـكذا تتناسق مقاطع السورة كلها وتتـكامل إيقاعاتها . . .



بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » . .

الحديث فى هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التى سجلها الوجود كله فى فرح وغبطة وابتهال. ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملإ الأعلى . ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة ذلك الحدث العظيم الذى لم تشهد الأرض مثله فى عظمته، وفى دلالته ، وفى آثاره فى حياة البشرية جميعا . العظمة التى لا يحيط بها الإدراك البشرى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ؟ » . . « ليلة القدر خير من ألف شهر » . .

والنصوص القرآنية التى تذكر هذا الحدث تكاد ترف وتنير . بل هى تفيض بالنور الهادئ السارى الرائق الودود . نور الله المشرق فى قرآنه : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ونور الملائكة والروح وهم فى غدوهم ورواحهم طوال الليلة بين الأرض والملإ الأعلى :

« تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » . . ونور الفجر الذى تعرضه

النصوص متناسقا مع نور الوحى ونور الملائكة ، وروح السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السارية فى هذا الوجود : « سلام هى حتى مطلع الفجر » .

والليلة التى تتحدث عنها السورة هى الليلة التى جاء ذكرها فى سورة الدخان: « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » .. والمعروف أنها ليلة من ليالى رمضان، كما ورد فى سورة البقرة : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .. أى التى بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبلغه إلى الناس . وفى رواية ابن إسحاق أن أول الوحى بمطلع سورة العلق كان فى شهر رمضان ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحنث فى غار حراء .

وقد ورد فى تعيين هذه الليلة آثار كثيرة . بعضها يعين الليلة السابعة والعشرين من رمضان . وبعضها يعين الليلة الواحدة والعشرين . وبعضها يعينها ليلة من الليالى العشر الأخيرة . وبعضها يطلقها فى رمضان كله . فهى ليلة من ليالى رمضان على كل حال فى أرجح الآثار ..

* * *

واسمها : « ليلة القدر » .. قد يكون معناه التقدير والتدبير . وقد يكون معناه القيمة والمقام . وكلاهما يتفق مع ذلك الحدث الكونى العظيم . حدث القرآن والوحى والرسالة . . وليس أعظم منه ولا أقوم فى أحداث هذا الوجود . وليس أدل منه كذلك على التقدير والتدبير فى حياة العبيد . وهى خير من ألف شهر . والعدد لا يفيد التحديد . فى مثل هذه المواضع من القرآن . إنما هو يفيد التكثير . والليلة خير من آلاف الشهور فى حياة البشر . فكم من آلاف الشهور وآلاف السنين قد انقضت دون أن تترك فى الحياة بعض ما تركته هذه الليلة المباركة السعيدة من آثار وتحولات .

والليلة من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشرى : « وما أدراك ما ليلة القدر؟» وذلك بدون حاجة إلى التعلق بالأساطير التى شاعت حول هذه الليلة فى أوهام العامة . فهى ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل هذا القرآن . وإفاضة هذا النور على الوجود كله ، وإسباغ السلام الذى فاض من روح الله على الضمير البشرى والحياة الإنسانية ، وبما تضمنه هذا القرآن

من عقيدة وتصور وشريعة وآداب تشيع السلام فى الأرض والضمير [١] . وتنزل الملائكة وجبريل — عليه السلام — خاصة ، بإذن ربهم ، ومعهم هذا القرآن — باعتبار جنسه الذى نزل فى هذه الليلة — وانتشارهم فيما بين السماء والأرض فى هذا المهرجان الكونى، الذى تصوره كلمات السورة تصويرا عجيبا ..

* * *

وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطاولة إلى تلك الليلة المجيدة السعيدة ، ونتصور ذلك المهرجان العجيب الذى شهدته الأرض فى هـذه الليلة ، ونتدبر حقيقة الأمر الذى تم فيها، ونتملى آثاره المتطاولة فى مراحل الزمان ، وفى واقع الأرض، وفى تصورات القلوب والعقول.. فإننا نرى أمرا عظيما حقا . وندرك طرفا من مغزى هـذه الإشارة القرآنية إلى تلك الليلة : « وماأدراك ماليلة القدر ؟ » ..

لقد فرق فيها من كل أمر حكيم . وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازين . وقد قررت فيها من أقدار أكبر من أقدار الأفراد. أقدار أمم ودول وشعوب . بل أكثر وأعظم .. أقدار حقائق وأوضاع وقلوب !

ولقد تغفل البشرية — لجهالتها ونكد طالعها — عن قدر ليلة القدر . وعن حقيقة ذلك الحدث ، وعظمة هذا الأمر . وهى منذ أن جهلت هذا وأغفلته فقدت أسعد وأجمل آلاء الله عليها ، وخسرت السعادة والسلام الحقيقى — سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع [٢] — الذى وهبها إياه الإسلام . ولم يعوضها عما فقدت مافتح عليها من أبواب كل شىء من المادة والحضارة والعمارة . فهى شقية ، شقية على الرغم من فيض الإنتاج وتوافر وسائل المعاش !

لقد انطفأ النور الجميل الذى أشرق فى روحها مرة ، وانطمست الفرحة الوضيئة التى رفت بها وانطلقت إلى الملإ الأعلى . وغاب السلام الذى فاض على الأرواح والقلوب . فلم يعوضها شىء عن فرحة الروح ونور السماء وطلاقة الرفرفة إلى عليين ..

* * *

ونحن — المؤمنين — مأمورون أن لاننسى ولانغفل هـذه الذكرى ؛ وقد جعل لنا نبينا

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : السلام العالمى والإسلام .

(٢) فصول فى كتاب : السلام العالمى والإسلام .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبيلا هينا لينا لاستحياء هذه الذكرى فى أرواحنا لتظل موصولة بها أبدا ، موصولة كذلك بالحدث الكونى الذى كان فيها . وذلك فيما حثنا عليه من قيام هـذه الليلة من كل عام ، ومن تحريها والتطلع إليها فى الليـالى العشر لأخيرة من رمضان . . فى الصحيحين : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » .. وفى الصحيحين كذلك: « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » ..

والإسـلام ليس شكليات ظاهرية . ومن ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القيام فى هذه الليلة أن يكون « إيمانا واحتسابا » .. وذلك ليـكون هذا القيام استحياء للمعانى الـكبيرة التى اشتملت عليها هـذه الليلة « إيمانا » وليـكون تجردا لله وخلوصا «واحتسابا » .. ومن ثم تنبض فى القلب حقيقة معينة بهذا القيام . ترتبط بذلك المعنى الذى نزل به القرآن .

والمنهج الإسلامى فى التربية يربط بين العبادة وحقائق العقيدة فى الضمير ، ويجعل العبادة وسيلة لاستحياء هـذه الحقائق وإيضاحها وتثبيتها فى صورة حية تتخلل المشاعر ولا تقف عند حدود التفـكير .

وقد ثبت أن هذا المنهج وحده هو أصلح المناهج لإحياء هذه الحقائق ومنحها الحركة فى عالم الضمير وعالم السلوك . وأن الإدراك النظرى وحده لهـذه الحقائق بدون مساندة العبادة ، وعن غير طريقها ، لا يقر هـذه الحقائق ، ولا يحركها حركة دافعـة فى حيـاة الفرد ولا فى حياة الجماعة . .

وهـذا الربط بين ذكرى ليلة القدر وبين القيام فيها إيمانا واحتسابا ، هو طرف من هذا المنهج الإسلامى الناجح القويم .

سورة البينة مدنية
وآياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ . ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » ..

هذه السورة معدودة فى المصحف وفى أكثر الروايات أنها مدنية . وقد وردت بعض الروايات بمكيتها . ومع رجحان مدنيتها من ناحية الرواية، ومن ناحية أسلوب التعبير التقريرى ، فإن كونها مكية لا يمكن استبعاده . وذكر الزكاة فيها وذكر أهل الكتاب لا يعتبر قرينة مانعة . فقد ورد ذكر أهل الكتاب فى بعض السور المقطوع بمكيتها . وكان فى مكة بعض أهل الكتاب الذين

آمنوا ، وبعضهم لم يؤمنوا . كما أن نصارى نجران وفدوا على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مكة وآمنوا كما هو معروف . وورد ذكر الزكاة كذلك في سور مكية .

* * *

والسورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريرى هو الذى يرجح أنها مدنية إلى جانب الروايات القائلة بهذا .

والحقيقة الأولى هي أن بعثة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف ، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة :

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة » ..

والحقيقة الثانية : أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه ، إنما اختلفوا من بعد ماجاءهم العلم وجاءتهم البينة : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة » .

والحقيقة الثالثة : أن الدين في أصله واحد ، وقواعده بسيطة واضحة ، لاتدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » .

والحقيقة الرابعة : أن الذين كفروا بعد ماجاءتهم البينة هم شر البرية وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية . ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافا بينا :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » . .

وهذه الحقائق الأربعة ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة . وفي التصور الإيماني كذلك . نفصلها فيما يلى :

* * *

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة »

لقد كانت الأرض فى حاجة ماسة إلى رسالة جديدة .كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة ، ومنهج جديد ، وحركة جديدة . وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعا سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها ، أو المشركون فى الجزيرة العربية وفى خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذى صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة : «رسول من الله يتلو صحفا مطهرة» .. مطهرة من الشرك والكفر « فيها كتب قيمة » ..والكتاب يطلق على الموضوع ، كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة ، وكتاب القدر ، وكتاب القيامة ، وهذه الصحف المطهرة — وهى هذا القرآن — فيها كتب قيمة أى موضوعات وحقائق قيمة ..

ومن ثم جاءت هذه الرسالة فى إبانها ، وجاء هذا الرسول فى وقته، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث فى الأرض كلها حدثا لا تصلح الأرض إلا به . فأما كيف كانت الأرض فى حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفى فى بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذى كتبه الرجل المسلم « السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى » بعنوان : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » . . وهو أوضح وأخصر ماقرأناه فى موضوعه :

جاء فى الفصل الأول من الباب الأول :

« كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف . فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون .وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردى . وقد زادتها الأيام سرعة فى هبوطها وشدة فى إسفافها . وكان الإنسان فى هذا القرن قد نسى خالقه ، فنسى نفسه ومصيره ، وفقد رشده ، وقوة التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقبيح. وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن ، والمصابيح التى أوقدوها قد انطفأت من العواصف التى هبت بعدهم ، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب ، فضلا عن البيوت ،فضلا عن البلاد . وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ،ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات

فرارا بدينهم من الفتن ، وضنا بأنفسهم ، أورغبة إلى الدعة والسكون ، وفرارا من تكاليف الحياة وجدها ، أو فشلا فى كفاح الدين والسياسة ، والروح والمادة ؛ ومن بقى منهم فى تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل . . .

« أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين ؛ ولعبة المجرمين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ؛ وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها لاتحمل للعالم رسالة ، ولاللأمم دعوة ، وأفلست فى معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعا صافيا من الدين السماوى ، ولا نظاما ثابتا من الحكم البشرى »..

هذه اللمحة السريعة تصور فى إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية . وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذى شمل أهل الكتاب والمشركين فى مواضع شتى..

من ذلك قوله عن اليهود والنصارى : « وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله[١] » .. « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء[٢] » . .

وقوله عن اليهود : « وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء[٣] » .

وقوله عن النصارى : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم[٤] » . . « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة[٥] » .

وقوله عن المشركين : « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ؛ ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين » .. وغيره كثير . .

---

(١) سورة التوبة : ٣٠
(٢) سورة البقرة : ١١٣
(٣) المائدة : ٦٤
(٤) المائدة ٧٢
(٥) المائدة : ٧٣

وكان وراء هذا الكفر ماوراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذى عم أرجاء الأرض ... « وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ،ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء [1] » .

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة . وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادى المبين . . .

* * *

ولما قرر هذه الحقيقة فى مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا فى دينهم عن جهل أو عن غموض فى الدين أو تعقيد . إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ماجاءتهم البينة من دينهم على أيدى رسلهم :

« وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة » . .

وكان أول التفرق والاختلاف ماوقع بين طوائف اليهود قبل بعثة عيسى ــ عليه السلام ــ فقد انقسموا شعبا وأحزابا . مع أن رسولهم هو موسى ــ عليه السلام ــ وكتابهم هو التوراة. فكانوا طوائف خمسة رئيسية هى طوائف الصدوقيين ، والفريسيين ، والآسيين ، والغلاة ، والسامريين .. ولكل طائفة سمة واتجاه. ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى ، مع أن المسيح ــ عليه السلام ــ هو أحد أنبياء بنى إسرائيل وآخرهم ،وقد جاء مصدقا لمابين يديه من التوراة. ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الذميم . وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ماتقشعر له الأبدان.

« وقد تجدد فى أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم (أى اليهود) إلى المسيحيين. وبغض المسيحيين إليهم ، وشوه سمعتهم . ففى السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠ م) أوقع اليهود بالمسيحيين فى أنطاكية ، فأرسل الامبراطور قائده « ابنوسوس » ليقضى على ثورتهم ، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعا قتلا بالسيف ، وشنقا ، وإغراقا ، وإحراقا ، وتعذيبا ، ورميا للوحوش الكاسرة ... وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة ، قال

---

(١) عن كتاب : ماذا خسر العالم. . .

المقريزى فى كتاب الخطط : « وفى أيام (فوقا) ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس ، وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا إلى مصر فى طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبيا لايدخل تحت حصر. وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ؛ وأقبلوا نحو الفرس من طبرية، وجبل الجليل ، وقرية الناصرة ومدينة صور ، وبلاد القدس ؛ فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيستين بالقدس ، وأحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيرا من أصحابه . إلى أن قال — بعد أن ذكر فتح القدس :

« فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور ، وأرسلوا بقيتهم فى بلادهم ، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم ، فكانت بينهم حرب ، اجتمع فيها من اليهود نحو ٢٠ ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور . فقوّس النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة ، وقتل منهم كثير. وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية،وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ماضربه الفرس ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ويحلف لهم على ذلك ، فأمنهم وحلف لهم . ثم دخل القدس ، وقد تلقاهم النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها خرابا ، فساءه ذلك ، وتوجع لهم ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس ، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قياماً كبيراً فى قتلهم عن آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك . فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لاحرج عليه فى قتلهم ، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم،وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ! فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم فى مصر والشام إلا من فر واختفى . .

« وبهذه الروايات يعلم ماوصل إليه الفريقان : اليهود والنصارى ، من القسوة والضراوة بالدم الإنسانى ، وتحين الفرص للنكاية فى العدو ، وعدم مراعاة الحدود فى ذلك » (١) .

---

(١) عن كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٩ — ١١ طبعة أولى .

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم ، مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد . تفرقوا واختلفوا أولا فى العقيدة . ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقاتلة . وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح ـ عليه السلام ـ وعما إذا كانت لاهوتية أو ناسوتية . وطبيعة أمه مريم . وطبيعة الثالوث الذى يتألف منه « الله » ـ فى زعمهم ـ وحكى القرآن قولين منها أوثلاثة فى قوله : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » .. « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثه » « وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس : اتخدونى وأمى إلهين من دون الله [1] ؟ » .

« وكان أشد مظاهر هـذا الخلاف الدينى ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، وبين نصارى مصر . أوبين « الملـكانية » ، « المنوفوسية » بلفظ أصح. فـكان شعار الملـكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هى الإلاهية . التى تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع فى بحر عميق لاقرار له . وقد اشتد هـذا الخلاف بين الحزبين فى القرن السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أوكأنه خلاف بين اليهود والنصارى . . كل طائفة تقول للأخرى : إنها ليست على شىء .

« وحاول الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس (سنة ٦٣٨) جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض فى الـكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولـكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أوقضاء واحد . وفى صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك ، وصار المذهب المنوثيلى مذهبا رسميا للدولة ، ومن تضمهم من أتباع الـكنيسة المسيحية . وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ماعداه من المذاهب المخالفة ، متوسلا إلى ذلك بكل الوسائل . ولـكن القبط نابذوه العداء ، وتبرأوا من هـذه البدعة والتحريف ! وصمدوا له واستماتوا فى سبيل عقيدتهم القديمة . وحاول الامبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة . وأما المسألة الأخرى وهى نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيه ، ومنع الناس أن يخوضوا فى مناظراته . وجعل ذلك رسالة

---

(١) سورة المائدة : آية ١١٦ .

رسمية ، ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقى . ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة فى مصر ، ووقع اضطهاد فظيع على يد قيصر فى مصر استمر عشر سنين ، ووقع فى خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقا ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ويوضع السجين فى كيس مملوء بالرمل ويرمى فى البحر . إلى غير ذلك من الفظائع» (١) .

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعا « من بعد ماجاءتهم البينة » . . فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ؛ إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف .

* * *

على أن الدين فى أصله واضح والعقيدة فى ذاتها بسيطة :

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » وهذه هى قاعدة دين الله على الإطلاق :

عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة : « وذلك دين القيمة » . . عقيدة خالصة فى الضمير ، وعبادة لله ، تترجم عن هذه العقيدة ، وإنفاق للمال فى سبيل الله ، وهو الزكاة . . فمن حقق هذه القواعد ، فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب ، وكما هو فى دين الله على الإطلاق . . دين واحد . وعقيدة واحدة ، تتوالى بها الرسالات ، ويتوافى عليها الرسل . . دين لا غموض فيه ولا تعقيد . وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف ، وهى بهذه النصاعة ، وبهذه البساطة ، وبهذا التيسير . فأين هذا من تلك التصورات المعقدة ، وذلك الجدل الكثير ؟

* * *

فأما وقد جاءتهم البينة من قبل فى دياناتهم على أيدى رسلهم ؛ ثم جاءتهم البينة ، حية فى صورة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ؛ ويقدم لهم عقيدة ، واضحة بسيطة ميسرة ، فقد تبين الطريق . ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن

---

(١) عن كتاب : ماذا خسر العالم . . ص ٣ـ٥

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيهـا أبدا . رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » . .

إن محمدا ـ صلى الله عليـه وسلم ـ هو الرسول الأخير ؛ وإن الإسلام الذى جاء به هو الرسالة الأخيرة . وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح . وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة ، لمن ينحرفون عن الطريق . فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الـكاملة ، فقد تحددت الفرصة الأخيرة ، فإما إيمان فنجاة ، وإما كفر فهلاك . ذلك أن الـكفر حينئذ دلالة على الشر الذى لاحد له ، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده .

« إن الذين كفروا من أهل الـكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية » حـكم قاطع لاجدال فيه ولامحال . مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم مادامت تقوم على غير إيمان ، بهذه الرسالة الأخيرة ، وبهذا الرسول الأخير . لانستريب فى هذا الحـكم لأى مظهر من مظاهر الصلاح ، المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية » .

حـكم كذلك قاطع لاجدال فيه ولامحال . ولـكن شرطه كذلك واضح لاغموض فيه ولااحتيال . إنه الإيمان . لامجرد مولد فى أرض تدعى الإسلام ، أوفى بيت يقول: إنه من المسلمين. ولامجرد كلمات يتشدق بها الإنسان ! إنه الإيمان الذى ينشئ آثاره فى واقع الحياة : « وعملوا الصالحات » . . وليس هو الـكلام الذى لايتعدى الشفاه ! والصالحات هى كل ماأمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل . وفى أولها إقامة شريعة الله فى الأرض ، والحـكم بين الناس بما شرع الله . فمن كانوا كذلك فهم خير البرية .

« جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » . .

جنات للإقامة الدائمة فى نعيمها الذى يمثله هنا الأمن من الفناء والفوات . والطمأنينة من القلق الذى يعكر وينغص كل طيبات الأرض . . كما يمثله جريان الأنهار من تحتها ، وهو يلقى ظلال النداوة والحياة والجمال !

ثم يرتقى السياق درجة أودرجات فى تصوير هذا النعيم المقيم :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » . .

هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم . . وهذا الرضا فى نفوسهم عن ربهم . الرضا عن قدره فيهم . والرضا عن إنعامه عليهم . والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم . الرضا الذى يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق . .

إنه تعبير يلقى ظلاله بذاته . . « رضى الله عنهم ورضوا عنه » حيث يعجز أى تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال !

« ذلك لمن خشى ربه » . .

وذلك هو التوكيد الأخـير . التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله، ونوع هذه الصلة ، والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح ، وتنهى عن كل انحراف . . الشعور الذى يزيح الحواجز ، ويرفع الأستار ، ويقف القلب عاريا أمام الواحد القهار . والذى يخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك فى كل صورة من صوره . فالذى يخشى ربه حقا لايملك أن يُخطر فى قلبــه ظلا لغيره من خلقــه . وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيــه العبد إلى غيره معــه ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك . فإما عمل خالص له ، وإلا لم يقبله .

* * *

تلك الحقائق الأربعة الكبيرة هى مقررات هذه السورة الصغيرة، يعرضها القرآن بأسلوبه الخاص ، الذى يتجلى بصفة خاصة فى هذه السور القصار . .



بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنْسَانُ : مَالَهَا ؟ * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » ...

هذه السورة مدنية فى المصحف وفى بعض الروايات ؛ ومكية فى بعض الروايات الأخرى . ونحن نرجح الروايات التى تقول بأنها مكية . وأسلوبها التعبيرى وموضوعها يؤيدان هذا .

إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة. هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظى. وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ؛ فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء فى بضع فقرات قصار !

وهذا هو طابع الجزء كله ، يتمثل فى هذه السورة تمثلا قويا . . .

* * *

« إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان مالها ؟ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » .

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافا ، وتزلزل زلزالا ، وتنفض مافى جوفها

نفضا ، وتخرج مايثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلا . وكأنها تتخفف من هــذه الأثقال ، التي حملتها طويلا !

وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت؛ ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور ! مشهد يخلع القلوب من كل ماتتشبث به من هذه الأرض ، وتحسبه ثابتا باقيا ؛ وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن ، ويودع فيها حركة تـكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة !

ويزيد هــذا الأثر وضوحا بتصوير « الإنسان » حيال المشهد المعروض ، ورسم انفعالاته وهو يشهده :

« وقال الإنسان : مالها ؟ » . .

وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء ، الذي يرى مالم يعهد ، ويواجه مالا يدرك ، ويشهد مالا يملك الصبر أمامه والسكوت . مالها ؟ ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجا ؟ مالها ؟ وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ؛ ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته ، وكل ماحوله يمور مورا شديدا !

« والإنسان » قد شهد الزلازل والبراكين من قبل . وكان يصاب منها بالهلع والذعر ، والهلاك والدمار ، ولـكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لايجد أن هناك شبها بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لاعهد للإنسان به . أمر لايعرف له سرا ، ولا يذكر له نظيرا . أمر هائل يقع للمرة الأولى !

« يومئذ » . . يوم يقع هذا الزلزال ، ويُشدَه أمامه الإنسان « تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » . . يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها . . لقد كان ما كان لها « بأن ربك أوحى لها » . . وأمرها أن تمور مورا ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ! فأطاعت أمر ربها « وأذنت لربها وحقت » . . تحدث أخبارها . فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها . .

* * *

وهنا و « الإنسان » مشدوه مأخوذ ، والإيقاع يلهث فزعا ورعبا ، ودهشة وعجبا ،

واضطرابا ومورا . . هنا و « الإنسان » لايكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل : مالها ؟ مالها هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء :

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

وفى لمحة نرى مشهد القيام من القبور : « يومئذ يصدر الناس أشتاتا » . . نرى مشهدهم شتيتا منبعثا من أرجاء الأرض « كأنهم جراد منتشر » . . وهو مشهد لاعهد للإنسان به كذلك من قبل . مشهد الخلائق فى أجيالها جميعا تنبعث من هنا ومن هناك : « يوم تشقق الأرض عنهم سراعا » . . وحيثما امتد البصر رأى شبحا ينبعث ثم ينطلق مسرعا ! لايلوى على شىء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه : « مهطعين إلى الداع » ممدودة رقابهم ، شاخصة أبصارهم . « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر . هائل مروّع . مفزع . مرعب . مذهل . . .

كل أولئك وسائر مافى المعجم من أمثالها لاتبلغ من وصف هذا المشهد شيئا مما يبلغه إرسال الخيال قليلا يتملاه بقدر مايملك وفى حدود مايطيق !

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا » . . « ليروا أعمالهم » . . وهذه أشد وأدهى . . إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم ، ليواجهوها ، ويواجهوا جزاءها . ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحيانا أقسى من كل جزاء . وإن من عمله مايهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له فى نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير . فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد ، فى حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟ !

إنها عقوبة هائلة رهيبة . . مجرد أن يُروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم !

ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذى لايدع ذرة من خير أو من شر لايزنها ولا يجازى عليها.

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . .

ذرة . . كان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة . وكانوا يقولون : إنها الهباءة التى ترى فى ضوء الشمس . . . فقد كان ذلك أصغر مايتصورون من لفظ الذرة . . .

فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبدا حتى بأعظم المجاهر في المعامل . إنما هي « رؤيا » في ضمير العلماء ! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره . وكل مارآه هو آثارها !

فهذه أوما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها ! . . .

عندئذ لايحقر « الإنسان » شيئا من عمله . خيرا كان أو شرا . ولا يقول : هذه صغيرة لاحساب لها ولا وزن . إنما يرتعش وجـدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل !

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض . . إلا في القلب المؤمن . .

القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر . . . وفي الأرض قلوب لاتتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي و الجرائر . . ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال . .

إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب ! !

سورة العاديات مكية
وآياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ » . .

يجرى سياق هذه السورة فى لمسات سريعة عنيفة مثيرة ، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزا وركضا ووثبا ، فى خفة وسرعة وانطلاق ، حتى ينتهى إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف !

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة فى وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير فى صفوفه الذعر والفرار !

يليه مشهد فى النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد !

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما فى الصدور !

وفى الختام ينتهى النقع المثار ، وينتهى الكنود والشح ، وتنتهى البعثرة والجمع .. إلى نهايتها جميعا . إلى الله . فتستقر هناك : « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » . . .

والإيقاع الموسيقى فيه خشونة ودمدمة وفرقعة ، تناسب الجو الصاخب المعفر الذى تنشئه القبور المبعثرة ، والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة ، كما تناسب جو الجحود والكنود ، والأثرة والشح الشديد . . فلما أراد لهذا كله إطارا مناسبا ، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك ، تثيره الخيل العادية فى جريها ، الصاخبة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة فجأة مع الصباح ،

المثيرة للنقع والغبار ، الداخلة فى وسط العـدو على غير انتظار . . . فـكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار [١]

* * *

« والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ،فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا . . إن الإنسان لربه لـكنود . وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد ... »

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة ،ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجرى ، قارعة للصخر بحوافرها حتى تورى الشرر منها ، مغيرة فى الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار . غبار المعركة على غير انتظار . وهى تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب !

إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة . . . والقسم بالخيل فى هـذا الإطار فيه إيحاء قوى بحب هذه الحركة والنشاط لها ، بعد الشعور بقيمتها فى ميزان الله والتفاته سبحانه إليها !

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها والمعقب بها كما أسلفنا . أما الذى يقسم الله ـ سبحانه ـ عليه ، فهو حقيقة فى نفس الإنسان ، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان . حقيقة ينبه القرآن إليها ، ليجند إرادته لـكفاحها ، مذ كان الله يعلم عمق وشائجها فى نفسه ، وثقل وقعها فى كيانه :

« إن الإنسان لربه لـكنود . وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد » . .

إن الإنسان ليجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله . ويتمثل كنوده وجحوده فى مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا ،فتقوم عليه مقام الشاهد الذى يقرر هذه الحقيقة . وكأنه يشهد على نفسه بها . أولعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالـكنود والجحود : « وإنه على ذلك لشهيد » . . يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لاجدال ولا محال !

« وإنه لحب الخير لشديد » فهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير . ولـكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعا بأعراض الحياة الدنيا . .

هذه فطرته . وهذا طبعه . مالم يخالط الإيمان قلبه . فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته . ويحيل كنوده وجحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا . كما يبدل أثرته وشحه إيثارا

(١) فصل التناسق الفنى فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن .

ورحمة . ويريه القيم الحقيقية التى تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح . وهى قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيوانى بأعراض الحياة الدنيا ..

إن الإنسان ــ بغير إيمان ــ حقير صغير . حقير المطامع ، صغير الاهتمامات . ومهما كبرت أطماعه ، واشتد طموحه، وتعالت أهدافه ، فإنه يظل مرتكسا فى حمأة الأرض ، مقيدا بحدود العمر، سجينا فى سجن الذات .. لايطلقه ولايرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض ، وأبعد من الحياة الدنيا ،وأعظم من الذات . . عالم يصدر عن الله الأزلى ، ويعود إلى الله الأبدى ، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء ..

* * *

ومن ثم تجىء اللفتة الأخيرة فى السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح ، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه . مع عرض مشهد البعث والحشر فى صورة تنسى حب الخير ، وتوقظ من غفلة البطر .

« أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل مافى الصدور ؟ » ..

وهو مشهد عنيف مثير . بعثرة لما فى القبور . بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير . وتحصيل لأسرار الصدور التى ضنت بها وخبأتها بعيدا عن العيون . تحصيل بهذا اللفظالعنيف القاسى.. فالجو كله عنف وشدة وتعفير !

أفلا يعلم إذا كان هذا ؟ ولايذكر ماذا يعلم ؟ لأن علمه بهذا وحده يكفى لهز المشاعر . ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب ، وترود كل مراد ، وتتصور كل مايمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب !

ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهى إليه كل شىء ، وكل أمر ، وكل مصير :

« إن ربهم بهم يومئذ لخبير » . .

فالمرجع إلى ربهم . وإنه لخبير بهم « يومئذ » وبأحوالهم وأسرارهم . . والله خبير بهم فى كل وقت وفى كل حال . ولكن لهذه الخبرة « يومئذ » آثار هى التى تثير انتباههم لها فى هذا المقام . . . إنها خبرة وراءها عاقبة. خبرة وراءها حساب وجزاء . وهذا المعنى الضمنى هو الذى يلوح به فى هذا المقام !

* * *

إن السورة مشوار واحد لاهث صاخب ثائر .. حتى ينتهى إلى هذا القرار ..معنى ولفظا وإيقاعا ، على طريقة القرآن !

سورة القارعة مكية
وآياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ؟ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ؟ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ؟ * نَارٌ حَامِيَةٌ » . .

القارعة : القيامة . كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية . والقارعة توحى بالقرع واللطم ، فهى تقرع القلوب بهولها .

والسورة كلها عن هذه القارعة . حقيقتها . وما يقع فيها . وما تنتهى إليه . . فهى تعرض مشهدا من مشاهد القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس فى ظله صغارا ضئالا على كثرتهم : فهم « كالفراش المبثوث » مستطارون مستخفون فى حيرة الفراش الذى يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفا ! وتبدو الجبال التى كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام ! فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذى يلقيه اللفظ، والجرس الذى تشترك فيه حروفه كلها، مع آثار القارعة فى الناس والجبال سواء ! وتلقى إيحاءها للقلب والمشاعر ، تمهيدا لما ينتهى إليه المشهد من حساب وجزاء !

* * *

« القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟ » . .

لقد بدأ بإلقاء الـكلمة مفردة كأنها قذيفـة : « القارعة » بلا خبر ولا صفة . لتلقى بظلها وجرسها الإيحاء المدوى المرهوب !

ثم أعقبها سؤال التهويل : « ما القارعة؟ » . . فهى الأمر المستهول الغامض الذى يثير الدهش والتساؤل !

ثم أجاب بسؤال التجهيل : «وما أدراك ما القارعة ؟ » . . فهى أ كبرمن أن يحيط بها الإدراك ، وأن يلم بها التصور !

ثم الإجابة بما يـكون فيها ، لابماهيتها . فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا :

« يوم يـكون الناس كالفراش المبثوث ، وتـكون الجبال كالعهن المنفوش » . .

* * *

هـذا هو المشهد الأول للقارعة . مشهد تطير له القلوب شعاعا ، وترجف منـه الأوصال ارتجافا . ويحس السامع كأن كل شىء يتشبث به فى هذه الأرض قد طار حوله هباء! ثم تجىء الخاتمة للناس جميعا :

« فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية. وما أدراك ماهيه ؟ نار حامية ! » .

وثقل الموازين وخفتها تفيدنا: قيما لها عند الله اعتبار ، وقيماليس لها عنده اعتبار . وهـذا ما يلقيه التعبير بجملته ، وهذا ــ والله أعلم ــ مايريده الله بـكلماته . فالدخول فى جدل عقلى ولفظى حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآنى، وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقى بالقرآن والإسلام !

« فأما من ثقلت موازينه » فى اعتبار الله وتقويمه « فهو فى عيشة راضيـة » . . ويدعها مجملة بلاتفصيل ، توقع فى الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم .

« وأما من خفت موازينه » فى اعتبار الله وتقويمه « فأمه هاوية » . . والأم هى مرجع الطفل وملاذه . فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية !وفى التعبير أناقة ظاهرة ، وتنسيق خاص. وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد فى عمق الأثر المقصود :

« وماأدراك ماهيه ؟ » . .

سؤال التجهيل والتهويل المعهود فى القرآن ، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك !

ثم يجيء الجواب كنبرة الختام :

« نار حامية » ..

هذه هي أم الذي خفت موازينه ! أمه التي يفيء إليها ويأوي ! والأم عندها الأمن والراحة ..

فماذا هو واجد عند أمه هذه .. الهاوية .. النار .. الحامية !!

إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية !



سورة التكاثر مكية وآياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » .

هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق وكأنما هي صوت نذير ، قائم على شرف عال . يمد بصوته ويدوى بنبرته . يصيح بنوّم غافلين مخمورين سادرين، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة ، وحسهم مسحور . فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد مايبلغ :

« ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر » ..

أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ماتتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر .. استيقظوا وانظروا . . فقد « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر »

ثم يقرع قلوبهم بهول ماينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع عميق رزين :

« كلا سوف تعلمون » ..

ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين :

« ثم كلا سوف تعلمون » .

ثم يزيد التوكيد عمقا ورهبة، وتلويحا بما وراءه من أمر ثقيل ، لايتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار :

« كلا لو تعلمون علم اليقين » ..

ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة :

« لترونّ الجحيم » ..

ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب فى القلوب :

« ثم لترونّها عين اليقين » ..

ثم يلقى بالإيقاع الأخير ، الذى يدع المخمور يفيق ، والغافل يتنبه، والسادر يتلفت، والناعم يرتعش ويرتجف مما فى يديه من نعيم :

« ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » !

لتسألن عنه من أين نلتموه ؟ وفيم أنفقتموه ؟ أمن طاعة وفى طاعة ؟ أم من معصية وفى معصية ؟ أمن حلال وفى حلال؟أم من حرام وفى حرام ؟هل شكرتم؟ هل أديتم ؟ هل شاركتم؟ هل استأثرتم ؟

« لتسألن » عما تتكاثرون به وتتفاخرون . . فهو عبء تستخفونه فى غمرتكم ولهوكم ولكن وراءه ماوراءه من هم ثقيل !

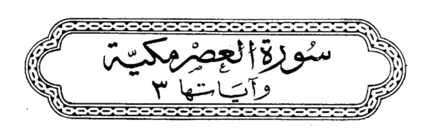
* * *

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها . وتلقى فى الحس ماتلقى بمعناها وإيقاعها . وتدع القلب مثقلا مشغولا بهم الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التى يهش لها الفارغون !

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة فى الشريط الطويل . . « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » . . وتنتهى ومضة الحياة الدنيا وتنطوى صفحتها الصغيرة . . ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال ؛ ويقوم الأداء التعبيرى ذاته بهذا الإيحاء . فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيرى الفريد ..

ومايقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة ، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة فى الفضاء إلى بعيد فى مطلعها ، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق فى نهايتها . . حتى يشعر بثقل ماعلى عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التى يحياها على الأرض ، ثم يحمل مايحمل منها ويمضى به مثقلا فى الطريق !

ثم ينشىء يحاسب نفسه على الصغير والزهيد !!!



بسم الله الرحمن الرحيم

« وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

فى هـذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام . وتبرز معالم التصور الإيمانى بحقيقته الكبيرة الشاملة فى أوضح وأدق صورة . إنها تضع الدستور الإسلامى كله فى كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها . فى آية واحدة هى الآية الثالثة من السورة .. وهذا هو الإعجاز الذى لايقدر عليه إلا الله . .

والحقيقة الضخمة التى تقررها هذه السورة بمجموعها هى هذه :

إنه على امتداد الزمان فى جميع الأعصار ، وامتداد الإنسان فى جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج . هو ذلك المنهج الذى ترسم السورة حدوده ، وهو هذا الطريق الذى تصف السورة معالمه . وكل ماوراء ذلك ضياع وخسار ..

« والعصر ، إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

إنه الإيمان . والعمل الصالح . والتواصى بالحق . والتواصى بالصبر ..

* * *

فما الإيمان ؟ ؟

نحن لانعرّف الإيمان هنا تعريفه الفقهى ؛ ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمته فى الحياة .

إنه اتصال هذا الكائن الإنسانى الفانى الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلى الباقى الذى صدر عنه الوجود . ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر ، وبالنواميس التى تحكم هذا الكون، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه . والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير . ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية المجهولة . ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التى لايعلمها إلا الله (١) .

وفضلا عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنسانى من قوة وامتداد وانطلاق ، فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعا بالوجود ومافيه من جمال ، ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه . فإذا الحياة رحلة فى مهرجان إلهى مقام للبشر فى كل مكان وفى كل أوان . .. وهى سعادة رفيعة، وفرح نفيس،وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب . وهو كسب لايعدله كسب . وفقدانه خسران لا يعدله خسران . . .

ثم إن مقومات الإيمان هى بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة . . .

التعبد لإله واحد ، يرفع الإنسان عن العبودية لسواه ، ويقيم فى نفسه المساواة مع جميع العباد ، فلا يذل لأحد ، ولايحنى رأسه لغير الواحد القهار . . ومن هنا الانطلاق التحررى الحقيقى للإنسان . الانطلاق الذى ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة فى الوجود . إنه ليس هناك إلا قوة واحدة وإلا معبود واحد . فالانطلاق التحررى ينبثق من هذا التصور انبثاقا ذاتيا ، لأنه هو الأمر المنطقى الوحيد .

والربانية التى تحدد الجهة التى يتلقى منها الإنسان تصوراته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه ، وكل مايربطه بالله ، أوبالوجود ، أوبالناس . فينتفى من الحياة الهوى والمصلحة ، وتحل محلهما الشريعة والعدالة . وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه ، وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها ، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة . . ولوكان فردا واحدا ، لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات

---

(١) يراجع فصل العقيدة والحياة من كتاب : السلام العالمى والإسلام .

مستمدة من الله مباشرة فهى الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام [١] .

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق ، وتبين مقام الألوهيـة ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة ، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية فى غير تعقيد ، وبلا وساطة فى الطريق . ويودع القلب نورا ، والروح طمأنينة ، والنفس أنساً وثقـة . وينفى التردد والخوف والقلق والاضطراب . كما ينفى الاستكبار فى الأرض بغير الحق ، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء !

والاستقامة على المنهج الذى يريده الله . فلا يـكون الخير فلتة عارضة ، ولا نزوة طارئة ، ولا حادثة منقطعة . إنما ينبعث عن دوافع ، ويتجه إلى هدف ، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون فى الله ، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح ، والراية الواحدة المتميزة . كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين .

والاعتقاد بـكرامة الإنسان على الله ، يرفع من اعتباره فى نظر نفسه ، ويثير فى ضميره الحياء من التدنى عن المرتبة التى رفعه الله إليها . وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه ... أنه كريم عنـد الله . . وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان فى نظر نفسه ، ويرده إلى منبت حقير ، ويفصل بينه وبين الملإ الأعلى . . هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدنى والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة !

ومن هنا كانت إيحاءات الدارونية والفرويدية والماركسية هى أبشع ماتبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنسانى ، فتوحى إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هى أمر طبيعى متوقع ، ليس فيه ما يستغرب ، ومن ثم ليس فيه ما يخجل . . وهى جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء [٢] !

ونظافة المشاعر تجىء نتيجة مباشرة للشعور بـكرامة الإنسان على الله . ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر . وإن الإنسان السوى الذى لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما ، ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره . والمؤمن يحس وقع نظر الله — سبحانه — فى أطواء حسه إحساسا يرتعش له ويهتز . فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه !

---

(١) يراجع تفسير سورة « عبس وتولى » فى هذا الجزء ص ٣٦ .

(٢) يراجع كتاب : الإنسان بين المادية والإسلام [لمحمد قطب] .

والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم ، يكره الشر ويحب الخير . ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة ، وما تثيره فى حس المؤمن من يقظة وحساسية ، ومن رزانة وتدبر . وهى ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هى كذلك تبعة جماعية ، وتبعة تجاه الخير فى ذاته ، وإزاء البشرية جميعا . . أمام الله . . وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله ، فيكبر فى عين نفسه ، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله . . إنه كائن له قيمة فى الوجود ، وعليه تبعة فى نظام هذا الوجود . .

والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا — وهو بعض إيحاءات الإيمان — واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى . « فى ذلك فليتنافس المتنافسون » . . والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف . . يساعد على هذا سعة المجال الذى يتحرك فيه المؤمن . . بين الدنيا والآخرة ، والأرض والملإ الأعلى . مما يهدئ فى نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة . فهو يفعل الخير لأنه الخير ، ولأن الله يريده ، ولا عليه ألا يدرّ الخير خيرا على مشهد من عينيه فى عمره الفردى المحدود . فالله الذى يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت — سبحانه — ولا ينسى ، ولا يغفل شيئا من عمله . والأرض ليست دار جزاء . والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف . ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذى لا ينضب . وهذا هو الذى يكفل أن يكون الخير منهجا موصولا ، لا دفعة طارئة ، ولا فلتة مقطوعة . وهذا هو الذى يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التى يقف بها فى وجه الشر . سواء تمثل فى طغيان طاغية ، أو فى ضغط الاعتبارات الجاهلية ، أو فى اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته . هذا الضغط الذى ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه ، وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير ، وشهود انتصار الحق على الباطل ! والإيمان يعالج هذا الشعور علاجا أساسيا كاملا [1] .

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير ، الذى ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق

---

(١) يراجع تفسير سورة البروج فى هذا الجزء ص ١٠٨ .

به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف . وإلا فهى ثمرة شيطانية ، وليس لها امتداد أو دوام !

وهو المحور الذى تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة . وإلا فهى مفلتة لا تمسك بشىء ، ذاهبة بددا مع الأهواء والنزوات . .

وهو المنهج الذى يضم شتات الأعمال ، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون ، وتنسلك فى طريق واحد ، وفى حركة واحدة ، لها دافع معلوم ، ولها هدف مرسوم . .

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل ، ولا يشد إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج . والنظرية الإسلامية صريحة فى هذا كل الصراحة . . جاء فى سورة إبراهيم : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . لا يقدرون مما كسبوا على شىء » .. وجاء فى سورة النور : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » .. وهى نصوص صريحة فى إهدار قيمة العمل كله ، مالم يستند إلى الإيمان ، الذى يجعل له دافعا موصولا بمصدر الوجود ، وهدفا متناسقا مع غاية الوجود . وهذه هى النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله . فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه [1] .

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنسانى ، وتناسقه مع فطرة الكون كله ، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله . فهو يعيش فى هذا الكون ، وحين يصح كيانه لابد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب . ولا بد أن ينتهى هذا التجاوب إلى الإيمان ، بحكم مافى الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التى أبدعته على هذا النسق . فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل ، كان هذا بذاته دليلا على خلل ونقص فى الجهاز

---

(١) جاء فى تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . . « وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لا تنفعه فى الآخرة حسنة ، ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما ، لا أصل له » .. وها نحن أولاء نرى أن المسألة لم تجىء من إجماع، ولكن من نصوص قرآنية صريحة هى أصل بذاتها .

الذى يتلقى ، وهو هذا الـكيان الإنسانى . وكان هذا دليل فساد لايـكون معه إلا الخسران . ولا يصح معه عمل ولو كان فى ظاهره مسحة من الصلاح .

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائهة شقية . . خاسرة أى خسران !

* * *

والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان ، والحركة الذاتية التى تبدأ فى ذات اللحظة التى تستقر فيها حقيقة الإيمان فى القلب فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة . ما إن تستقر فى الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها فى الخارج فى صـورة عمل صالح . . هـذا هو الإيمـان الإسلامى . . لايمـكن أن يظل خامدا لايتحرك ، كامنا لايتبدى فى صورة حيـة خارج ذات المؤمن . . فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت. شأنه شأن الزهرة لاتمسك أريجها . فهو ينبعث منها انبعاثا طبيعيا . وإلا فهو غير موجود !

ومن هنا قيمة الإيمان . . إنه حركة وعمل وبناء وتعمير . . يتجه إلى الله . . إنه ليس انـكماشا وسلبية وانزواء فى مكنونات الضمير . وليس مجرد النوايا الطيبة التى لاتتمثل فى حركة . وهذه طبيعة الإسلام البارزة التى تجعل منه قوة بناء كبرى فى صميم الحياة .

وهذا مفهوم مادام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الربانى . وهـذا المنهج حركة دائمة متصلة فى صميم الوجود . صادرة عن تدبير ، متجهة إلى غاية . وقيادة الإيمان للبشرية هى قيادة لتحقيق منهج الحركة التى هى طبيعة الوجود. الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله . .

* * *

أما التواصى بالحق والتواصى بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة ـ أو الجماعة المسلمة ـ ذات الـكيان الخاص ، والرابطة المميزة ، والوجهة الموحدة . الجماعة التى تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها . والتى تعرف حقيقة ماهى مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح ، الذى يشمل فيما يشمل قيادة البشرية فى طريق الإيمان والعمل الصالح ؛ فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الـكبرى .

فمن خلال لفظ التواصى ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة ـ أو الجماعة ـ المتضامة المتضامنة. الأمة الخيرة . الواعية . القيمة فى الأرض على الحق والعدل والخير.. وهى أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة . . وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام . . هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر فى مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصى فى القرآن . .

والتواصى بالحق ضرورة . فالنهوض بالحق عسير . والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة . وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين . . والتواصى تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى فى الهدف والغاية ، والأخوة فى العبء والأمانة . فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معاً فتتضاعف . تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله .. وهذا الدين ـ وهو الحق ـ لا يقوم إلا فى حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامة متضامنة على هذا المثال .

والتواصى بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح ، وحراسة الحق والعدل ، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة. ولا بد من الصبر . لا بد من الصبر على جهاد النفس ، وجهاد الغير . والصبر على الأذى والمشقة . والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم ، وبعد النهاية !

والتواصى بالصبر يضاعف المقدرة ، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ، ووحدة المتجه ، وتساند الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار . . إلى آخر ما يثيره من معانى الجماعة التى لا تعيش حقيقة الإسلام إلا فى جوها ، ولا تبرز إلا من خلالها.. وإلا فهو الخسران والضياع .

***

وننظر اليوم من خلال هـذا الدستور الذى يرسمه القرآن لحياة الفئة الرابحة الناجية من الخسران ، فيهولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية فى كل مكان على ظهر الأرض بلا استثناء . يهولنا هذا الضياع الذى تعانيه البشرية فى الدنيا ـ قبل الآخرة ـ يهولنا أن نرى إعراض البشرية ذلك الإعراض البائس عن الخير الذى أفاضه الله عليها ؛ مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق فى هـذه الأرض . هذا والمسلمون ـ أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق ـ هم أبعد أهل الأرض عن هذا الخير ، وأشدهم إعراضا عن المنهج الإلهى الذى اختاره الله لهم ،

وعن الدستور الذى شرعه لأمتهم ، وعن الطريق الوحيد الذى رسمه للنجاة من الخسران والضياع . والبقاع التى انبعث منها هـذا الخـير أول مرة تترك الراية التى رفعها لها الله ، راية الإيمان ، لتتعلق برايات عنصرية لم تنل تحتها خيرا قط فى تاريخها كله .ولم يـكن لها تحتها ذكر فى الأرض ولا فى السماء. حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله ، لاشريك له ، المسماة باسم الله لاشريك له ، الموسومة بميسم الله لا شريك له .. الراية التى انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خـيرة قوية واعيـة ناجيـة لأول مرة فى تاريخهم وفى تاريخ البشرية الطويل . .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » . . عن هذه القيادة الخيرة الفذة فى التاريخ كله ، وتحت عنوان « عهد القيادة الإسلامية » : « الأئمة المسلمون وخصائصهم »:

« ظهر المسلمون ، وتزعموا العالم ، وعزلوا الأمم المزيفة من زعامة الإنسانية التى استغلتها وأساءت عملها،وساروا بالإنسانية سيرا حثيثا متزنا عادلا،وقد توفرت فيهم الصفات التى تؤهلهم لقيادة الأمم ، وتضمن سعادتها وفلاحها فى ظلهم وتحت قيادتهم.

« أولا : أنهم أصحـاب كتاب منزل وشريعة إلهيـة ، فلا يقننون ولا يشترعون من عنـد أنفسهم . لأن ذلك منبع الجهـل والخطأ والظلم ، ولا يخبطون فى سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، وقد جعل الله لهم نورا يمشون به فى الناس ، وجعل لهم شريعة يحـكمون بها الناس « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها؟ » وقد قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنـكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

ثانيا : ـ أنهم لم يتولوا الحـكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس ، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحـكومة فى الماضى والحاضر ، بل مـكثوا زمنا طويلا تحت تربية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإشرافه الدقيق ،يزكيهم ويؤدبهم ، ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة

والإيثار وخشية الله ، وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها . يقول : « إنا والله لانولى هذا العمل أحدا سأله ، أو أحدا حرص عليه [١] » .

ولا يزال يقرع سمعهم : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .. فكانوا لايتهافتون على الوظائف والمناصب ، فضلا عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ، ويزكوا أنفسهم ، وينشروا دعاية لها ، وينفقوا الأموال سعيا وراءها . فإذا تولوا شيئا من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو طعمة أو ثمنا لما أنفقوا من مال أو جهد ؛ بل عدوه أمانة فى عنقهم ، وامتحانا من الله ؛ ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ، ومسؤولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائما قول الله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . . وقوله . . « هو الذى جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم » ..

« ثالثا : أنهم لم يكونوا خدمة جنس ، ورسل شعب أو وطن ، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده؛ ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاما ،ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم . ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم !إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده . كما قال ربعى ابن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد: الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام [٢] .

فالأمم عندهم سواء،والناس عندهم سواء. الناس كلهم من آدم،وآدم من تراب.لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد قال عمر ابن الخطاب لعمرو ابن العاص عامل مصر ـ وقد ضرب ابنه مصريا وافتخر

---

(١) حديث متفق عليه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

بآبائه قائلا : خذها من ابن الأكرمين . فاقتص منه عمر — : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحرارا أمهاتهم [1] ؟ فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد ، ولم يراعوا فى الحكم والإمارة والفضل نسبا ولونا ووطنا ، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادى مزنة أثنى عليها السهل والوعر ، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها .

فى ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب — حتى المضطهدة منها فى القديم — أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، وأن تساهم العرب فى بناء العالم الجديد ، بل إن كثيرا من أفرادها فاقوا العرب فى بعض الفضائل ، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين ...

« رابعا : إن الإنسان جسم وروح ، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح ، لايسعد ولايفلح ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها ، ويتغذى غذاء صالحا ، ولايمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط دينى خلقى عقلى جسدى يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانى . وقد أثبتت التجربة أنه لايكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية ، وأصحاب عقول سليمة راجحة ، وعلوم صحيحة نافعة » ...

إلى أن يقول تحت عنوان : « دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة » :

« وكذلك كان ، فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر فى جميع هذه النواحى من هذا الدور — دور الخلافة الراشدة — فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية فى تنشئة الإنسان الكامل . وفى ظهور المدنية الصالحة . . كانت حكومة من أكبر حكومات العالم وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة فى عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا ، وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة فى حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقى الخلقى والروحى اتساع الفتوح واحتفال الحضارة ، فتقل الجنايات ، وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالفرد . وهو دور كمالى لم يحلم الإنسان بأرقى منه ، ولم يفترض المفترضون أزهى منه .. »

* * *

(١) القصة بتمامها فى تاريخ عمر ابن الخطاب لابن الجوزى .

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع « سورة العصر » قواعده ، وتحت تلك الراية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

فأين منها هذا الضياع الذي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان، والخسار الذي تبوء به في معركة الخير والشر ، والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة . ثم وضعت هذه الراية فإذا هي في ذيل القافلة . وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار . وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة لله . وإذا هي كلها للباطل ليس فيها راية واحدة للحق . وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور ، وإذا هي كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح ! وراية الله ماتزال. وإنها لترتقب اليد التي ترفعها والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح .

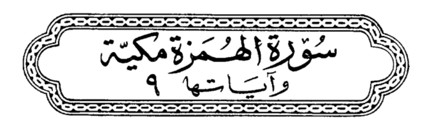
* * *

ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض . وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير. وهناك . هناك الربح الحق والخسر الحق . هناك في الأمد الطويل ، وفي الحياة الباقية ،وفي عالم الحقيقة .. هناك الربح والخسر: ربح الجنة والرضوان، أوخسر الجنة والرضوان .هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له ، أو يرتكس فتهدر آدميته ، وينتهي إلى أن يكون حجرا في القيمة ودون الحجر في الراحة :

« يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر : ياليتني كنت ترابا » ..

وهذه السورة حاسمة في تحديد الطريق . . إنه الخسر . . « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ».. طريق واحد لايتعدد .طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة ، التي تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر . وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر .

إنه طريق واحد . ومن ثم كان الرجلان من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة « والعصر » ثم يسلم أحدهما على الآخر .. لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي ، يتعاهدان على الإيمان والصلاح ، ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر . ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور . ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور ..



بسم الله الرحمن الرحيم

« وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ؟* نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ » .

تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية فى حياة الدعوة فى عهدها الأول . وهى فى الوقت ذاته نموذج يتكرر فى كل بيئة .. صورة اللئيم الصغير النفس ، الذى يؤتى المال فتسيطر نفسه به ، حتى مايطيق نفسه ! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا فى الحياة . القيمة التى تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار : أقدار الناس . وأقدار المعانى . وأقدار الحقائق . وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب !

كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شىء ؛ لا يعجز عن فعل شىء ! حتى دفع الموت وتخليد الحياة . ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك فى نظره حساب وجزاء !

ومن ثم ينطلق فى هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده ؛ وتنطلق فى كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم . ولمزهم وهمزهم . . يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته . سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم ، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم . . بالقول والإشارة . بالغمز واللمز . باللفتة الساخرة والحركة الهازئة !

وهى صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان . والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقى . وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب فى مواضع شتى . إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح

مع الوعيـد والتهديد ، يوحى بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتجاه المؤمنين .. فجاء الرد عليها فى صورة الردع الشديد ، والتهديد الرعيب. وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات . ولـكنها ليست وثيقة . فنكتفى نحن بما قررناه عنها..

* * *

والتهديد يجىء فى صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية ، وصورة للنار حسية ومعنوية . وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب . فصورة الهمزة اللمزة ، الذى يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم فى أنفسهم وأعراضهم ، وهو يجمع المـال فيظنه كفيلا بالخلود ! صورة هـذا المتعالى الساخر المستقوى بالمال ، تقابلها صورة « المنبوذ » المهمل المتردى فى « الحطمة » التى تحطم كل مايلقى إليها ، فتحطم كيانه وكبرياءه . وهى « نار الله الموقدة » وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحى بأنها نار فذة ، غير معهودة ، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة . وهى « تطلع » على فؤاده الذى ينبعث منه الهمز واللمز ، وتكمن فيه السخرية والـكبرياء والغرور . . وتـكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل .. هـذه النار مغلقة عليه ، لاينقذه منها أحد ، ولايسأل عنه فيها أحد ! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام ! وفى جرس الألفاظ تشديد : « عدّده . كلا . لينبذن . تطلع . ممدّدة » وفى معانى العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد : « لينبذن فى الحطمة . وماأدراك ماالحطمة ؟ نار الله الموقدة . . » فهذا الإجمال والإبهام . ثم سؤال الاستهوال . ثم الإجابة والبيان .. كلها من أساليب التوكيد والتضخيم .. وفى التعبير تهديد « ويل . لينبذن . الحطمة نار الله الموقدة . التى تطلع على الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . فى عمد ممددة » . .

وفى ذلك كله لون من التناسق التصويرى والشعورى يتفق مع فعلة « الهمزة اللمزة » !

* * *

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها فى الوقت ذاته . وكان هو السلاح البتار الصاعق الذى يدمر كيد الـكائدين ، ويزلزل قلوب الأعداء ، ويثبت أرواح المؤمنين .

وإنا لنرى فى عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين :

الأول : تقبيح الهبوط الأخلاقى وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس .

والثانى : المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة ، وإشعارهم بأن الله يرى مايقع لهم ، ويكرهه ، ويعاقب عليه . . وفى هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الـكيد اللئيم . . .



بسم الله الرحمن الرحيم

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ؟ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ؟ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » .

تشير هـذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة فى حياة الجزيرة العربية قبل البعثة ،عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التى اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير ، ومحضن العقيدة الجديدة ، والنقطة التى تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية فى أرجاء الأرض ، وإقرار الهدى والحق والخير فيها ..

وجملة ماتشير إليه الروايات المتعددة عن هذا الحادث ، أن الحاكم الحبشى لليمن ـ فى الفترة التى خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسى منها ـ وتسميه الروايات : «أبرهة» ،كان قد بنى كنيسة فى اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام فى مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم إلى هذا البيت ، شأنهم شأن بقية العرب فى وسط الجزيرة وشمالها كذلك . وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية ..

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس ، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبى هـذا البيت ، وكان هـذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالأنساب .

وكانت معتقداتهم ـ على تهافتها ـ أفضل فى نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم ، وهم يرون مافيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك .

عندئذ صح عزم « أبرهة » على هدم الكعبة ليصرف الناس عنها ؛ وقاد جيشا جرارا تصاحبه الفيلة ، وفى مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم . فتسامع العرب به وبقصده . وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم . فوقف فى طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام ، فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله ، ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيرا .

ثم وقف له فى الطريق كذلك نفيل ابن حبيب الخثعمى فى قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير ، فهزمهم كذلك وأسر نفيلا ، الذى قبل أن يكون دليله فى أرض العرب .

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له : إن البيت الذى يقصده ليس عندهم إنما هو فى مكة . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذى بنوه للآت ! وبعثوا معه من يدله على الكعبة !

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة، بعث قائدا من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مئتى بعير لعبد المطلب ابن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله . ثم عرفوا أنهم لاطاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة رسولا إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد ، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له فى دمائهم ! فإذا كان سيد البلد لايريد الحرب جاء به إلى الملك . . فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له : والله مانريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله إبراهيم عليه السلام . . فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ماعندنا دفع عنه . . فانطلق معه إلى أبرهة . .

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله

وأعظمه ، وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه . ثم قال لترجمانه : قل له : ماحاجتك؟ فقال: حاجتي أن يرد على الملك مئتى بعير أصابها لى. فلما قال ذلك، قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ! أتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل . وإن للبيت ربا سيمنعه . قال ما كان ليمتنع منى . قال : أنت وذاك ! . . فرد عليه إبله .

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز فى شعف الجبال. ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ،وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه. وروى عن المطلب أنه أنشد :

لاهُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك .
لايغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرٌ ما بدا لك !

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له. فبرك الفيل دون مكة لايدخلها، وجهدوا فى حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة، فقالوا : خلأت القصواء (أى حرنت) فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ماخلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل [1] . . » وفى الصحيحين أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين،وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » ، فهى حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة فى يوم الفيل . .

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده ، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر ، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة . كما يحكى عنهم القرآن

---

(١) أخرجه البخارى .

الكريم .. وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات . .

وتختلف الروايات هنا فى تحديد نوع هـذه الجماعات من الطير ، وأشكالها ، وأحجامها ، وأحجام هـذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها . كما أن بعضها يروى أن الجدرى والحصبة ظهرا فى هذا العام فى مكة .

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها ، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدرى والحصبة أقرب وأولى . وأن الطير قد تكون هى الذباب والبعوض التى تحمل الميكروبات، فالطير هو كل مايطير .

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره للسورة فى جزء عم :

« وفى اليوم الثانى فشا فى جند الجيش داء الجدرى والحصبة . . قال عكرمة : وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب . وقال يعقوب ابن عتبة فيما حدث : إن أول مارؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام . وقد فعل الوباء بأجسامهم ماينذر وقوع مثله . فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين ، وأصيب الحبش ، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة ، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات فى صنعاء .

« هذا مااتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به . وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح .

« فيجوز لك أن تعتقد أن هـذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هـذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه ، فأثار فيه تلك القروح ، التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه . وأن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هـذا الحيوان الصغير — الذى يسمونه الآن بالمكروب — لايخرج عنها . وهو فرق وجماعات لايحصى عددها إلا بارئها . . ولايتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين ، على أن يكون الطير فى ضخامة رؤوس الجبال ،

ولاعلى أن يكون من نوع عنقاء مغرب ، ولاعلى أن يكون له ألوان خاصة به ، ولاعلى معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها .. فلله جند من كل شيء .

وفى كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

« وليست فى الكون قوة إلا وهى خاضعة لقوته . فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت ، أرسل الله عليه من الطير مايوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكت قومه ، قبل أن يدخل مكة . وهى نعمة غمر الله بها أهل حرمه — على وثنيتهم — حفظا لبيته ، حتى يرسل من يحميه بقوة دينه — صلى الله عليه وسلم — وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه ، ولاذنب اقترفه .

« هذا مايصح الاعتماد عليه فى تفسير السورة . وماعدا ذلك فهو ممالايصح قبوله إلا بتأويل ، إن صحت روايته . ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل — وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما — ويهلك ، بحيوان صغير لايظهر للنظر ، ولايدرك بالبصر ، حيث ساقه القدر . لاريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر !! » .

ونحن لانرى أن هذه الصورة التى افترضها الأستاذ الإمام — صورة الجدرى أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم — أوتلك التى جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت تخرق الرؤوس والأجسام وتنفذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كفتات ورق الشجر الجاف وهو « العصف » .. لانرى أن هذه الصورة أوتلك أدل على قدرة الله ، ولاأولى بتفسير الحادث. فهذه كتلك فى نظرنا من حيث إمكان الوقوع . ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره ، ويستوى عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس ، المعهودة المكشوفة لعلمهم ، هى التى جرت فأهلكت قوما أراد الله إهلاكهم . أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم ، فحققت قدره ذاك .

إن سنة الله ليست فقط هى ماعهده البشر وماعرفوه . ومايعرف البشر من سنة الله إلا طرفا يسيرا يكشفه الله لهم بمقدار مايطيقون ، وبمقدار مايتهيأون له بتجاربهم ومداركهم فى الزمن الطويل، فهذه الخوارق — كما يسمونها — هى من سنة الله . ولكنها خوارق بالقياس إلى ماعهدوه وماعرفوه !

ومن ثم فنحن لانقف أمام الخارقة مترددين ولامؤولين لها — متى صحت الرواية — أوكان

فى النصوص وفى ملابسات الحادث مايوحى بأنها جرت خارقة ، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم .وفى الوقت ذاته لانرى أن جريان الأمر على السنة المألوفة أقل وقعا ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف . فالسنة المألوفة هى فى حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر . . إن طلوع الشمس وغروبها خارقة ــ وهى معهودة كل يوم ــ وإن ولادة كل طفل خارقة ــ وهى تقع كل لحظة ، وإلا فليجرب من شاء أن يجرب ! وإن تسليط طير ــ كائنا ما كان ــ يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدرى والحصبة وإلقائها فى هذه الأرض، فى هذا الأوان ، وإحداث هذا الوباء فى الجيش ، فى اللحظة التى يهم فيها باقتحام البيت . . إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير . وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيرا خاصا يحمل حجارة خاصة تفعل بالأجسام فعلا خاصا فى اللحظة المقررة . . هــذه من تلك . . هــذه خارقة وتلك خارقة على السواء . .

فأما فى هذا الحادث بالذات ، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيرا أبابيل غير معهودة ــ وإن لم تــكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التى تصف أحجام الطير وأشكالها وصفا مثيرا ، نجد له نظائر فى مواضع أخرى تشى بأن عنصر المبالغة والتهويل مضاف إليهــا ! ــ تحمل حجارة غير معهودة ، تفعل بالأجسام فعلا غير معهود . .

نحن أميــل إلى هــذا الاعتبار . لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة . ولــكن لأن جو السورةوملابساتالحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب . فقد كان الله ــ سبحانه ــ يريد بهــذا البيت أمرا . كان يريد أن يحفظه ليــكون مثابة للناس وأمنا ؛ وليــكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة ، فى أرض حرة طليقة ، لايهيمن عليها أحد من خارجها ، ولا تسيطر عليها حــكومة قاهرة تحاصر الدعوة فى محضنها . ويجعل هــذا الحادث عــبرة ظاهرة مــكشوفة لجميع الأنظار فى جميع الأجيــال ، حتى ليمتن بها على قريش بعــد البعثة فى هــذه السورة ، ويضربها مثلا لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها . . فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجىء الحادث غير مألوف ولا معهود، بكل مقوّماته وبكل أجزائه ولا داعى للمحاولة فى تغليب صورة المألوف من الأمر فى حادث هو فى ذاته وبملابساته مفرد فذ . .

وبخاصة أن المألوف في الجدرى أو الحصبة لا يتفق مع ماروى من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده ، فإن الجدرى أو الحصبة لا يسقط الجسم عضوا عضوا وأنملة أنملة ، ولا يشق الصدر عن القلب . .

وهذه الصورة هى التى يوحى بها النص القرآنى : « فجعلهم كعصف مأكول » .. إيحاء مباشرا قريبا .

ورواية عكرمة وما حدث به يعقوب ابن عتبة ليست نصاً فى أن الجيش أصيب بالجدرى . فهى لا تزيد على أن تقول : إن الجدرى ظهر فى الجزيرة فى هذا العام لأول مرة . ولم ترد فى أقوالهما أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصة بالإصابة بهذا المرض .. ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله فى حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل . ومادامت المسألة خارقة فعلام العناء فى حصرها فى صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر ! وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث كله ؟ !

إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التى كان الأستاذ الإمام — رحمه الله — على رأسها فى تلك الحقبة .. ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات فى تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية . . فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التى تسيطر على العقلية العامة فى تلك الفترة ؛ كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التى حشيت بها ، كتب التفسير والرواية فى الوقت الذى وصلت فيه الفتنه بالعلم الحديث إلى ذروتها ، وموجة الشك فى مقولات الدين إلى قمتها . فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل . ومن ثم تجتهد فى تنقيته من الخرافات والأساطير . كما تحاول أن تنشىء عقلية دينية تفقه السنن الكونية ، وتدرك ثباتها واطرادها ، وترد إليها الحركات الإنسانية كما ترد إليها الحركات الكونية فى الأجرام والأجسام — وهى فى صميمها العقلية القرآنية — فالقرآن يرد الناس إلى سنن الله الكونية باعتبارها القاعدة الثابتة المطردة المنظمة لمفردات الحركات والظواهر المتناثرة.

ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها

فى تلك المدرسة . من المبالغة فى الاحتياط، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله. فشاع فى تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ كما شاع فى تفسير تلميذيه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى ـ رحمهم الله جميعا ـ شاع فى هـذا التفسير الرغبة الواضحة فى رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها ، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم مايسمونه « المعقول » ! وإلى الحذر والاحتراس الشديد فى تقبل الغيبيات .

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هـذا الاتجاه ، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه ، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآنى الكامل . وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التى اختارها ـ سواء المألوف منها للبشر أوغير المألوف ـ هـذه الطلاقة التى لاتجعل العقل البشرى هو الحاكم الأخير . ولاتجعل معقول هـذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل مالا يوافقه ـ كما يتكرر هـذا القول فى تفسير أعلام هذه المدرسة .

هـذا إلى جانب أن المألوف من سنة الله ليس هو كل سنة الله . إنما هو طرف يسير لايفسر كل مايقع من هـذه السنن فى الكون . وأن هـذه كتلك دليل على عظمة القدرة ودقة التقدير . .

وكل ذلك مع الاحتياط من الخرافة ونفى الأسطورة فى اعتدال كامل، غير متأثر بإيحاء بيئة خاصة ، ولامواجهة عرف تفكيرى شائع فى عصر من العصور !!!

إن هنالك قاعدة مأمونة فى مواجهة النصوص القرآنية ، لعل هنا مكان تقريرها . . إنه لايجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة . لامقررات عامة . ، ولامقررات فى الموضوع الذى تعالجه النصوص . بل ينبغى أن نواجه هـذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا . فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية ، ومنها نكوّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعا ؟ فإذا قررت لنا أمرا فهو المقرر كما قررته ! ذلك أن مانسميه « العقل » ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية هو إفراز واقعنا البشرى المحدود ، وتجاربنا البشرية المحدودة .

وهذا العقل وإن يكن فى ذاته قوة مطلقة لا تتقيد بمفردات التجارب والوقائع بل تسمو

عليها إلى المعنى المجرد وراء ذواتها ، إلا أنه فى النهاية محدود بحدود وجودنا البشرى . وهـذا الوجود لايمثل المطلق كما هو عند الله . والقرآن صادر عن هـذا المطلق فهو الذى يحـكمنا . ومقرراته هى التى نستقى منها مقرراتنا العقلية ذاتها . ومن ثم لايصلح أن يقال : إن مدلول هـذا النص يصطدم مع العقل فلا بد من تأويله — كما يرد كثيرا فى مقررات أصحـاب هـذه المدرسة . وليس معنى هذا هو الاستسلام للخرافة . ولـكن معناه أن العقل ليس هو الحـكم فى مقررات القرآن . ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهى التى تقرر كيف تتلقاها عقولنا ، وكيف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها ، وتجاه الحقائق الـكونية الأخرى . .

* * *

ونعود من هذا الاستطراد إلى سورة الفيل ، وإلى دلالة القصة . .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ » . . وهو سؤال للتعجيب من الحادث ، والتنبيه إلى دلالته العظيمة . فالحادث كان معروفا للعرب ومشهوراً عندهم ، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ . يقولون حدث كذا عام الفيل ، وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات . . والمشهور أن مولد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان فى عام الفيل ذاته . ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة !

وإذن فلم تـكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها ، إنمـا كانت تذكيرا بأمر يعرفونه ، المقصود به ماوراء هذا التذكير . .

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع فى صورة الاستفهام التقريرى كذلك :

« ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ » . . أى ألم يضل مكرهم فلايبلغ هدفه وغايته ، شأن من يضل الطريق فلايصل إلى مايبتغيه . . ولعله كان بهذا يذكر قريشا بنعمته عليهم فى حماية هـذا البيت وصيانته ، فى الوقت الذى عجزوا هم عن الوقوف فى وجه أصحاب الفيل الأقوياء . لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذى تقدمت يده عليهم فى ضعفهم وعجزهم ، كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم فى مواجهة محمد — صلى الله عليـه وسلم — والقلة المؤمنة معه . فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته ؛ فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته .

فأما كيف جعل كيدهم فى تضليل فقد بينه فى صورة وصفية رائعة : « وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول » .. والأبابيل: الجماعات . وسجيل كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان : حجر وطين . أوحجارة ملوثة بالطين . والعصف :الجاف من ورق الشجر . ووصفه بأنه مأكول : أى فتيت طحين ! حين تأكله الحشرات وتمزقه، أوحين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ! وهى صورة حسية للتمزيق البدنى بفعل هـذه الأحجار التى رمتهم بها جماعات الطير . ولاضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدرى أو الحصبة .

* * *

فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادةمن التذكير به فكثيرة ..

وأول ماتوحى به أن الله ـ سبحانه ـ لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين ، ولوأنهم كانوا يعتزون بهذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به . فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية . وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام ، حتى لاتـكون للمشركين يد على بيته ولاسابقة فى حمايته ، بحميتهم الجاهلية . ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحا قويا أن الأمر جرى فى إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة ـ لاالسنة المألوفه المعهودة ـ فهذا أنسب وأقرب ..

ولقد كان منمقتضى هـذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب إلى الدخول فى دين الله حينما جاءهم به الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وماصاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام ! وهـذا التذكير بالحادث على هـذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجيب من موقفهم العنيد !

كذلك توحى دلالة هـذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الـكتاب ـ أبرهة وجنوده ـ أن يحطموا البيت الحرام أويسيطروا على الأرض المقدسة . حتى والشرك يدنسه ، والمشركون هم سدنته . ليبقى هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين ، مصونا من كيد الـكائدين . وليحفظلهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة ، لايهيمن عليها سلطان ، ولايطغى

فيها طاغية ، ولايهيمن على هـذا الدين الذى جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولايقاد . وكان هذا من تدبيرالله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبى هذا الدين قد ولد فى هذا العام !

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن ، إزاء مانعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ، ولاتنى أوتهدأفى التمهيد الخفى اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة . فالله الذى حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون ، سيحفظه إن شاء الله ، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين !

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دورفى الأرض . بل لم يكن لهم كيان. قبل الإسلام. كانوا فى اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة . وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحيانا تقوم تحت حماية الفرس . وفى الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان . . ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه . ولكنه ظل فى حالة بداوة أوفى حالة تفكك لاتجعل منه قوة حقيقية فى ميدان القوى العالمية. وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة ، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولامجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة . وماحدث فى عام الفيل كان مقياسا لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبى .

وتحت راية الإسلام ولأول مرة فى تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمى يؤدونه . وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب . قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش ، وتتولى قيادة البشرية ، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة . . ولكن الذى هيأ للعرب هـذا لأول مرة فى تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ! نسوا نعرة الجنس ، وعصبية العنصر ، وذكروا أنهم مسلمون . ومسلمون فقط . ورفعوا راية الإسلام، وراية الإسلام وحدها. وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبرا بالبشرية؛ولم يحملوا قومية ولاعنصرية ولاعصبية . حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لامذهبا أرضيا يخضعون الناس لسلطانه. وخرجوا من أرضهم جهادا فى سبيل الله وحده ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة

الله وحده ، كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[1] » .

عندئذ فقط كان للعرب وجود ، وكانت لهم قوة ، وكانت لهم قيادة .. ولكنها كانت كلها لله وفى سبيل الله . وقد ظلت لهم قوتهم . وظلت لهم قيادتهم مااستقاموا على الطريقة . حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم ، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم ، لأن الله قد تركهم حينما تركوه ، ونسيهم مثلما نسوه !

وما العرب بغير الإسلام ؟ ماالفكرة التى قدموهاللبشرية أويملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة ؟ وماقيمة أمة لاتقدم للبشرية فكرة ؟ إن كل أمة قادت البشرية فى فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة . والأمم التى لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين أجتاحوا الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية فى الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا ، إنماذابوا فى الأمم التى فتحوها . والفكرة الوحيدةالتى تقدم بهاالعرب للبشرية كانتهى العقيدة الإسلامية ، وهى التى رفعتهم إلى مكان القيادة ، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم فى الأرض وظيفة ، ولم يعد لهم فى التاريخ دور . . وهذا مايجب أن يذكره العرب جيدا إذا هم أرادوا الحياة ، وأرادوا القوة ، وأرادوا القيادة .. والله الهادى من الضلال . .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .



بسم الله الرحمن الرحيم

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

استجاب الله دعوة خليله إبراهيم ، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره : « رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات » .. فجعل هذا البيت آمنا ، وجعله عتيقا من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين ؛ وجعل من يأوى إليه آمنا والمخافة من حوله فى كل مكان . . حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام . . لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام .

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان ، مما فصلته سورة الفيل . وحفظ الله للبيت أمنه ، وصان حرمته ؛ وكان من حوله كما قال الله فيهم : « أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ » ..

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف فى زيادة حرمة البيت عند العرب فى جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش ، مما ساعدهم على أن يسيروا فى الأرض آمنين ، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية ، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة - عن طريق القوافل - إلى اليمن فى الجنوب ، وإلى الشام فى الشمال . وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : إحداهما إلى اليمن فى الشتاء ، والثانية إلى الشام فى الصيف .

ومع ما كانت عليه حالة الأمن فى شعاب الجزيرة من سوء ؛ وعلى ما كان شائعا من غارات

السلب والنهب ، فإن حرمة البيت فى أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة فى هــذه التجارة المغرية ، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ؛ وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول ، فى أمان وسلام وطمأنينة . وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين ، فصارتا لهم عادة وإلفا !

هذه هى المنة التى يذكرهم الله بها ـ بعد البعثة ـ كما ذكرهم منة حادث الفيل فى السورة السابقة، منة إيلافهم رحلتى الشتاء والصيف ، ومنة الرزق الذى أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين ـ وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله . ومنة أمنهم الخوف . سواء فى عقر دارهم بجوار بيت الله ، أم فى أسفارهم وترحالهم فى رعاية حرمة البيت التى فرضها الله وحرسها من كل اعتداء .

يذكرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ؛ وهو رب هذا البيت الذى يعيشون فى جواره آمنين طاعمين ؛ ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين . .

يقول لهم : من أجل إيلاف قريش: رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ماتنال « فليعبدوا رب هــذا البيت الذى أطعمهم من جوع » . . وكان الأصل ـ بحسب حالة أرضهم ـ أن يجوعوا ، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع « وآمنهم من خوف » . . وكان الأصل ـ بحسب ماهم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم ـ أن يكونوا فى خوف فآمنهم من هذا الخوف !

وهو تذكير يستجيش الحياء فى النفوس . ويثير الخجل فى القلوب . وماكانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته فى حياتها . وماكانت فى ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده . وهاهو ذا عبد المطلب لايواجه أبرهة بجيش ولاقوة . إنما يواجهه برب هذا البيت الذى يتولى حماية بيته ! لم يواجهه بصنم ولاوثن ، ولم يقل له . . إن الآلهة ستحمى بيتها . إنما قال له : «أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه » . . ولكن انحراف الجاهلية لايقف عند منطق ، ولايثوب إلى حق ، ولايرجع إلى معقول .

وهذه السورة تبدو امتدادا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها . وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة ، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور . ولكن ترتيبهما فى المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب . .



سورة الماعون مدنية وآياتها ٧

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .

هـذه السورة مكية فى بعض الروايات ، ومكية مدنية فى بعض الروايات (الثلاث الآيات الأولى مكية والباقيات مدنية) وهذه الأخيرة هى الأرجح . وإن كانت السورة كلها وحدة متماسكة ، ذات اتجاه واحد ، لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة ، مما يكاد يميل بنا إلى اعتبارها مدنية كلها ، إذ أن الموضوع الذى تعالجه هو من موضوعات القرآن المدنى ــ وهو فى جملته يمت إلى النفاق والرياء مما لم يكن معروفا فى الجماعة المسلمة فى مكة . ولـكن قبول الروايات القائلة بأنها مكية مدنية لايمتنع لاحتمال تنزيل الآيات الأربع الأخيرة فى المدينة وإلحاقها بالآيات الثلاث الأولى لمناسبة التشابه والاتصال فى الموضوع . . وحسبنا هـذا لنخلص إلى موضوع السورة وإلى الحقيقة الـكبيرة التى تعالجها . .

* * *

إن هذه السورة الصغيرة ذات الآيات السبع القصيرة تعالج حقيقة ضخمة تـكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والـكفر تبديلا كاملا . فوق ماتطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه

العقيدة ، وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية ، وللرحمة السابغة التي أرادها الله للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة . .

إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس ؛ ولاتغني فيه مظاهر العبادات والشعائر ، مالم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد ، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح ، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى .

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة ، يؤدي منها الإنسان مايشاء ، ويدع منها مايشاء . . إنما هو منهج متكامل ، تتعاون عباداته وشعائره ، وتكاليفه الفردية والاجتماعية ، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر . . غاية تتطهر معها القلوب ، وتصلح الحياة ، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء . . وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد .

ولقد يقول الإنسان بلسانه : إنه مسلم وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه . وقد يصلي ، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ويظل بعيدا عنها ، لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها . ومالم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولاتصديق مهما قال اللسان ، ومهما تعبد الإنسان !

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها (كما قلنا في سورة العصر) لكي تحقق ذاتها في عمل صالح . فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلا . وهذا ماتقرره هذه السورة نصا . .

* * *

« أرأيت الذي يكذب بالدين ؟ فذلك الذي يدع اليتيم ، ولايحض على طعام المسكين » . .

إنها تبدأ بهذا الاستفهام الذي يوجه كل من تتأتى منه الرؤية ليرى : « أرأيت الذي يكذب بالدين ؟ » وينتظر من يسمع هذا الاستفهام ليرى إلى أين تتجه الإشارة وإلى من تتجه ؟ ومن هو هذا الذي يكذب بالدين ، والذي يقرر القرآن أنه يكذب بالدين . . وإذا الجواب : « فذلك الذي يدع اليتيم . ولايحض على طعام المسكين » !

وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدي . . ولكن هذا هو لباب

الأمر وحقيقته . . إن الذى يكذب بالدين هو الذى يدفع اليتيم دفعا بعنف – أى الذى يهين اليتيم ويؤذيه . والذى لايحض على طعام المسكين ولا يوصى برعايته . فلو صدّق بالدين حقا ، ولو استقرت حقيقة التصديق فى قلبه ما كان ليدع اليتيم ، وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين .

إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان ؛ إنما هى تحول فى القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه فى البشرية ، المحتاجين إلى الرعاية والحماية . والله لايريد من الناس كلمات . إنما يريد منهم معها أعمالا تصدقها ، وإلا فهى هباء ، لاوزن لها عنده ولا اعتبار .

وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث فى تقرير هذه الحقيقة التى تمثل روح هذه العقيدة وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل .

ولا نحب أن ندخل هنا فى جدل فقهى حول حدود الإيمان وحدود الإسلام . فتلك الحدود الفقهية إنما تقوم عليها المعاملات الشرعية . فأما هنا فالسورة تقرر حقيقة الأمر فى اعتبار الله وميزانه. وهذا أمر آخر غير الظواهر التى تقوم عليها المعاملات ! !

ثم يرتب على هذه الحقيقة الأولى صورة تطبيقية من صورها :

« فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون »

إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . . فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون !

إنهم « الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » . .

إنهم أولئك الذين يصلون ، ولكنهم لايقيمون الصلاة . الذين يؤدون حركات الصلاة ، وينطقون بأدعيتها ، ولكن قلوبهم لاتعيش معها، ولا تعيش بها ، وأرواحهم لاتستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة مافيها من قراءات ودعوات وتسبيحات . إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصا لله . ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها . ساهون عنها لم يقيموها . والمطلوب هو إقامة الصلاة لامجرد أدائها . وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها .

ومن هنا لا تنشىء الصلاة آثارها فى نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون. فهم يمنعون الماعون . يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم فى البشرية. يمنعون الماعون عن

عباد الله . ولو كانوا يقيمون الصلاة حقا لله مامنعوا العون عن عباده ، فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله . .

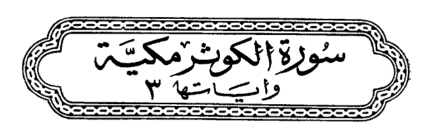
وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام حقيقة هذه العقيدة ، وأمام طبيعة هذا الدين . ونجد نصا قرآنيا ينذر مصلين بالويل . لأنهم لم يقيموا الصلاة حقا . إنما أدوا حركات لاروح فيها . ولم يتجردوا لله فيها . إنما أدوها رياء . ولم تترك الصلاة أثرها فى قلوبهم وأعمالهم فهى إذن هباء . بل هى إذن معصية تنتظر سوء الجزاء !

***

وننظر من وراء هذه وتلك إلى حقيقة مايريده الله من العباد ، حين يبعث إليهم برسالاته ليؤمنوا به وليعبدوه . . .

إنه لايريد منهم شيئا لذاته سبحانه — فهو الغنى — إنما يريد صلاحهم هم أنفسهم . يريد الخير لهم . يريد طهارة قلوبهم ويريد سعادة حياتهم . يريد لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور النظيف ، والتكافل الجميل ، والأريحية الكريمة والحب والإخاء ونظافة القلب والسلوك .

فأين تذهب البشرية بعيدا عن هذا الخير ؟ وهذه الرحمة ؟ وهذا المرتقى الجميل الرفيع الكريم ؟ أين تذهب لتخبط فى متاهات الجاهلية المظلمة النكدة وأمامها هذا النور فى مفرق الطريق ؟



بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » .

هذه السورة خالصة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كسورة الضحى ، وسورة الشرح. يسرى عنه ربه فيها ، ويعده بالخير ، ويوعد أعداءه بالبتر ، ويوجهه إلى طريق الشكر.

ومن ثم فهى تمثل صورة من حياة الدعوة ، وحياة الداعية فى أول العهد بمكة . صورة من الكيد والأذى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوة الله التى يبشر بها ؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه ؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه .

كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان . وحقيقة الضلال والشر والكفران .. الأولى كثرة وفيض وامتداد . والثانية قلة وانحسار وانبتار . وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك . .

* * *

ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء ، ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذى جاءهم به من عند الله ، من أمثال العاص ابن وائل ، وعقبة ابن أبى معيط ، وأبى لهب ، وأبى جهل ، وغيرهم ، كانوا يقولون عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه أبتر . يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده . وقال أحدهم : دعوه فإنه سيموت بلاعقب وينتهى أمره !

وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له فى البيئة العربية التى تتكاثر بالأبناء صدى

ووقعا . وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وشانئيه ، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومسته بالغم أيضا .

ومن ثم نزلت هــذه السورة تمسح على قلبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالرّوح والندى ، وتقرر حقيقة الخير الباقى الممتد الذى اختاره له ربه ؛ وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

* * *

« إنا أعطيناك الـكوثر » . . والـكوثر صيغة من الـكثرة . . وهو مطلق غير محدود . يشير إلى عكس المعنى الذى أطلقه هؤلاء السفهاء . . إنا أعطيناك ماهو كثير فائض غزير . غير ممنوع ولامبتور .. فإذا أراد أحد أن يتتبع هــذا الـكوثر الذى أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أوتصور .

هو واجده فى النبوة. فى هذا الاتصال بالحق الـكبير ، والوجود الـكبير . الوجود الذى لاوجود غيره ولاشىء فى الحقيقة سواه . وماذا فقد من وجد الله ؟

وهو واجده فى هــذا القرآن الذى نزل عليه . وسورة واحدة منه كوثر لانهاية لـكثرته، وينبوع ثر لانهاية لفيضه وغزارته !

وهو واجده فى الملإ الأعلى الذى يصلى عليه ، ويصلى على من يصلى عليه فى الأرض ، حيث يقترن اسمه باسم الله فى الأرض والسماء .

وهو واجده فى سنته الممتدة على مدار القرون ، فى أرجاء الأرض . وفى الملايين بعد الملايين السائرة على أثره ، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة .

وهو واجده فى الخير الـكثير الذى فاض على البشرية فى جميع أجيالها بسببه وعن طريقه . سواء من عرفوا هــذا الخير فآمنوا به ، ومن لم يعرفوه ولـكنه فاض عليهم فيما فاض !

وهوواجده فى مظاهرشتى، محاولة إحصائها ضرب من تقليلهاوتصغيرها !

إنه الـكوثر ، الذى لانهاية لفيضه ، ولاإحصاء لعوارفه ، ولاحد لمدلوله . ومن ثم تركه النص بلاتحديد ، يشمل كل مايكثر من الخير ويزيد . .

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الـكوثر نهر فى الجنة أوتيه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولـكن ابن عباس أجاب بأن هــذا النهر هو من بين الخير الـكثير الذى

أوتيه الرسول. فهو كوثر من الكوثر! وهذا هو الأنسب في هذا السياق وفي هذه الملابسات.

* * *

« فصل لربك وانحر » .

بعد توكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة ، على غيرما أرجف المرجفون وقال الكائدون ، وجه الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى شكر النعمة بحقها الأول . حق الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه . . في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله : « فصل لربك وانحر » . . غير ملق بالا إلى شرك المشركين ، وغير مشارك لهم في عبادتهم أو في ذكر غير اسم الله على ذبائحهم .

وفي تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح ، وتحريم ماأهل به لغير الله ، وما لم يذكر اسم الله عليه . . مايشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره . لاتخليص التصور والضمير وحدها . فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها ، وكل ظل من ظلالها ؛ كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح .ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره ، وفي كل مكامنه ؛ ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير ، أم ظهر في العبادة ، أم تسرب إلى تقاليد الحياة فالحياة وحدة ماظهر منها وما بطن ، والإسلام يأخذها كلا لايتجزأ ، ويخلصها من شوائب الشرك جميعا ، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة ناصعة ، كما نرى في مسألة الذبائح وفي غيرها من شعائر العبادة أو تقاليد الحياة ...

* * *

« إن شانئك هو الأبتر » . . .

في الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر . وفي هذه الآية يرد الكيد على كائديه ، ويؤكد — سبحانه — أن الأبتر ليس هو محمد ، إنما هم شانئوه وكارهوه .

ولقد صدق فيهم وعيد الله . فقد انقطع ذكرهم وانطوى . بينما امتد ذكر محمد وعلا . ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم ، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون !

إن الإيمان والحق والخير لايمكن أن يكون أبتر . فهو ممتد الفروع عميق الجذور . وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبر . . .

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويغترون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور ! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد . . فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قولتهم اللئيمة ، وينالون بها من قلوب الجماهير ، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق ؟ أين هم ؟ وأين ذكراهم ؟ وأين آثارهم؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء، ذلك الذى أوتيه من كانوا يقولون عنه : الأبتر ؟ !

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لايمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر ، وكيف وهى موصولة بالله الحى الباقى الأزلى الخالد ؟ إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله ، مهما بدا فى لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور . .

وصدق الله العظيم . وكذب الكائدون الماكرون . .



سورة الكافرون مكية وآياتها ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »

لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لايعرفونه بحقيقته التى وصف بها نفسه . أحد . صمد . فكانوا يشركون به ولايقدرونه حق قدره ، ولايعبدونه حق عبادته . كانوا يشركون به هذه الأصنام التى يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء . أو يرمزون بها إلى الملائكة..وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله،وأن بينه-سبحانه-وبين الجنة نسبا ،أوينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة ، وفى هذه الحالة أوتلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله كما حكى عنهم القرآن الكريم فى سورة الزمر قولهم : « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . .

ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، وتسخيره للشمس والقمر ، وإنزاله الماء من السماء كالذى جاء فى سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » . . « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله » . .

وفى أيمانهم كانوا يقولون : والله . وتالله . وفى دعائهم كانوا يقولون : اللهم .. الخ .

ولكنهم مع إيمانهم بالله كان هـذا الشرك يفسد عليهم تصورهم كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم، فيجعلون للآلهة المدعاة نصيبا فى زرعهم وأنعامهم ونصيبا فى أولادهم . حتى ليقتضى هذا النصيب أحيانا التضحية بأبنائهم . وفى هذا يقول القرآن الكريم عنهم فى سورة الأنعام :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا هذا لله — بزعمهم — وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله . وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . وقالوا : هـذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء — بزعمهم — وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون ، وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم. قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم . وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين (١) » .

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهـدى من أهل الكتاب ، الذين كانوا يعيشون معهم فى الجزيرة العربية ، لأن اليهود كانوا يقولون: عزير ابن الله . والنصارى كانوا يقولون : عيسى ابن الله . بينما هم كانوا يعبـدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله — بزعمهم — فكانوا يعدون أنفسهم أهـدى . لأن نسبة الملائكة إلى الله ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى . . وكله شرك . وليس فى الشرك خيار . ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقا !

فلما جاءهم محمد — صلى الله عليه وسلم — يقول : إن دينه هو دين إبراهيم — عليه السلام — قالوا : نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمـد ؟ ! وفى الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول — صلى الله عليـه وسلم — خطة وسطا بينهم وبينه ؟ وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم ، وله فيهم وعليهم ما يشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم ، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه . . لعل هـذا كان

(١) يراجع تفسير هذه الآيات فى سورة الأنعام الجزء الثامن ص ٢٦ — ٢٩

يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة ، يمكن التفاهم عليها ، بقسمة البلد بلدين ، والالتقاء في منتصف الطريق ، مع بعض الترضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة ، وقطع الطريق على المحاولة ، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ، ومنهج ومنهج ، وتصور وتصور ، وطريق وطريق . . نزلت هذه السورة . بهذا الجزم . وبهذا التوكيد . وبهذا التكرار . لتنهى كل قول ، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيا بين التوحيد والشرك ، وتقيم المعالم واضحة ، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير :

« قل ياأيها الكافرون . لاأعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ماأعبد ، ولا أنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد . لكم دينكم ولي دين » .

نفي بعد نفي . وجزم بعد جزم . وتوكيد بعد توكيد . بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد . .

« قل » . . فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده . ليس لمحمد فيه شيء . إنما هو الله الآمر الذي لامرد لأمره ، الحاكم الذي لاراد لحكمه .

« قل ياأيها الكافرون » . . ناداهم بحقيقتهم ، ووصفهم بصفتهم . . إنهم ليسوا على دين ، وليسوا بمؤمنين وإنما هم كافرون . فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق . .

وهكذا يوحي مطلع السورة وافتتاح الخطاب ، بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال !

« لاأعبد ماتعبدون » . . فعبادتي غير عبادتكم ، ومعبودي غير معبودكم . .

« ولا أنتم عابدون ماأعبد » فعبادتكم غير عبادتي ، ومعبودكم غير معبودي .

« ولا أنا عابد ماعبدتم » . . توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الاسمية وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها . .

« ولا أنتم عابدون ماأعبد » . . تكرار لتوكيد الفقرة الثانية . كي لاتبقى مظنة ولا شبهة ، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد !

ثم إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه ، والاختلاف الذي لا تشابه فيه ، والانفصال الذي لااتصال فيه ، والتمييز الذي لااختلاط فيه :

« لكم دينكم ولي دين » . . أنا هنا وأنتم هناك ، ولا معبر ولا جسر ولا طريق ! ! !

مفاصلة كاملة شاملة ، وتميز واضح دقيق . .

* * *

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرى الكامل ، الذى يستحيل معه اللقاء على شيء فى منتصف الطريق . الاختلاف فى جوهر الاعتقاد ، وأصل التصور ، وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق .

إن التوحيد منهج ، والشرك منهج آخر . . ولا يلتقيان . . التوحيد منهج يتجه بالإنسان — مع الوجود كله — إلى الله وحده لاشريك له . ويحدد الجهة التى يتلقى منها الإنسان ، عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه الجهة التى يتلقى المؤمن عنها هى الله ، الله وحده بلاشريك . ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس . غير متلبسة بالشرك فى أية صورة من صوره الظاهرة والخفية . . وهى تسير . .

وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية . وضرورية للمدعوين . .

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان ، وبخاصة فى الجماعات التى عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها. وهذه الجماعات هى أعصى الجماعات على الإيمان فى صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف . أعصى من الجماعات التى لاتعرف العقيدة أصلا . ذلك أنها تظن بنفسها الهدى فى الوقت الذى تتعقد انحرافاتها وتتلوى ! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها ، قد يغرى الداعية نفسه بالأمل فى اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد . . وهذا الإغراء فى منتهى الخطورة !

إن الجاهلية جاهلية ، والاسلام إسلام . والفارق بينهما بعيد . والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته . هو الانسلاخ من الجاهلية بكل مافيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة فى الطريق هى تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية : تصورا ومنهجا وعملا. الانعزال الذى لايسمح بالالتقاء فى منتصف الطريق . والانفصال الذى يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .

لا ترقيع. ولا أنصاف حلول .ولا التقاء فى منتصف الطريق . . مهما تزيت الجاهلية بزى الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان !

وتميز هذه الصورة فى شعور الداعية هو حجر الأساس . شعوره بأنه شىء آخر غير هؤلاء . لهم دينهم وله دينه، لهم طريقهم وله طريقه . لايملك أن يسايرهم خطوة واحدة فى طريقهم . ووظيفته أن يسيرهم فى طريقه هو ، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير !

وإلا فهى البراءة الكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح . . « لكم دينكم ولى دين » . .

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم . . ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد فى بيئة جاهلية منحرفة ، وفى أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ، ثم طال عليهم الأمد « فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » . . وأنه ليس هناك أنصاف حلول ،ولا التقاء فى منتصف الطريق ،ولا إصلاح عيوب ، ولا ترقيع مناهج . . إنما هى الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان، الدعوة بين الجاهلية . والتميز الكامل عن الجاهلية . . « لكم دينكم ولى دين » . . وهذا هو دينى : التوحيد الخالص الذى يتلقى تصوراته وقيمه ، وعقيدته وشريعته . . كلها من الله . . دون شريك . . كلها . . فى كل نواحى الحياة والسلوك .

وبغيرهذه المفاصلة . سيبقى الغبش وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع .. والدعوة إلى الإسلام لاتقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة . إنها لاتقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح . . .

وهذا هو طريق الدعوة الأول : « لكم دينكم ولى دين » . .



بسم الله الرحمن الرحيم

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

هذه السورة الصغيرة . . كما تحمل البشرى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله أفواجا ؛ وكما توجهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار . .

كما تحمل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ البشرى والتوجيه . . تكشف فى الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج ، ومدى مايريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص ، والانطلاق والتحرر . . هذه القمة السامقه الوضيئة ، التى لم تبلغها البشرية قط إلا فى ظل الإسلام . ولا يمكن أن تبلغها إلا وهى تلبى هذا الهدف العلوى الكريم .

* * *

وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية الإمام أحمد : حدثنا محمد ابن أبى عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق ، قال : قالت عائشة : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر فى آخر أمره من قوله : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتها

أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابا » فقد رأيتها .. « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » . .

(ورواه مسلم من طريق داود ابن أبى هند بهذا النص) ..

وقال ابن كثير فى التفسير : والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة . قولا واحـدا . فإن أحياء العرب كانت تتلوم (أى تنتظر) بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى ، فلما فتح الله عليـه مكة دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مُظهر للإسلام ولله الحمد والمنة ، وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو ابن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبى . . . « الحديث » . .

فهذه الرواية هى التى تتفق مع ظاهر النص فى السورة : « إذا جاء نصر الله والفتح . . . الخ » فهى إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيجىء بعـد ذلك ، مع توجيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ما يعمله عند تحقق هذه البشارة وظهور هذه العلامة .

وهناك رواية أخـرى عن ابن عباس ؛ لايصعب التوفيق بينها وبين هـذه الرواية التى اخترناها . .

قال البخارى : حدثنا موسى ابن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم . فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال : ما تقولون فى قول الله عز وجل : « إذا جاء نصر الله والفتح » ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئا . فقال لى : أكذلك تقول ياابن عباس ؟ « فقلت لا . فقال : ماتقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلمه له . قال : « إذا جاء نصر الله والفتح » فذلك علامة أجلك « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » . فقال عمر ابن الخطاب : لاأعلم منها إلا ماتقول (تفرد به البخارى) .

فلا يمتنع أن يكون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رأى علامة ربه أدرك أن واجبه

فى الأرض قد كمل، وأنه سيلقى ربه قريبا . فكان هذا معنى قول ابن عباس : هو أجل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أعلمه له . . الخ . .

ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقى — بإسناده — عن ابن عباس كذلك : قال : لما نزلت : « إذا جاء نصر الله والفتح » . . دعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاطمة وقال: « إنه قد نعيت إلىّ نفسى » فبكت . ثم ضحكت . وقالت أخبرنى : أنه نعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال : « اصبرى فإنك أول أهلى لحوقا بى » فضحكت .

ففى هذا الحديث تحديد لنزول السورة . فكأنها نزلت والعلامة حاضرة . أى أنه كان الفتح قد تم ودخول الناس أفواجا قد تحقق . فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه أجله . . إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقا مع ظاهر النص القرآنى . وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة وضحكها قد روى بصورة أخرى تتفق مع هذا الذى نرجحه . . عن أم سلمة — رضى الله عنها — قالت : « دعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاطمة عام الفتح فناجاها ، فبكت ، ثم ناجاها فضحكت . قالت : فلما توفى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سألتها عن بكائها وضحكها . قالت : أخبرنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه يموت ، فبكيت ، ثم أخبرنى أنى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران . فضحكت . . (أخرجه الترمذى) .

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآنى ، ومع الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم فى صحيحه . من أنه كانت هناك علامة بين الرسول — صلى الله عليه وسلم — وربه هى : « إذا جاء نصر الله والفتح . . » فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاؤه لربه فناجى فاطمة رضى الله عنها بما روته عنها أم سلمة رضى الله عنها .

* * *

ونخلص من هذا كله إلى المدلول الثابت والتوجيه الدائم الذى جاءت به هذه السورة الصغيرة ... فإلى أى مرتقى يشير هذا النص القصير :

« إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا » ....

فى مطلع الآية الأولى من السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص ، عن حقيقة مايجرى فى هذا الكون من أحداث ، ومايقع فى هـذه الحياة من حوادث . وعن دور الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودور المؤمنين فى هذه الدعوة ، وحدّهم الذى ينتهون إليه فى هذا الأمر . . هذا الإيحاء يتمثل فى قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله . . . » . . فهو نصر الله يجىء به الله : فى الوقت الذى يقدره . فى الصورة التى يريدها . للغاية التى يرسمها . وليس للنبى ولا لأصحابه من أمره شىء ، وليس لهم فى هذا النصر يد . وليس لأشخاصهم فيه كسب . وليس لذواتهم منه نصيب . وليس لنفوسهم منه حظ ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أوبدونهم . وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وأن يقيمهم عليه حراسا ، ويجعلهم عليه أمناء . . هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس فى دين الله أفواجا . .

وبناء على هذا الإيحاء وماينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر ، يتحدد شأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم ، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم . إن شأنه ـ ومن معه ـ هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار فى لحظة الانتصار .

التسبيح والحمد على ماأولاهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه . وعلى ماأولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه ، وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجا فى هذا الخير الفائض العميم ، بعد العمى والضلال والخسران .

والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل : الاستغفار من الزهو الذى قد يساور القلب أويتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح ، وفرحة الظفر بعد طول العناء . وهو مدخل يصعب توقيه فى القلب البشرى . فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه فى فترة الكفاح الطويل والعناء القاسى ، والشدة الطاغية والكرب الغامر . . من ضيق بالشدة ، واستبطاء لوعد الله بالنصر ، وزلزلة كالتى قال عنها فى موضع آخر : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » [1] فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار من التقصير فى حمد الله وشكره . فجهد الإنسان مهما كان ضعيف محدود ،

---

(١) سورة البقرة : آية (٢١٤) .

وآلاء الله دائمة الفيض والهملان .. « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. فمن هـذا التقصير يكون الاستغفار..

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار . . ففيه إيحاء للنفس واشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز . فأولى أن تطامن من كبريائها، وتطلب العفو من ربها. وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور ..

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والاتجاه إلى الله طلبا للعفو والسماحة والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين . ليرقب المنتصر الله فيهم ، فهو الذى سلطه عليهم ، وهو العاجز القاصر المقصر . وإنها سلطة الله عليهم تحقيقا لأمر يريده هو . والنصر نصره ، والفتح فتحه ، والدين دينه ، وإلى الله تصير الأمور .

* * *

إنه الأفق الوضيء الكريم ، الذى يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه ، وترقى في مدارجه ، على حداثه النبيل البار . الأفق الذى يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه ، وترف فيه روحه طليقة لأنها تعنو لله !

إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحا من روح الله . ليس لها حظ فى شيء إلا رضاه . ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق ؛ وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة ؛ وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة ، بانية عادلة خيرة ، . . الاتجاه فيها إلى الله .

وعبثا يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته ، مقيد برغباته ، مثقل بشهواته . عبثا يحاول مالم يتحرر من نفسه ، ويتجرد فى لحظة النصر والغنم من حظ نفسه ليذكر الله وحده .

وهذا هو الأدب الذى اتسمت به النبوة دائما ، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه ، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائما ..

كان هذا هو أدب يوسف ـ عليه السلام ـ فى اللحظة التى تم له فيها كل شيء ، وتحققت رؤياه ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال : ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قدجعلها

ربى حقا . وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » . .

وفى هذه اللحظة نزع يوسف — عليه السلام — . نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر . كل دعوته وهو فى أبهة السلطان وفى فرحة تحقيق الأحلام :

« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت ولي فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين » . . وهنا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة الإخوان ، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين عنده . من فضله ومنه وكرمه . .

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضرا بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه : « فلما رآه مستقرا عنده قال : هـذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم » . .

وهذا كان أدب محمد — صلى الله عليه وسلم — فى حياته كلها ، وفى موقف النصر والفتح الذى جعله ربه علامة له . . انحنى لله شاكرا على ظهر دابته ودخل مكة فى هذه الصورة . مكة التى آذته وأخرجته وحاربته ووقفت فى طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة . . فلما أن جاءه نصر الله والفتح ، نسى فرحة النصر وانحنى انحناءة الشكر ، وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه ، وجعل يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار . وكانت هذه سنته فى أصحابه من بعده ، رضى الله عنهم أجمعين .

* * *

وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله ، وهكذا أشرقت وشفت ورفرفت ، وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق . .



بسم الله الرحمن الرحيم

«تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ» .

أبو لهب ـ (واسمه عبد العزى ابن عبد المطلب) هو عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما سمى أبو لهب لإشراق وجهه ، وكان هو وامرأته « أم جميل » من أشد الناس إيذاء لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والدعوة التى جاء بها . .

قال ابن إسحاق : « حدثنى حسين ابن عبد الله ابن عبيد الله ابن عباس قال: سمعت ربيعة ابن عباد الديلى يقول : « إنى لمع أبى رجل شاب أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول ، وضىء الوجه ذوجمة ، يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة فيقول « : يابنى فلان . إنى رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تصدقونى وتمنعونى حتى أنفذ عن الله مابعثنى به» وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يابنى فلان . هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بنى مالك ابن أقمس ، إلى ماجاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ، ولا تتبعوه . فقلت لأبى: من هذا ؟ قال عمه أبو لهب . (ورواه الإمام أحمد والطبرانى بهذا اللفظ) .

فهذا نموذج من نماذج كيد أبى لهب للدعوة وللرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت زوجته أم جميل فى عونه فى هذه الحملة الدائبة الظالمة . (وهى أروى بنت حرب ابن أمية أخت أبى سفيان) .

ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — منذ اليوم الأول للدعوة . أخرج البخارى — بإسناده — عن ابن عباس ، أن النبى — صلى الله عليه وسلم — خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « ياصباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ؟أ كنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب . ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك . فأنزل الله « تبت يدا أبى لهب وتب ... » الخ . وفى رواية فقام ينفض يديه وهو يقول : تباً لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟ ! فأنزل الله السورة .

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبى طالب على حماية النبى — صلى الله عليه وسلم — ولو لم يكونوا على دينه ، تلبية لدافع العصبيه القبلية ، خرج أبو لهب على إخوته ، وحالف عليهم قريشا ، وكان معهم فى الصحيفة التى كتبوها بمقاطعة بنى هاشم وتجويعهم كى يسلموا لهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

وكان قد خطب بنتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبى — صلى الله عليه وسلم — فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد بهما !

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حربا شعواء على النبى — صلى الله عليه وسلم — وعلى الدعوة ، لاهوادة فيها ولا هدنة . وكان بيت أبى لهب قريبا من بيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فكان الأذى أشد . وقد روى أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه فى طريق النبى ؛ وقيل : إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة .

* * *

نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبى لهب وامرأته . وتولى الله — سبحانه — عن رسوله — صلى الله عليه وسلم — أمر المعركة !

« تبت يدا أبى لهب وتب » .. والتباب الهلاك والبوار والقطع . « وتبت » الأولى دعاء . « وتب » الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء . ففى آية قصيرة واحدة فى مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق ، وتنتهى المعركة ويسدل الستار !

فأما الذى يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان .

« ماأغنى عنه ماله وما كسب » . . لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك . فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار .

ذلك ـ كان ـ فى الدنيا . أما فى الآخرة فإنه : « سيصلى نارا ذات لهب » . . ويذكر اللهب تصويرا وتشخيصا للنار وإيحاء بتوقدها وتلهبها .

« وامرأته حمالة الحطب » . . وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب . . وحالة كونها : « فى جيدها حبل من مسد » . . أى من ليف . . تشد هى به فى النار . أو هو الحبل الذى تشد به الحطب . على المعنى الحقيقى إن كان المراد هو الشوك . أو المعنى المجازى إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعى بالأذى والوقيعة .

***

وفى الأداء التعبيرى للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها ، نقتطف فى بيانه سطورا من كتاب : « مشاهد القيامة فى القرآن » نمهد بها لوقع هذه السورة فى نفس أم جميل التى ذعرت لها وجن جنونها :

« أبو لهب . سيصلى نارا ذات لهب . . وامرأته حمالة الحطب . ستصلاها وفى عنقها حبل من مسد . .

« تناسق فى اللفظ ، وتناسق فى الصورة . فجهنم هنا نار ذات لهب . يصلاها أبو لهب ! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه فى طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقى أو المجازى) . . والحطب مما يوقد به اللهب . وهى تحزم الحطب بحبل . فعذابها فى النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد . ليتم الجزاء من جنس العمل ، وتتم الصورة بمحتوياتها الساذجة : الحطب والحبل . والنار واللهب . يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب !

« وتناسق من لون آخر . فى جرس الكلمات ، مع الصوت الذى يحدثه شد أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد . اقرأ : « تبت يدا أبى لهب وتب » تجد فيها عنف الحزم

والشد ! الشبيه بحزم الحطب وشده . والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه . والشبيه بجو الخنق والتهديد الشائع فى السورة .

« وهكذا يلتقى تناسق الجرس الموسيقى ، مع حركة العمل الصوتية ، بتناسق الصور فى جزئياتها المتناسبة ، بتناسق الجناس اللفظى ومراعاة النظير فى التعبير ، ويتسق مع جو السورة وسبب النزول . ويتم هـذا كله فى خمس فقرات قصار ، وفى سورة من أقصر سور القرآن » .

* * *

هذا التناسق القوى فى التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد هجاها بشعر . وبخاصة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زرى لأم جميل خاصة . تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها ، مدلة بحسبها ونسبها . ثم ترتسم لها هذه الصورة : « حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » ! فى هذا الأسلوب القوى الذى يشيع عند العرب !

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فهر (أى بمقدار ملء الكف) من حجارة . فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر . أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى . والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله وإنى لشاعرة ! ثم قالت :

مذمماً عصينا وأمره أبينا

ثم انصرفت. فقال أبو بكر : يارسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال : مارأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى . .

وروى الحافظ أبو بكر البزار ــ بإسناده ــ عن ابن عباس قال : لما نزلت : « تبت يدا أبى لهب » جاءت امرأة أبى لهب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر . فقال له أبو بكر : لو تنحيت لاتؤذيك بشىء ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه سيحال بينى وبينها » .. فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر ، فقالت : ياأبا بكر ، هجانا صاحبك.

فقال أبو بكر : لاورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر : مارأتك ؟ قال : « لا . مازال ملك يسترنى حتى ولت » . .

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق ، من سيرورة هذا القول الذى حسبته شعرا (وكان الهجاء لايكون إلا شعرا) مما نفاه لها أبو بكر وهو صادق ! ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التى شاعت فى آياتها ، قد سجلت فى الكتاب الخالد ، وسجلتها صفحات الوجود أيضا تنطق بغضب الله وحربه لأبى لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله ، والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله فى الدنيا ، والنار فى الآخرة جزاء وفاقا ، والذل الذى يشير إليه الحبل فى الدنيا والآخرة جميعا . . .



بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء فى الروايات الصحيحة . قال البخارى : حدثنا إسماعيل : حدثنى مالك عن عبد الرحمان ابن عبد الله ابن عبد الرحمان ابن أبى صعصعة ، عن أبيه ، عن أبى سعد ، أن رجلا سمع رجلا يقرأ : « قل هو الله أحد» يرددها . فلما أصبح جاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر ذلك له ـ وكأن الرجل يتقالها ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » . .

وليس فى هـذا من غرابة . فإن الأحدية التى أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلنها : « قل هو الله أحد » . . هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . . وقد تضمنت السورة ـ من ثم ـ أعرض الخطوط الرئيسية فى حقيقة الإسلام الكبيرة . .

« قل هو الله أحد » . . وهو لفظ أدق من لفظ « واحد » . . لأنه يضيف إلى معنى « واحد » أن لاشىء غيره معه . وأن ليس كمثله شىء .

إنها أحدية الوجود . . فليس هناك حقيقة إلا حقيقته . وليس هناك وجود حقيقى إلا وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقى ، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية .

وهى ـ من ثم ـ أحدية الفاعلية . فليس سواه فاعلا لشىء ، أو فاعلا فى شىء ، فى هـذا الوجود أصلا .

وهذه عقيدة فى الضمير وتفسير للوجود أيضا . .

فإذا استقر هذا التفسير ، ووضح هذا التصور ، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية .

خاص من التعلق بشىء من أشياء هـذا الوجود ـ إن لم يخاص من الشعور بوجود شىء من الأشياء أصلا ! ـ فلا حقيقة لوجـود إلا ذلك الوجـود الإلهى . ولا حقيقة لفاعليـة إلا فاعلية الإرادة الإلهية . فعلام يتعلق القلب بما لاحقيقة لوجوده ولا حقيقة لفاعليته !

وحين يخاص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة . . فعندئذ يتحرر من جميع القيود ، وينطلق من كل الأوهاق . يتحرر من الرغبـة وهى أصل قيود كثيرة ، ويتحرر من الرهبة وهى أصل قيود كثيرة . وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئا متى وجد الله ؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله ؟

ومتى استقر هـذا التصور الذى لايرى فى الوجود إلا حقيقة الله ، فستصحبه رؤية هـذه الحقيقة فى كل وجود آخر انبثق عنها ـ وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله فى كل شىء يراه . ووراءها الدرجة التى لايرى فيها شيئا فى الـكون إلا الله . لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله .

كذلك سيصحبه نفى فاعلية الأسباب . ورد كل شىء وكل حـدث وكل حركة إلى السبب الأول الذى منـه صدرت ،وبه تأثرت . . وهـذه هى الحقيقة التى عنى القرآن عناية كبيرة بتقريرها فى التصور الإيمانى. ومن ثم كان ينحى الأسباب الظاهرة دائما ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله : « وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى » . . « وما النصر إلا من عند الله » . . « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . . وغيرها كثير . .

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحـدها ، تنسكب فى القلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحيد الذى يطلب عنده مايرّغب ، ويتقى عنده ما يرهب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التى لاحقيقة لها ولا وجود !

وهـذه هى مدارج الطريق التى حاولها المتصوفة ، فجذبتهم إلى بعيد ! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هـذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية ، والخلافة الأرضية بكل مقوّماتها ، شاعرين مع هـذا أن لاحقيقة إلا الله . وأن لا وجود إلا وجوده . وأن لا فاعلية إلا فاعليته . . ولا يريد طريقا غير هذا الطريق !

* * *

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه فى النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات :

منهج لعبادة الله وحده . الذى لاحقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده فى الرغبة والرهبة . فى السراء والضراء . فى النعماء والبأساء. وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودا حقيقيا ، وإلى غير فاعل فى الوجود أصلا ؟!

ومنهج للتلقى عن الله وحده. تلقى العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم ، والآداب والتقاليد . فالتلقى لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة فى الواقع وفى الضمير .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحـده . . ابتغاء القرب من الحقيقة ، وتطلعا إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة . سواء فى قرارة النفس أوفيما حولها من الأشياء والنفوس. ومن بينها حاجز الذات ، وقيد الرغبة والرهبة لشىء من أشياء هذا الوجود !

ومنهج يربط ـ مع هـذا ـ بين القلب البشرى وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب . فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها . . فكلها خارجة من يد الله ؛ وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة . فكلها إذن حبيب ، إذ كلها هدية من الحبيب !

وهو منهج رفيع طليق . . الأرض فيه صغيرة ، والحياة الدنيا قصيرة . ومتاع الحياة الدنيا زهيد ، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية . . ولكن الانطلاق عند الإسلام

ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال ، ولا الكراهية ولا الهروب . . إنما معناه المحاولة المستمرة ، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها ، وإطلاق الحياة البشرية جميعها . . ومن ثم فهى الخلافة والقيادة بكل أعبائهما ، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما . كما أسلفنا .

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير . ولكن الإسلام لايريده . لأن الخلافة فى الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهى للخلاص . إنه طريق أشق، ولكنه هو الذى يحقق إنسانية الإنسان . أى يحقق انتصار النفخة العلوية فى كيانه . . وهذا هو الانطلاق . انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهى ، وتحقيق حقيقتها العلوية . وهى تعمل فى الميدان الذى اختاره لها خالقها الحكيم . .

* * *

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه فى القلوب . لأن التوحيد فى هذه الصورة عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر فى الضمير . إنما هو الأمر كله ، والدين كله ؛ وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة فى القلوب .

والانحرافات التى أصابت أهل الكتاب من قبل ، والتى أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم ، نشأت أول مانشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص . ثم تبع هذا الانطماس ماتبعه من سائر الانحرافات .

على أن الذى تمتاز به صورة التوحيد فى العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها ، وقيام الحياة على أساسها ، واتخاذها قاعدة للمنهج العملى الواقعى فى الحياة ، تبدو آثاره فى التشريع كما تبدو فى الاعتقاد سواء . وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هى التى تحكم الحياة . فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة ، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة فى كل ركن من أركان الحياة . .

* * *

ومعنى أن الله أحد : أنه الصمد . وأنه لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . .ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح :

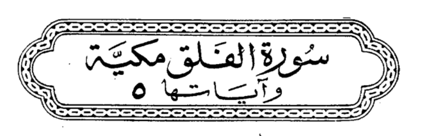
« الله الصمد » .. ومعنى الصمد اللغوى : السيد المقصود الذى لايقضى أمر إلا بإذنه . والله ــ سبحانه ــ هو السيد الذى لاسيد غيره ، فهو أحد فى ألوهيته والكل له عبيد . وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات . وهو الذى يقضى فى كل أمر بإذنه ، ولايقضى أحد معه . . وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد .

« لم يلد ولم يولد » . . فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية ، لاتعتورها حال بعد حال . صفتها الكمال المطلق فى جميع الأحوال . والولادة انبثاق وامتداد ، ووجود زائد بعد نقص أو عدم ، وهو على الله محال . ثم هى تقتضى زوجية تقوم على التماثل . وهذه كذلك محال . ومن ثم فإن صفة « أحد » تتضمن نفى الوالد والولد . .

« ولم يكن له كفوا أحد » .. أى لم يوجد له مماثل أو مكافىء . لافى حقيقة الوجود ، ولافى حقيقة الفاعلية ، ولافى أية صفة من الصفات الذاتية . وهذا كذلك يتحقق بأنه « أحد » ولكن هذا توكيد وتفصيل .. وهو نفى للعقيدة الثنائية التى تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلها يعاكس الله ــ بزعمهم ــ ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد فى الأرض . وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس فى إله النور وإله الظلام ، وكانت معروفة فى جنوبى الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان ! !

* * *

هــذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن سورة « الـكافرون » نفى لأى تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك . . وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه . وقد كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يستفتح يومه ــ فى صلاة سنة الفجر ــ بالقراءة بهاتين السورتين .. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه . .



بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » .

هذه السورة والتي بعدها توجيه من الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعا ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف : خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.. وكأنما يفتح الله ـ سبحانه ـ لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم ، في مودة وعطف : تعالوا إلى هنا . تعالوا إلى الحمى . تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه . تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف ، وأن لكم أعداء ، وأن حولكم مخاوف . وهنا .. هنا الأمن والطمأنينة والسلام ..

ومن ثم تبدأ كل منهما بهذا التوجيه . « قل : أعوذ برب الفلق » .. « قل: أعوذ برب الناس » ..

وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار ، تتفق كلها مع هذا الظل الذي استروحناه، والذي يتضح من الآثار المروية أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ استروحه في عمق وفرح وانطلاق :

عن عقبة ـ ابن عامر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« ألم تر آيات أنزلت هـذه الليلة لم يُر مثلهن قط ؟ قل : أعوذ برب الفلق . وقل : أعوذ برب الناس [١] » . .

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اقرأ ياجابر . قلت : ماذا بأبى أنت وأمى ؟ قال : اقرأ . قل أعوذ برب الفلق . وقل أعوذ برب الناس » فقرأتهما . فقال : « اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما [٢] » . .

وعن ذر ابن حبيش قال : سألت أبى ابن كعب ـ رضى الله عنه ـ عن المعوذتين . قلت: ياأبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا (وكان ابن مسعود لايثبتهما فى مصحفه ثم ثاب إلى رأى الجماعةوقد أثبتهما فى المصحف) فقال : سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « قيل لى : قل . فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [٣] وكل هذه الآثار تشى بتلك الظلال الحانية الحبيبة . .

* * *

وهنا فى هذه السورة يذكر الله ـ سبحانه ـ نفسه بصفته التى بها يكون العياذ من شر ماذكر فى السورة .

« قل أعوذ برب الفلق » . .والفلق من معانيه الصبح ، ومن معانيه الخلق كله . بالإشارة إلى كل مايفلق عنه الوجود والحياة، كما قال فى الأنعام : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى » . . وكما قال : « فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » . .

وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذى يؤمّن بالنور من شر كل غامض مستور ، أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذى يؤمّن من شر خلقه ، فالمعنى يتناسق مع مابعده . .

« من شر ماخلق » . . أى من شر خلقه إطلاقا وإجمالا . وللخلائق شرور فى حالات اتصال بعضها ببعض . كما أن لها خيرا ونفعا فى حالات أخرى . والاستعاذة بالله هنا من شرها

(١) أخرجه مالك ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى .

(٢) أخرجه النسائى .

(٣) أخرجه البخارى .

ليبقى خيرها . والله الذى خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التى ينضح فيها خيرها لاشرها!

« ومن شر غاسق إذا وقب » ..والغاسق فى اللغة الدافق ، والوقب النقرة فى الجبل يسيل منها الماء . والمقصود هنا ـ غالبا ـ هو الليل ومافيه . الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة . والليل حينئذ مخوف بذاته . فضلا على مايثيره من توقع للمجهول الخافى من كل شىء : من وحش مفترس يهجم . ومتلصص فاتك يقتحم . وعدو مخادع يتمكن . وحشرة سامة تزحف . ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب فى الليل ، وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء . ومن شهوة تستيقظ فى الوحدة والظلام . ومن ظاهر وخاف يدب ويثب ، فى الغاسق إذا وقب !

« ومن شر النفاثات فى العقد » .. والنفاثات فى العقد : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس ، وخداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر . وهن يعقدن العقد فى نحو خيط أومنديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء !

والسحر لايغير من طبيعة الأشياء ؛ ولاينشىء حقيقة جديدة لها . ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر . وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم فى قصة موسى عليه السلام : سورة طه « قالوا : ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال : بل ألقوا . فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا : لاتخف إنك أنت الأعلى. وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إن ماصنعوا كيدساحر ولايفلح الساحر حيث أتى .. » .

وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلا ،ولكن خيل إلى الناس ـ وموسى معهم ـ أنها تسعى إلى حد أن أوجس فى نفسه خيفة ، حتى جاءه التثبيت. ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصى المزورة المسحورة .

وهذه هى طبيعة السحر كما ينبغى لنا أن نسلم بها . وهو بهذه الطبيعة يؤثر فى الناس ، وينشىء لهم مشاعر وفق إيحائه .. مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التى يريدها الساحر، وعند هذا الحد نقف فى فهم طبيعة السحر والنفث فى العقد . . وهى شر يستعاذ منه بالله ، ويلجأ منه إلى حماه .

وقد وردت روايات ـ بعضها صحيح ولكنه غير متواتر ـ أن لبيد ابن الأعصم اليهودى

سحر النبي ـ صلى الله عليـه وسلم ـ في المدينة . . قيل أياما ، وقيل أشهرا . . حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء وهولا يأتيهن في رواية ، وحتى كان يخيل إليـه أنه فعل الشيء ولم يفعله في رواية ، وأن السورتين نزلتا رقيـة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما استحضر السحر المقصود ـ كما أخبر في رؤياه ـ وقرأ السورتين انحلت العقد ، وذهب عنه السوء .

ولـكن هـذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وكل قول من أقواله سنة وشريعة ، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ أنه مسحور ، وتـكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هـذا الإفك . ومن ثم نستبعد هـذه الروايات . . وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة . والمرجع هو القرآن . والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد . وهـذه الروايات ليست من المتواتر . فضلا على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح . مما يوهن أساس الروايات الأخرى .

« ومن شر حاسد إذا حسد » . .

والحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها . وسواء أتبع الحاسد هـذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عنـد حد الانفعال النفسي ، فإن شرا يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود ، وأسرار النفس البشرية ، وأسرار هـذا الجهاز الإنساني . فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هـذه الأسرار ، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلا . . هنالك مثلا ذلك التخاطر على البعد . وفيـه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين . اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الـكثيرة المثبتة لها . ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات . وكذلك التنويم المغناطيسي . وقد أصبح الآن موضعا للتجربة المتـكررة المثبته . وهو مجهول السر والـكيفية . . وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني . . .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالا نفسيا معينا إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار، لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته . فنحن لا ندري

إلا القليل فى هذا الميدان . وهذا القليل يُكشف لنا عنه مصادفة فى الغالب ، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك !

فهنا شر يستعاذ منه بالله ، ويستجار منه بحماه [١] . .

والله برحمته وفضله هو الذى يوجه رسوله — صلى الله عليه وسلم — وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور . ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به — وفق توجيهه — أعاذهم . وحماهم من هذه الشرور إجمالا وتفصيلا .

وقد روى البخارى — بإسناده — عن عائشة — رضى الله عنها — أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما ، « قل هو الله أحد » . و « قل : أعوذ برب الفلق » . و « قل : أعوذ برب الناس » . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات » .. وهكذا رواه أصحاب السنن . . .

(١) للأستاذ الشيخ محمد عبده رأى آخر فى تفسير النفاثات فى العقد وحاسد إذا حسد فى تفسيره لجزء عم فيراجع هناك . ومرجعه هو ماسبق أن ذكرنا فى سورة الفيل من ميل المدرسة العقلية لتضييق نطاق الغيبيات . .



سورة الناس مكية وآياتها ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ: أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِنْ شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ » .

الاستعاذة فى هذه السورة برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس .

والاستعاذة بالرب ، الملك ، الإله ، تستحضر من صفات الله ـ سبحانه ـ مابه يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فالرب هو المربى والموجه والراعى والحامى . والملك هو المالك الحاكم المتصرف . والإله هو المستعلى المستولى المتسلط . . وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذى يتدسس إلى الصدور . . وهى لاتعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

والله رب كل شىء ، وملك كل شىء ، وإله كل شىء . ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى فى موقف المعاذ والاحتماء .

والله ـ برحمة منه ـ يوجه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه ، مع استحضار معانى صفاته هذه ، من شر خفى الدبيب ، لاقبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملك الإله . فهو يأخذهم من حيث لايشعرون ، ويأتيهم من حيث لايحتسبون . والوسوسة : الصوت الخفى . والخنوس : الاختباء والرجوع . والخناس هو الذى من طبعه كثرة الخنوس .

وقد أطلق النص الصفة أولا : « الوسواس الخناس » . . وحدد عمله : « الذى يوسوس فى صدور الناس » . ثم حدد ماهيته : « من الجنة والناس » . . وهذا الترتيب يثير فى الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته فى أول الكلام ؛ ولإدراك طريقة فعله التى يتحقق بها شره ، تأهبا لدفعه أو مراقبته !

والنفس حين تعرف — بعد هذا التشويق والإيقاظ — أن الوسواس الخناس يوسوس فى صدور الناس خفية وسرا ، وأنه هو الجنة الخافية ، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنة ، ويوسون وسوسة الشياطين .. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع ، وقدعرفت المكمن والمدخل والطريق !

ووسوسة الجنة نحن لاندرى كيف تتم ،ولكننا نجد آثارها فى واقع النفوس وواقع الحياة. ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ؛ وأن الشيطان قد أعلنها حربا تنبثق من خليقة الشر فيه ، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان ! وأنه قد استصدر بها من الله إذنا، فأذن فيها — سبحانه — لحكمة يراها ! ولم يترك الإنسان فيها مجردا من العدة . فقد جعل له من الإيمان جُنة ، وجعل له من الذكر عدة ، وجعل له من الاستعاذة سلاحا .. فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم !

عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس [1] » .

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشىء الكثير . ونعرف منها ماهو أشد من وسوسة الشياطين !

رفيق السوء الذى يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لايحتسب ومن حيث لايحترس ، لأنه الرفيق المأمون !

وحاشية الشر التى توسوس لكل ذى سلطان حتى تتركه طاغية جبارا مفسدا فى الأرض، مهلكا للحرث والنسل !

والنمام الواشى الذى يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذى لامرية فيه .

---

(١) أخرجه البخارى معلقا .

وبائع الشهوات الذى يتدسس من منافذ الغريزة فى إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التى يعرفونها أو يتحسسونها . . وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيبا !

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية . ومن ثم يدله الله على عدته وجنته وسلاحه فى المعركة الرهيبة !

وهناك لفتة ذات مغزى فى وصف الوسواس بأنه « الخناس » . . فهـذه الصفة تدل من جهة على تخفيـه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس . ولـكنها من جهـة أخرى توحى بضعفه أمام من يستيقظ لمـكره ، ويحمى مداخل صدره . فهو ـ سواء كان من الجنة أم كان من الناس ـ إذا ووجه خنس ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى .أو كما قال الرسول الـكريم فى تمثيله المصور الدقيق : « فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » . .

وهذه اللفتة تقوى القلب على مواجهة الوسواس . فهو خناس . ضعيف أمام عدة المؤمن فى المعركة .

ولـكنها ـ من ناحية أخرى ـ معركة طويلة لا تنتهى أبدا . فهو أبدا قابع خانس ، مترقب للغفلة . واليقظة مرة لاتغنى عن اليقظات . . والحرب سجال إلى يوم القيـامة ؛ كما صورها القرآن الـكريم فى مواضع شتى ، ومنها هذه الصورة العجيبة فى سورة الإسراء :

« وإذ قلنا للملائـكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟ قال : أرأيتك هـذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنـكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جـزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ،وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا » . .

وهـذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها ـ سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر ـ من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوبا على أمره فيها . فإن ربه وملـكه وإلهه مسيطر على الخلق كله . وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو آخـذ بناصيته . وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملـكهم وإلههم . فأما من يذكرونه

فهم فى نجوة من الشر ودواعيه الخفية . فالخير إذن يستند إلى القوة التى لاقوة سواها ، وإلى الحقيقة التى لاحقيقة غيرها . يستند إلى الرب الملك الإله . والشر يستند إلى وسواس خناس ، يضعف عن المواجهة ، ويخنس عند اللقاء ، وينهزم أمام العياذ بالله . .

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر . كما أنه أفضل تصور يحمى القلب من الهزيمة ، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة . .

والحمد لله أولا وأخيرا . وبه الثقة والتوفيق . . وهو المستعان المعين . . . .

كتب للمؤلف

١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الـكتب العربية
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة خامسة)	« « « «
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(« ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥ ـ دراسات إسلامية	(« أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(« رابعة)	دار المعارف
٧ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(« ثالثة)	« «
٨ ـ المدينة المسحورة	(« ثانية)	« «
٩ ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« ثانية)	دار الفـكر العربى
١٠ ـ أشواك	(« أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
١١ ـ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين
١٢ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	« « «
١٣ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	« « «
١٤ ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	. . . نفد
١٥ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	. . . «
١٦ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(«)	. . . «
١٧ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	. . . «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى	(٢) أمريكا التى رأيت
(٣) حلم الفجر (شعر)	(٤) قافلة الرقيق (شعر)

